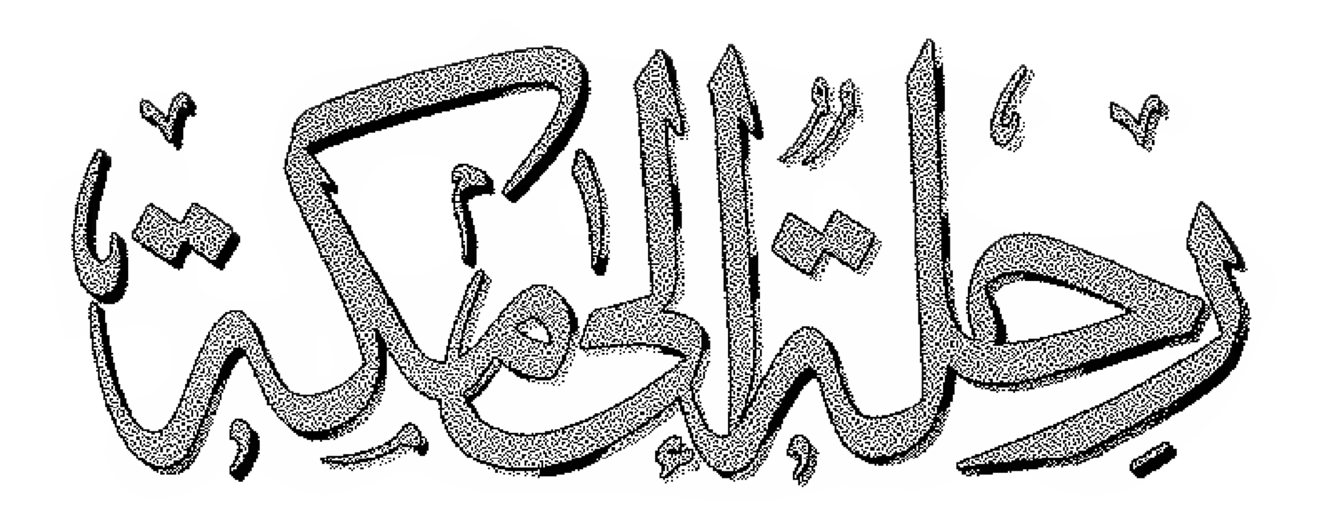


د. مراد هوفمان

مكتبة العبيكان

مُرَاد هُوفْمَان

رِحْلَةٌ إلى مكة

مكتبة العبيكان

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

هوفمان، مراد

رحلة إلى مكة.- الرياض.

٢٢٩ ص؛ ١٧X٢٤ سم

ردمك: ١ - ٧٤٧ - ٢٠ - ٩٩٦٠م

١- اعتناق الإسلام أ- العنوان

ديوي ٢١٣ ٢١/٢٧٣٤

ردمك: ١ - ٧٤٧ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع ٢١/٢٧٣٤

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م

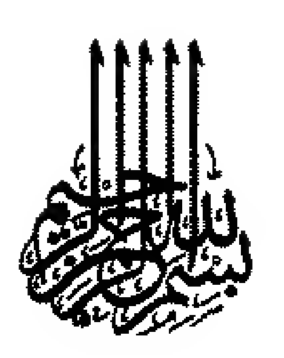
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



مقدمة

عندما نشرت دار ديتريش الألمانية، في عام ١٩٢٢، كتابي «الإسلام كبديل»، ثارت زوبعة هائلة في وسائل الإعلام، وفي دوائر الأحزاب، وفي البرلمان. وكان القبول بما ثار آنذاك يعد تفريطاً، لأنه كان يتجاوز شخصي بكثير؛ فقد كان حملة قذف وتشويه منظمة تستهدف ما هو أبعد من شخصي.

لقد حاولت في كتابي المذكور، وبمنهج عقلاني، دحض جميع التحيزات والأفكار الخاطئة وغير المعقولة، السابقة والضاربة بجذورها في أعماق الوجدان الألماني حيال الإسلام، ولاسيما أنني كنت أشعر بضراوتها وتبادرها للذهن الألماني قبل أي دراسة أو معرفة بالأمر.

وإذا كان الكتاب المشار إليه قد تناول الإسلام من خلال رؤيته هو لذاته، وللصورة التي يريد أن يكون عليها، ولتلك التي ينبغي أن يكون عليها، فإن الكتاب الحالي يعنى بشيء آخر، هو حقيقة الإيمان كما أعيشها أنا وأعايشها.

أما حقيقة أن الأديان الكبرى كافة لا تمارس بحذافيرها وفق نموذجها من جانب أتباعها، فأمر طبيعي، بل وإنساني، بالنظر إلى متطلباتها الأخلاقية والفكرية العالية، كتلك التي يطمح إليها الإسلام. ومن هذا المنطلق:

إنني أتمنى أن يساعد كتابي هذا على إدراك القوة الدافعة التي يستمدها المسلم المؤمن من دينه، وكيف تستطيع أن تسمو به، وأن يساعد كذلك على تبين الأفق الذي يمكن أن يصل إليه العالم الإسلامي عند تمسكه بهذا الدين في حياته اليومية.

إسطنبول - يناير ١٩٩٦

مراد فلفريد هوفمان

الفصل الأول

الرحلة إلى مكة

بعد أن سلمنا أمتعتنا المتواضعة لكي تشحن إلى جدة، بعد انتظار طال في الدَّوْر بمطار الدار البيضاء، فوجئنا بموظف الخطوط الملكية المغربية يخبرنا، من دون مقدمات، أن علينا أن نختار بين العودة إلى الرباط، بما يعنيه ذلك من أنه يتعين علينا أن نقطع مسافة ١٢٥ كيلو متراً، أو أن نمضي وقتنا في الدار البيضاء.

كانت هذه هي الطريقة التي رأى أن يخبرنا بها أن طائرة الجامبو التابعة للخطوط الجوية السعودية لم تصل إلى داكار بعد، إذ هي في طريقها إلى الدار البيضاء.

كان هذا الأمر كفيلاً، في ظروف عادية، باستفزاز الركاب وإثارة غضبهم. أما في هذه الظروف، وكل الركاب من الحجاج، وغالبيتهم من النساء القاصدين مكة لأداء فريضة الحج، فإن الأمر يختلف، لأن القرآن الكريم[1] يعلمهم قائلاً: ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [البقرة: ١٩٧]. ومعنى ذلك أن على الحاج أن يتحلى بالصبر، وأن يتفادى الدخول في خلاف أو حتى الشروع فيه. ناهيك عن أنه محرم عليه أن يجرح شخصاً أو شيئاً، أو أن يقتلع نباتاً، أو يقتل حتى بعوضة.

---

(١) Koran، هي الكتابة الصوتية للكلمة العربية: قرآن (الذي يقرأ). والكلمة تنطق في مقطعين منفصلين. ويتكون القرآن من ١١٤ سورة، وما يزيد على ٦٠٠٠ آية، وهي مجمل الوحي الإلهي الذي تنزّل على الرسول محمد، منذ عام ٦١٠م حتى وفاته في عام ٦٣٢م. ولا يتطابق الترتيب الزمني لنزول الآيات مع الترتيب الذي نقرؤه اليوم في القرآن. فترتيب آيات القرآن تم تحديده في شكله النهائي -الذي بين أيدينا اليوم- عام ٦٤١م.

لهذا السبب، بقيت الأمور هادئة، في إطار من السلوك المتحضر. وانتهى الأمر بتأجيل سفرنا من مساء يوم ٢٨ من مايو عام ١٩٩٢م، إلى صباح اليوم التالي. وعلى الرغم من ذلك، فإن أياً من الحجاج لم يرغب في مغادرة مطار محمد الخامس؛ فمن ذا الذي يجازف بتعريض نفسه لاحتمال التخلف عن أهم رحلة في حياته، ولاسيما أنه كان قد ودَّعه أقاربه وأصدقاؤه؟! واستعادوا إلى الذاكرة أن رحلة المغربي إلى الأماكن المقدسة بالحجاز كانت تستغرق في الأزمنة السالفة حولاً كاملاً، ناهيك عن أنها كانت تعني للكثيرين رحلة بلا عودة!!

لم يكن أحد ليرغب في العودة إلى الرباط، قبل أن يؤدي فريضة الحج إلى بيت الله بمكة[1]، ويعود مسلماً حاجاً.

وعند صلاة العشاء، يتحول مطار الدار البيضاء بصالة السفر وصالة كبار الزوار إلى مسجد كبير ممتد الأركان. ويتكرر هذا الأمر مرة أخرى عند صلاة الفجر.

وتقوم امرأة من الريف برعاية زوجها الكفيف بشكل مؤثر. أما هو فمستغرق في الصلاة على نحو يحتذي به البصير!

ونحاول في تلك الأثناء، والشحوب يكسو وجوهنا والكلام يندر بيننا، أن نحصل على شيء من الطعام من مطعم المطار.

(١) الحج: كلمة عربية تشير إلى الرحلة المقدسة الكبرى إلى مكة وما حولها. والحج فريضة يجب على المسلم القادر أداؤها مرة واحدة في حياته، وذلك في ميقات محدد، هو شهر ذي الحجة، أي الشهر الثاني عشر من الشهور القمرية العربية. أما العمرة، فهي رحلة إلى الأماكن المقدسة في أي وقت من العام. ويمكن كذلك أداء العمرة مع الحج في الوقت نفسه. ويقوم غالبية الحجاج والمعتمرين بزيارة مسجد الرسول في المدينة.

على المنضدة التي كنت أجلس عليها كان شاب سعودي يجلس. تحدث من دون مقدمات، فقال: أتعرض في سفرياتي لإغراء احتساء الخمر، ولكن يمنعني عنه ما تحدثني به نفسي: إنك من أهل مكة!

وأتذكر بعضاً من الذين حادوا عن جادة الحق، وأتمنى أن يسلكوا مسلك هذا الشاب، وأن يفرض عليهم انتماؤهم إلى مكة نوعاً من الالتزام.

أخيراً، وفي الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي، تقلع طائرة الخطوط الجوية السعودية من طراز بوينج ٧٤٧ متجهة إلى جدة، مروراً بداكار، عبر كل من صحاري ليبيا الشاسعة والسودان.

وبدلاً من الموسيقى «المخدرة»، التي اعتدنا أن نسمعها عند إقلاع الطائرات، تنبعث من أجهزة الاستماع بالطائرة آيات من القرآن الكريم.

في داكار، ينضم إلى رحلتنا عدد من الحجاج، بينهم مختار ديوري نجل الرئيس السنغالي ضيوف. وننظر إليهم، فنجدهم أمثلة مضيئة للحجاج، تشع وجوههم سعادة واطمئناناً.

تقترب رحلة الطائرة من نهايتها، ويعلن قائدها قبل هبوطها بنصف ساعة أننا سنطير فوق منطقة الحرم حول مكة، وهي منطقة لا يدخلها الحاج، حتى وإن كان محلقاً في الفضاء، إلا بملابس الإحرام.

كان هذا الإعلان بمنزلة تنبيه لكل من عقد العزم والنية على أداء فريضة الحج وبدء مناسكه، لكي يرتدي ملابس الإحرام. ولم تلبث مقاعد الركاب أن أشرقت في الحال، وتلألأت ببياض مبهر!

فالنساء جميعاً يرتدين ملابس بيضاء، تغطي معاصمهن وأقدامهن، ويضعن على رؤوسهن أغطية رأس بيضاء، في حين يلف الرجال حول الكتف والخصر مناشف بيضاء، طولها ١٨٠ سنتيمتراً، وعرضها ١٠٠ سنتيمتر.

لم أبدل ثيابي، لأنني كنت قد عقدت العزم على التوجه أولاً إلى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، ثم أقوم بعد زيارته بالشروع في مناسك الحج قبل التوجه إلى مكة.

كان كل ما يحتاج إليه الحاج في حقيبتي، وقد حصلت عليه من سوق سالي، مدينة القراصنة القديمة، ذلك السوق الذي يرجع تاريخه إلى العصور الوسطى. وكل متاع الحاج قطعتا قماش، وحافظة غير مخيطة لحمل القرآن الكريم وبعض من الماء، ومظلة بيضاء للوقاية من أشعة الشمس (شمسية)، وحزام عريض من الجلد، غير مخيط وإنما مبرشم لتثبيت المنشفة وبه الجيوب الثلاثة المعتادة التي يستخدم أحدها لحفظ جواز السفر، والثاني لحفظ تذكرة الطائرة، والثالث لحفظ بعض الأدوية. وكنت قد أحضرت معي، عملاً بنصيحة الطبيبة الخبيرة بالحج، أدوية لعلاج آلام الرأس (الصداع) وآلام الأسنان، واضطرابات المعدة، والإسهال والقيء، وارتفاع درجة الحرارة، إلى جانب ضمادات للأقدام الملتهبة، ومصل للوقاية من الالتهاب السحائي. وكان معي أيضاً، بالإضافة إلى ما تقدم، زوجان من «النِّعال» غير مخيطين، صنعهما بناءً على طلبي ولصقهما وضفرهما إسكافي شبه كفيف في سوق سالي. ويبدو على الأرجح أن هذا الشيخ عمل طوال حياته في صناعة أحذية الحجاج وتزويدهم بها، غير أنه -على ما يبدو لي- لم يعد متمكناً من حرفته. فعند انصرافي من أمامه، أومأ لي أحد جيرانه، وأخذ مني زوجي النِّعال، وقام في صمت تام ودون أن يلحظ الشيخ المسكين شيئاً، بإصلاحهما من دون مقابل.

فالنساء جميعاً يرتدين ملابس بيضاء، تغطي معاصمهن وأقدامهن، ويضعن على رؤوسهن أغطية رأس بيضاء، في حين يلف الرجال حول الكتف والخصر مناشف بيضاء، طولها ١٨٠ سنتيمتراً، وعرضها ١٠٠ سنتيمتر.

لم أبدل ثيابي، لأنني كنت قد عقدت العزم على التوجه أولاً إلى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، ثم أقوم بعد زيارته بالشروع في مناسك الحج قبل التوجه إلى مكة.

كان كل ما يحتاج إليه الحاج في حقيبتي، وقد حصلت عليه من سوق سالي، مدينة القراصنة القديمة، ذلك السوق الذي يرجع تاريخه إلى العصور الوسطى. وكل متاع الحاج قطعتا قماش، وحافظة غير مخيطة لحمل القرآن الكريم وبعض من الماء، ومظلة بيضاء للوقاية من أشعة الشمس (شمسية)، وحزام عريض من الجلد، غير مخيط وإنما مبرشم لتثبيت المنشفة وبه الجيوب الثلاثة المعتادة التي يستخدم أحدها لحفظ جواز السفر، والثاني لحفظ تذكرة الطائرة، والثالث لحفظ بعض الأدوية. وكنت قد أحضرت معي، عملاً بنصيحة الطبيبة الخبيرة بالحج، أدوية لعلاج آلام الرأس (الصداع) وآلام الأسنان، واضطرابات المعدة، والإسهال والقيء، وارتفاع درجة الحرارة، إلى جانب ضمادات للأقدام الملتهبة، ومصل للوقاية من الالتهاب السحائي. وكان معي أيضاً، بالإضافة إلى ما تقدم، زوجان من «النِّعال» غير مخيطين، صنعهما بناءً على طلبي ولصقهما وضفرهما إسكافي شبه كفيف في سوق سالي. ويبدو على الأرجح أن هذا الشيخ عمل طوال حياته في صناعة أحذية الحجاج وتزويدهم بها، غير أنه -على ما يبدو لي- لم يعد متمكناً من حرفته. فعند انصرافي من أمامه، أومأ لي أحد جيرانه، وأخذ مني زوجي النِّعال، وقام في صمت تام ودون أن يلحظ الشيخ المسكين شيئاً، بإصلاحهما من دون مقابل.

مخترقة شوارع جدة، حتى إننا فقدنا إحدى سياراتنا الأجرة. وحينما وصلنا إلى المطار من قبل الموعد المحدد، كان علينا أن ننتظر ركاب سيارة الأجرة المفقودة، في جو قائظ تصل حرارته إلى ٤٠ درجة مئوية!! ألم أقل من قبل إن الصبر هو أولى فضائل الحج؟!

أقلتنا طائرة من طراز هرقل ١٣٠، تابعة للقوات الجوية السعودية، في رحلة استغرقت ٥٠ دقيقة، إلى المدينة المنورة، التي كانت ملجأ وملاذ محمد ﷺ ممن اضطهدوه من المكيين، وفيها أصبح الإسلام ديناً ودولة، ووضع رسول الإسلام ﷺ أول دستور مكتوب لكيان فيدرالي - يحقق اتحاداً بين المسلمين واليهود - وفيها أكمل رسالته الخاتمة، وفيها تُوفي.

توجهت على الفور، بصحبة الشيخ نحناح، إلى مسجد الرسول ﷺ حيث قبره. ولقد أنشئ هذا المسجد بجوار مقر إقامة محمد ﷺ. ومع الحفاظ على منازله ﷺ جرى توسيع المسجد أكثر من مرة. وتبدو كل المحاولات السابقة لتوسيعه شديدة التواضع بالمقارنة بالتوسعات الأخيرة كما يرى الجميع. ففي زيارتي الأخيرة، في عام ١٩٨٢م، كان هناك ٦ مآذن فقط، صارت الآن ١١ مئذنة، ومن المخطط له بناء ٣ مآذن أخرى. وفيما مضى كان المسجد يتسع لبضع مئات من المصلين، أما الآن فتبلغ مساحته نحو ٧٠٠ ألف متر، تتسع لنحو ٦٠٠ ألف مصلٍّ. أما أعمدته الكثيرة، فصورة مصغرة للمسجد الأموي بقرطبة. ولقد قامت إحدى الشركات الهندسية، التي يديرها مسلمون ألمان، بتزويد المساحات غير المسقوفة من المسجد بمظلات واقية من أشعة الشمس، يبلغ قطر كل منها نحو ١٨ متراً، تفتح وتغلق حسب سقوط أشعة الشمس، وتستدير في اتجاهها.

حينما حان موعد صلاة العشاء، ودرجة الحرارة ٤٤ درجة مئوية، اجتمع في المسجد مئات الألوف من المصلين، جاؤوا من شتى الاتجاهات.

وعندما تحاول سيارات الأجرة الأمريكية الفارهة، التي تقل بعض الحجاج، اختراق حشود المسلمين، لا تسمع كلمة غاضبة، ولا تصدر إشارة قبيحة، ولا يضرب أحد بيده على السيارة حقداً على أصحابها.

ويبقى الانضباط والالتزام بهذا السلوك من جانب هذا الحشد من المسلمين مثيراً للدهشة، حتى بالنظر إلى التزام الحجاج بمسالمة الإنسان والحيوان والنبات. ولم أكن أعتقد قبل هذه التجربة أن التعاليم الدينية تستطيع أن تلغي بعض القوانين والقواعد الاجتماعية مدة من الزمن.

كان يجاورني في الصلاة مواطن باكستاني يعمل في مصرف بالبحرين، ومواطن تركي يعمل في بوخوم. وهذا الالتقاء العالمي هو أحد أهداف الحج. وعلى الرغم من أن جوانب المسجد مفتوحة، فإننا لم نكن نتوقع أن تكون درجة الحرارة بداخل المسجد ٢٨ درجة مئوية فقط. وهو ما أثار دهشتنا التي لم تلبث أن تبددت حينما علمنا أن المسؤولين السعوديين يمررون ماء مثلجاً تحت المسجد. ولابد أن هذا الماء يأتي من مسافة بعيدة، لأن الحرارة الناتجة عن عملية التبريد كانت كفيلة بأن تصل بهذه المدينة إلى درجة الغليان.

تمكنا عند منتصف الليل من زيارة قبر محمد ﷺ وقبري أبي بكر وعمر - أول وثاني الخلفاء الراشدين - في أقدم أجزاء المسجد، حيث كان منزل الرسول ﷺ ومقر إقامته. ها هنا مثواه، حيث دفن في حجرة زوجته عائشة، التي تحظى باحترام كبير، والمعروف عنها ذكاؤها الشديد، وإليها يرجع الفضل في وصول

عدد كبير من الأحاديث الصحيحة إلينا، في صورتها الدقيقة.

إن الوجود حيث عاش الرسول ﷺ - الذي حظي باحترام شديد دون أن يؤلّه على الإطلاق- وحيث خطط، وعمل، ووعظ، وأحب، وعانى سكرات الموت، لأمرٌ يستحوذ على الأنفس كلها. وفي هذا المكان، الذي يفوح منه عبق التاريخ، هزت التجربة، من الأعماق، بعض الحجاج الذين صاحبوني، فأجهشوا ببكاء حار.

وحين غادرنا المسجد عند منتصف الليل، رأيت مجموعة من نساء ماليزيا ما تزال تحتل محرابه الوقور مع بساطته. إنهن لم يشبعن من أداء الصلاة في هذه البقعة الشريفة. ولم يخطر ببال أحد - حتى من مسؤولي النظافة- أن يبعدهن، ولو بمجرد النظر إلى الساعة!

عقب انصرافنا من المسجد، شاركنا حتى صلاة الفجر في نقاش مع مجموعة من طلاب الشريعة الجزائريين في مكان إقامتهم المتواضع النظيف الذي يطلقون عليه -بحق- اسم «النهضة». وكنت قد أدركت، ونحن في الطريق إليهم، الشعبية المنقطعة النظير التي يحظى بها رفيق رحلتي. فلم يكن الشيخ نحناح يسير ٥٠ متراً دون أن يلقاه أحد الجزائريين مرحباً، ومعانقاً، وسائلاً المشورة.

في اليوم التالي، قمت بزيارة إلى البقيع - المقابر الشهيرة - حيث يرقد جثمان كثير من الصحابة وأهل بيت الرسول ﷺ، الذين وافتهم المنية بالمدينة. ومن بين من دفن هنا: السيدة عائشة، والسيدة فاطمة ابنة الرسول ﷺ زوجة علي وأم حفيدي الرسول ﷺ: الحسن والحسين ولا توجد هنا مشاهد مميزة للمقابر، خلافاً لما عليه الحال في طراز المرابطين في المغرب. بل إن

الأمر يختلف أيضاً اليوم عما كان عليه في عام ١٩٨٢م، حيث أمكننا آنذاك التعرف على قبر الخليفة عثمان. فالمقابر قد سويت بالأرض، ولم يعد هناك اليوم من سبيل إلى قصدها للزيارة، وإحياء ذكرى من يرقدون بها من الموتى. ويمثل هذا المنع الجذري لمظاهر التأليه استفزازاً لمجموعة من الحجاج الشيعة من إيران، وبصفة خاصة فيما يتعلق بفاطمة الزهراء.

وكان من وافاه أجله من الحجاج، يحمل إلى المسجد لتقام عليه صلاة الجنازة. ولم يكن يحزننا سوى أنهم لم يكملوا أداء مناسك الحج. ولكن أهناك موت أفضل من الموت بمكة أو في المدينة؟! أو لا يأتي كثيرون إلى هنا على أمل قضاء أيامهم الأخيرة؟! لقد كنت أدرك احتمال أن أكون بين من يُحملون إلى المسجد في مرة قادمة، لكن لم يفزعني هذا الخاطر على الإطلاق.

بعد زيارة البقيع، توجهنا إلى المسجدين التاريخيين: قباء والقبلتين، وإلى موقع معركة أُحُد حيث مثوى سبعين من الصحابة، بينهم الفارس حمزة عم محمد ﷺ، وحيث مُنِي المسلمون الأوائل بهزيمتهم القاسية والوحيدة، بسبب ضعف الانضباط وعدم الالتزام التخطيطي، وحيث أصيب محمد ﷺ بإصابات بالغة، وتعرض للموت.

إن منطقة أحد لا تعدو اليوم أن تكون مكاناً مقفراً قاحلاً، لا زرع فيه ولا ضرع، ولا يتيح لسائح راغب في العلم أو المعرفة أن يحقق رغبته. أما المسجدان الموصوفان بأنهما تاريخيان، فبلا تاريخ، للأسف الشديد. فبسبب الخوف من أن يؤدي التقدير العظيم لما هو قديم إلى الشّرك، أعيد بناء المسجدين - دون مراعاة لمكانتيهما- على نحو طمس معالمهما التاريخية. لقد كان باستطاعتي في عام ١٩٨٢ أن أرى القبلتين في مسجد

القبلتين؛ القبلة الأولى للمسلمين الأوائل باتجاه القدس، والقبلة الثانية للمسلمين الأوائل أيضاً باتجاه مكة.

في اليوم الثالث من شهر يونيو، عدنا إلى جدة على متن إحدى طائرات القوات الجوية السعودية.

وكنا قبل العودة قد زرنا أحدث مطابع العالم عند طرف المدينة المنورة، حيث يطبع سنوياً ٣٨ مليون نسخة من القرآن الكريم توزع مجاناً، من بينها ملايين من النسخ من الترجمات الإنجليزية والفرنسية، وحتى الكورية، للقرآن الكريم. ويحصل كل حاج على نسخة خاصة له.

عقدت النية على أداء فريضة الحج، وعلى نحو أقرب ما يكون للذي فعله الرسول ﷺ، أي أداء مناسك العمرة أولاً ثم أداء مناسك الحج. فاغتسلت وتلوت الأدعية الواجبة، وارتديت ملابس الإحرام، وبذلك أتممت استعدادي لأداء فريضة الحج قبل أن نتوجه إلى المطار بمدة قصيرة.... مدة قصيرة؟! لقد انتظرنا ساعتين وصول السيارة التي كانت ستقلنا إلى المطار، حيث انتظرنا مدة ساعتين أخريين قبل أن تقلع بنا الطائرة. ومع ذلك لم ينبس أحد بكلمة.

انتهزت فرصة وقت الانتظار للتحدث مع مجموعة من المتخصصين في الكومبيوتر من أمريكا الشمالية، سرعان ما تبين أنهم من الشيعة. هل يمكن للمرء أن يتخيل عملاً يلقى نفوراً واستهجاناً أكثر من هذا لدى الرأي العام الأمريكي خاصة في ظل حرب الخليج الثانية؟!

على الرغم من أنني ارتديت ملابس الإحرام مدة نصف يوم عندما أديت عمرتي الأولى - الحج الأصغر - في عام ١٩٨٢م، فإنني لا أشعر بعد بالراحة من

ملابس الإحرام هذه المرة. ومع ذلك، يستطيع المرء أن يحمي نفسه من ضربة الشمس بوساطة الجزء العلوي الذي يتحرك دوماً من مكانه، كما أن نسيجها يمتص العرق، وإن كانت الأبدان تقشعر من البرد في الغرف المكيفة. ولكن أهم ما في الأمر هو أن الحجاج كافة يرتدون الثياب نفسها، يستوي في ذلك أغنياؤهم وفقراؤهم، أقوياؤهم وضعفاؤهم، أذكياؤهم وبسطاؤهم، كبيرهم وصغيرهم. ولما كانت ملابس الإحرام خالية من النقوش أو الخياطات، فلا يمكن لأحد أن يتميز عن آخر، ولو بمجرد الخياطة الأنظف ولا ترمز ملابس الإحرام فقط إلى تساوي البشر أمام الله، وإنما ترمز أيضاً إلى يوم القيامة. فلقد كنا نبدو- ونحن نقطع صالة المطار جيئة وذهاباً - كمن قام من الموت وما يزال يرتدي كفنه. بل إن كثيراً من الحجاج يحتفظون بالفعل بملابس إحرامهم لتكون أكفاناً لهم.

عند إقلاع الطائرة، كان بعض مسؤولي المراسم في المدينة المنورة يقفون هناك.

كل حركاتهم وخطواتهم وقورة ومحسوبة. وهم جميعاً يتمتعون بقامات فارعة، وهندام نبيل معبر ذي أنف معقوفة قليلاً، ولحى قصيرة معتنى بها بشدة. وتوحي عباءاتهم الخفيفة السوداء ذات الحواشي الذهبية بجلال ملكي... أيّ تناقض بين ما هم فيه، وما نحن فيه من أكفاننا؟!

كان رفاق رحلة حجي من السنغاليين في الطائرة شديدي الحساسية تجاه العرب، الذين يعدون أنفسهم - تشبهاً باليهود- أفراد شعب الله المختار، كما هو الأمر في حالة قريش مكة وقبائل المدينة، وهم ليسوا كذلك وحدهم بطبيعة الحال. ومن جانبي، أقررت أنه لا بد للمرء من أن تدور رأسه غروراً إذا ما صادفه الحظ الأوفر مرتين في تاريخ العالم: أولاهما، عندما بعث خاتم الرسل في

الأرض العربية برسالة بالعربية. والثانية، عند ظهور بركة النفط والغاز الطبيعي...

رفض جميع من بالطائرة القبول بأن العرب ينفردون بوضع يتيح لهم وحدهم فهم الرسالة الإلهية للقرآن. فالإسلام لا يعرف التفرقة العنصرية.

كان ضجيج الطائرة يجعل من مواصلة هذه الأحاديث أمراً شاقاً. ولم يكن الحال كذلك بالنسبة للتلبية، التي أخذنا نرددها كما فعل كل الحجاج قبلنا منذ ١٤٠٠ سنة: «لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك». ولسوف يظل هذا الدعاء يتردد على مسامعي حتى يوم عيد الأضحى، إن لم يكن مني أنا فمن شخص على مقربة مني. وكنا قد علمنا في هذا اليوم بموعد العيد، فلقد ظهر هلال شهر ذي الحجة بالليل. ومعنى ذلك أن وقفة عرفات ستكون يوم العاشر من شهر يونيو، وسيكون عيد الأضحى يوم الحادي عشر منه، حيث نصل إلى نهاية المطاف.

في الرابع من شهر يونيو، قمت برفقة وزير الشؤون الإسلامية السريلانكي وأسرته بأداء العمرة. ولقد كان انتظارنا في جدة طول مدتي ما بعد الظهر والمساء، قبل أن نغادرها إلى مكة، أمراً مفيداً، لأننا حينما وصلنا إلى مكة عند منتصف الليل كانت درجة الحرارة قد انخفضت إلى ٣٨ درجة مئوية. وقبيل أن نصل إلى غايتنا، عبرنا أحد الأنفاق التي شُقّت في صخور مكة المكرمة. ولكم كانت المفاجأة مذهلة، عندما خرجنا من النفق لنجد أمامنا المسجد الكبير الرائع!

ها نحن أولاء نقف في تقليد إبراهيمي أمام أقدم معابد التوحيد في العالم.. أمام الكعبة. والكعبة مكعب مجوف خال تماماً، مبني بأحجار ضخمة. إنها

صورة معمارية لكمال بيت الله في أبسط تصوير، بعيداً عن التعقيد الذي يبدو في الفن القوطي وفن الروكوكو. وهي تُكْسى بمخمل أسود مطرز بآيات من القرآن الكريم بخيوط من الذهب. ويتم تغيير الكسوة سنوياً. وتقوم مجموعة من المطرزين طول العام على إعداد الكسوة في ثوب فني جميل. وفيما سلف من الزمان، كانت كسوة الكعبة تأتي من القاهرة هدية من الخديوي، وترفع الكسوة عن الكعبة في أثناء مدة الحج، حتى لا يتصور أحد أن بيت الله تحفة فنية، أو يراد له أن يكون تحفة فنية.

عند دخولنا إلى الحرم المكي، خضعنا لعملية تفتيش سريعة، للتأكد من أننا لا نحمل أسلحة، دلفنا بعدها إلى داخله برغبة تكاد تكون مقدسة للطواف سبعاً وتواعدنا على اللقاء بعد ساعتين.

بدأنا بعد ذلك نطوف حول الكعبة.. التي يتجه إليها مليار من البشر في صلواتهم اليومية. ولم يغب عن خاطري طول الطواف أننا نتجه في طوافنا إلى الله. وأضفت إلى الأدعية المعتادة دعاء شخصياً مفاده: «اللهم اجعل الحق يقر في نفسي، واجعل الحق حقيقتي الشخصية».

تذكرت أن هذا البيت كان في سنوات شباب محمد مليئاً بالأصنام، ومن بينها تمثالان: أحدهما للمسيح، والآخر لمريم. أي إنه كان يعكس تعدداً دينيًا اقتصادياً ناجحاً ومذهلاً، إذ كان يتطابق مع معنى أيديولوجي حديث ألا وهو «كل شيء يصلح». ولقد كانت مكة آنذاك مركزاً تجارياً عالمياً. أما اليوم، فهي مركز حج عالمي. وكانت وقتها تستقبل في الأشهر الأربعة الحرم أي إنسان، في حين لا تستقبل اليوم سوى المسلمين من أرجاء العالم كافة.

لم يكن من اليسير، والحجاج يتدافعون ويتزاحمون، أن تعي رمزاً لمكان، وأن تحتفظ في هذا الخضم الهائل بروحانية الفعل الذي لولاه لتحول الحج إلى مجهود بدني بحت. وكنت غالباً ما أدفع من نساء أناضوليات عريضات البنية، يتعلقن بأزواجهن الأقوياء الذين يقدمونهن. وهذا أمر لا يفتقر إلى الغرابة، ولا سيما أن قائد هذا التشكيل يرفع كتاب أدعية باللغة التركية، يتلو منه بإخلاص واجتهاد ولكنه أبعد ما يكون عن الطرافة، بل هو أمر يهدد الحياة نفسها إذا ما تحول المرء إلى كرة تتقاذفها هذه المجاميع التي تتصبب عرقاً. وهذه ظاهرة يعرفها المرء في ملاعب كرة القدم. ويبلغ هذا الخطر ذروته عند الحجر الأسود. فهنا يتزاحم ويتدافع الوافدون الجدد لبدء الطواف من أجل الوصول إلى الداخل، في حين يتزاحم ويتدافع من أتموا طوافهم للخروج. وهنا تتعطل الحركة وتشل، لأن العادة جرت على أن يتوجه الحاج إلى الحجر الأسود رافعاً يده مردداً: «الحمد لله». وكانت الفرصة قد أتيحت لي من قبل لتقبيل الحجر الأسود ذي الإطار الفضي القابع في أحد أركان الكعبة. ولذلك، لم يكن ملائماً أو لائقاً أن أتهكم على انبهار الحجاج بهذا الحجر النيزكي، مع أنه لا يحظى بأي أهمية أو دور في مناسك الحج. ولما كان قدماء العرب قد عبدوا آلهة من حجر، فإن الإسلام يتعامل مع توقير وتقديس الأحجار باستياء شديد، سواء أكانت بيضاء أم سوداء أم رمادية.

ويعزى الاهتمام الذي يحظى به الحجر الأسود إلى أسباب تاريخية. فلقد تعرضت الكعبة مراراً لأعاصير. ومن رأى تحول الوديان الجافة في شمال إفريقيا والشرق الأدنى إلى أنهار تجرف في طريقها كل شيء، لا يُدهش من ذلك. وفي أثناء ذلك، كان الحجر الأسود الذي لا ينفع ولا يضر هو الأثر الوحيد الباقي من مدة ما قبل الإسلام. وهو بإيجاز أقدم أجزاء الكعبة. ناهيك عن أن محمداً ﷺ

شخصياً هو الذي وضعه حيث هو اليوم. فعند إعادة بناء الكعبة، تنازع أشراف مكة على شرف وضع الحجر الأسود في موضعه القديم. وقام محمد ﷺ بحل نزاعهم، عندما اقترح وضع الحجر الأسود في ثوب يمسك بأطرافه جميع أشراف مكة لرفعه، ليقوم هو -الحكم المحايد- بوضعه حيث هو الآن. ولذلك فإن من يلمس هذا الحجر يتصل اتصالاً مادياً بالرسول ﷺ، وينضم مثل ملايين سبقوه في سلسلة متواصلة. ولم يكن هذا الأمر لرفاقي في الحج إلا مصدراً لإلهام رمزي.

أفقت من تداعي أفكاري وخواطري مذعوراً على مشهد امرأة محمولة، فاقدة الوعي. وكانت، ككل الماليزيات المنظمات بطريقة مثلى، تثبت ألوان علم بلادها وبياناتها الشخصية على قطعة من قماش تضعها خلف غطاء رأسها، ليسهل معه التعرف عليها. ولم تكن هذه أول امرأة تلقى حتفها بسبب الزحام في أثناء الطواف.

وعلى الرغم من هذا الزحام الشديد، كانت هناك عجائب وآيات من التسامح والرحمة. فلقد مررت لتوي بحاج سعيد يطوف حول الكعبة على عكازين، يمنعه كبرياؤه- وربما يمنعه فقره -من أن يحمله أحد الزنوج الأقوياء، أو يدفعه أحد على كرسي متحرك، ويحيطه الحجاج بالعناية والحذر حتى لا يقع. واسترعى انتباهي أيضاً مشهد مجموعة من الحجاج يخرون على الأرض سجداً وسط فيض من الحجاج. ولقد كدت أقول لهم: أيُّها الحجاج، هل يتحتم فعل هذا الذي تفعلون؟! ولكني لم أقلها.

في وجود هذا العدد الغفير من الحجاج، يحتاج الطواف حول الكعبة سبعاً إلى نحو الساعة أو مايزيد. ولحسن الحظ كانت الليلة باردة بعض الشيء، لأنه إذا ما تعرض إنسان وسط أوربا لأشعة الشمس المباشرة -وهي في أوجها- لمدة ساعة

واحدة، فلا بد من أن يفيق ليجد نفسه في إحدى وحدات العلاج المتخصصة في علاج المصابين بضربة الشمس.

بعد أن أتممت الطواف شربت ماء زمزم، فأحسست بالانتعاش بكل ما تحمله الكلمة من معان، وعقدت العزم على حمل ٢٠ لتراً منه إلى الرباط، ليرتشف الأصدقاء والخدم رشفات منه، وكأن هذا الماء يماثل الذهب في قيمته. وهكذا يتحقق التواصل مع مكة مادياً.

حان الوقت لأداء ركعتين في مقام إبراهيم. وهذا الموقع القريب من باب الكعبة، والمذكور في القرآن الكريم، يذكرنا بأن الكعبة بناها أبو الساميين جميعاً، ومعه ابنه -من زوجته الثانية هاجر- إسماعيل أبو العرب. وكان إبراهيم يتردد على أسرته العربية، التي كان قد أسكنها في مكة قبل ذلك بسنوات عديدة، بعد أن صارت زوجته سارة - التي رزقت في سن متقدمة بأبي اليهود إسحاق- لا تقبل بوجود غريمتها (ضرتها) معها.

كان البعض، حتى من المسلمين، يميل إلى رؤية هذه الرواية، التي وردت في القرآن والتوراة، باعتبارها أسطورة حسنة. وكان لا بد من أن ينشر كمال صليبي، وهو أستاذ بروتستانتي، كتابه «لقد أتت التوراة من عسير»، ليقتنع الناسُ حتى أولئك المسلمين أن القبائل اليهودية استوطنت غربي أرض العرب، وبالتحديد إقليم عسير الواقع بين الطائف واليمن، حتى عام ٥٠٠ قبل الميلاد.

في أثناء بحثي عن مكان لأداء الصلاة، التقيت كلاً من زميليّ: سفير غينيا في

الرباط، ومفتي لبنان. وكانت لهما الرغبة نفسها، والمشكلة ذاتها. وعثرت أخيراً على مكان بجوار مجموعة من الحجاج التركمان أو المغول الذين يأخذون قسطاً من الراحة في الجزء المسقوف من المسجد، حيث يقرأ بعضهم القرآن، ويتناول بعضهم شيئاً من الطعام، في حين نام آخرون في انتظار أذان الفجر. ومع ذلك، تابعت السير مسرعاً لأسعى سبعاً بين الصفا والمروة، كما هو منصوص عليه في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:١٥٨].

وللتذكرة، جرى هذا السعي في واقع الأمر من أجل العثور على بئر زمزم. فالرواية تَروي أن السيدة هاجر وجدت نفسها في عناء وبؤس شديدين، بعد أن تركها إبراهيم مع طفلها الصغير إسماعيل في الوادي المقفر﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] بمكة. وراحت هاجر تسعى بين الجبلين بحثاً عن الماء. وعندما عادت منهكة يائسة لتضم طفلها إليها، كانت المشكلة قد حُلَّتْ، فلقد كان إسماعيل يلهو وسط نبع ماء، هو اليوم بئر زمزم. وإحياء لذكرى هذا الحدث، بما يدل عليه من رعاية الله ورحمته، كان السعي الذي يصبح في ظروف الحج مشقة بدنية، ولا سيما أن المرء يقطع بعض أجزاء الطريق مهرولاً. وعندما وصلت، منهكاً غير بائس، إلى بئر زمزم لأنهل منها مرة أخرى، لم أغفل عن الرمز الذي تنطوي عليه هذه الشعيرة.

أستطيع الآن أن أقصَّ شعري، منهياً الجزء الأول من حجي، (أي العمرة) في حين اختار آخرون، كما هو حال رفاقي من الحجاج السنغاليين، البديل الأكثر صعوبة وهو حج القران، أي الإقران بين الحج والعمرة (وَصْلهما)، ومن ثم فإنهم سيرتدون ملابس الإحرام إلى أن تنتهي جميع المناسك.

ركنت إلى الراحة في اليوم التالي، حتى أشفى من الإسهال الذي أصابني، ومن نزلة البرد التي ألمت بي كأمر لا بد منه، بسبب الإجهاد. وقمت في أثناء ذلك بتحليل برامج التلفاز السعودي، التي لا تختلف في واقع الأمر عن «موعظة الأحد». ولقد أكد أحد الأئمة اليوم على شاشة التلفزيون على أن من ينكر أن عيسى رسول من عند الله ليس بمُسْلم. وقال: إن الإسلام لا يقبل التقليد الأعمى، وإنه ليس هناك إنسان مُعْفى من التفكير. وساق للتأكيد على ذلك تفسيراً مبتكراً غير تقليدي للقول الكريم: ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ في آية من سورة النور بالقرآن الكريم: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥]. بالمعنى المراد – حسب هذا التفسير – هو أن النور الجديد الذي أتت به الرسالة يكمل نور العقل الذي كان موجوداً قبل مجيئها ويزيده إشعاعاً.

بعد عشر سنوات من التطور المعماري الرائع، وتطور البنية الأساسية والتخطيط العمراني، لم يعد بمقدور المرء أن يتعرف على جدة. فلقد أصبحت مدينة على الطراز الأمريكي.. مدينة كبرى بمقاييس برلين.. إذ يرى المرء لافتات الشوارع، وأنواع السيارات، والإعلانات المضاءة، ومحطات الوقود، على نحو يوحي بمدينة كولورادو أو مينا بوليس. والغريب في الأمر، أن السواد الأعظم ممن يتجولون في هذه المدينة هم من العرب والهنود والفليبينيين. ولولا ذلك، لنسي المرء أنه في أرض العرب القديمة، وليس في العالم الجديد.

قضيت الأيام المتبقية لي حتى بداية الجزء الثاني من الحج مع أصدقاء أمريكيين

ومغاربة وسعوديين وألمان . وكنت أرتدي دائماً الزي العربي : الجلباب المريح في الملبس ، والجلباب المريح جداً في النوم . ففي مثل هذا المناخ ، يكون مجرد التفكير في ارتداء حُلَل وأربطة عنق خانقة نوعاً من العذاب .

وأصدقائي من غير السعوديين ، هم من العاملين الأجانب في السعودية ، الذين يشكلون نحو ٤٠٪ من مجموع عدد سكانها الحاليين (تصل هذه النسبة في دُبي إلى ٩٠٪) ولو حدث أن أمسك الأجانب بزمام الأمور في هذه المنطقة ، فلن يكون ذلك أول مرة .

ففي العصر العباسي ، تمكن المرتزقة الأتراك من امتلاك زمام الأمور . وربما يكون هذا ما حدا بالسلطات لأن تمنع الكثير من العاملين الوافدين من اصطحاب عائلاتهم ، مع سهولة ترحيل أي منهم خارج البلاد . وربما يفسر ذلك مايشعر به العامل الأجنبي ، حتى المسلم ، من فقدان للأمان . ولقد لمس Carten Niebuhr ، عندما وصل إلى جدة في ١٢ من نوفمبر عام ١٧٦٢م ، وجود كثير من الوثنيين الهنود في أرض العرب ، أو بالأحرى في اليمن ، وقال في لهجة تذكرنا بحديث ممثلي منظمة العفو الدولية : «لا يسمح لهم باصطحاب نسائهم ، ولذلك يفضلون العودة إلى أوطانهم بعد تكوين ثروة»[(١)] .

ومع ذلك ، فإن هذا أمر يسير في بلد يقل فيه ثمن لتر البنزين عن ثمن زجاجة مياه معدنية ، وحيث المياه والكهرباء والاتصالات الهاتفية الداخلية خدمات مجانية .

أوصلني صديق بدوي في سيارته الكاديلاك إلى المسجد لصلاة العشاء . وما إن

(١) Carten Niebuhr : «وصف الرحلات إلى الجزيرة العربية ، وبعض البلدان المجاورة» . زيورخ (١٩٩٢م) ، ص ٣١٨ .

انتهينا من الصلاة، حتى بدأ حاج يمني يشكو من أن زوجته هربت منه ومعها النقود وجواز سفره. وسرعان ما امتدت يد كل فرد إلى حافظة نقوده. وهكذا استفاد الزوج المخدوع بالحق الأصيل في الإفصاح عن المشكلات الشخصية في المسجد.

وكان لقصة التضحية، أي استعداد إبراهيم للتضحية بابنه الوحيد، امتثالاً لأمر الله، واستعداد الابن المطيع لهذه التضحية-أثر كبير. فالامتثال التام والتوكل على الله ركن رئيس في الإسلام، ولذلك يبلغ الحج ذروته في الاهتداء بهذا الحدث، إذ يقوم كل حاج في نهاية الحج بنحر فدية أو أضحية، اقتداء بأن الله فدى ابن إبراهيم بكبش : ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]. وليس من المحتم أن يقوم الحاج نفسه بذبح الأضحية. لذلك، قمت في أثناء تجوالي في المدينة بإيداع ٢٨٠ ماركاً ألمانياً بأحد المصارف، ثمناً لخروفين حددت المستفيدين منهما، وهم مسلمو البوسنة. وفي يوم عيد الأضحى، سيقوم نحو عشرة آلاف جزار، جيء بهم من أقطار العالم الإسلامي كافة، لذبح نحو مليون من الأضاحي، من بينها خروفاي.

ولقد كنت واثقاً من أن لحمها سيرسل مجمداً إلى سبليت في الأيام التالية.

كنت في المساء أنظر دوماً إلى ألوان نافورة المياه المتغيرة عند بحيرة جدة، التي يبلغ ارتفاع مائها ٢٦٥ متراً. وهي من معالم جدة الحديثة.

كنت متشوقاً إلى ذروة الحج. وإياك والمرض قبل يوم عرفة. والحج - كما يعلم الجميع - فرض على من استطاع إليه سبيلا : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧]. فهو فريضة على من تسمح له حالته

الصحية، ويفيض ماله عن حاجة أهله وجيرانه. إذ لا يجوز لمسلم أن يحج إذا كان جاره في حاجة إلى مال. وبالرغم من ذلك، يبيع بعض الفلاحين -عندما تتقدم بهم السن- ما يمتلكونه من أرض زراعية هي عماد معيشتهم، ليحجوا.

فالحج ليس فريضة فحسب، بل هو حلم لكل مسلم، والعودة منه هي مفخرته. فهو يستطيع عند العودة أن يجد منزله وقد طُليَ بلون أخضر. ناهيك عن أنه سيحظى بمكانة رفيعة جداً. فلا لقب دكتور، ولا لقب الحاصل على الماجستير، ولا لقب «سعادة» ولا حتى لقب «أستاذ» تضاهي لقب حاج الذي يُخاطَبُ به.

تحتاج رحلة الحج المكلّفة، والخطرة في بعض الأحيان- في عصر الطائرات -إلى ترتيبات روحية وأخرى مادية، وبصفة خاصة بالنظر إلى أن تأشيرات الدخول للحج تخضع لنظام حصص محددة. (ونظراً لأنه من بين كل ١٠٠٠ مسلم يحصل مسلم واحد على تأشيرة حج، فإنه يترتب على هذا النظام - وليس من قبيل المصادفة بطبيعة الحال- أنه لا يمكن توقع أن يكون هناك أكثر من ٤٠٠٠٠ حاج شيعي من إيران على أقصى تقدير). ويجري تجاوز نظام الحصص المشار إليه بوساطة العمال الأجانب الذين يعملون في السعودية، ولا يمكن تحديد عددهم بدقة. فليس هناك حائل دون توجههم إلى مكة حاملين زجاجة ماء وقطعة من الورق المقوى (الكرتون) لاستخدامها بديلاً للسرير، ومن ثم فإنهم يرفعون عدد الحجاج إلى مايزيد على المليونين.

يدعو القرآن الكريم المقبل على الحج إلى أن يراعي آداب الحج، فعلى المحرم أن يتنزه عن مباشرة النساء، وعن المعاصي من السباب وغيره، وعن الجدل والمراء مع

رفقته في الحج، وعليه أن يجتهد في فعل الخير: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

لقد قرأت وصفاً تاريخياً للحج من القرن التاسع عشر. قرأت لريتشارد بيرتون Richard Burtons في كتابه الصادر في جزأين عام ١٨٥٣م وصفًا لرحلة حج إلى المدينة ومكة. وقرأت «رحلة حج إلى مكة» لـ Hanrich Von Maltzan (١٨٦٠م)، وفي وصف رحلة السويسري المسلم من مدينة بازل العريقة Johann Ludwig Buckhrdt (١٨١٤)، والذي عرف بالشيخ إبراهيم بن عبدالله بعد أن أعلن إسلامه. ودرست إلى جانب ذلك إرشادات حديثة مفيدة، مثل «دليل المرء للحج والعمرة» الصادر في السلسلة الألمانية «السفر اليوم».

وكان أهم شيء فيما يتعلق بالإعداد الروحي هو دراسة آيات القرآن المتفرقات عن الحج، وبصفة خاصة في السورتين ٢ (سورة البقرة) و ٢٢ (سورة الحج)، وكذا حفظ أحاديث الرسول ﷺ الكثيرة التي تتناول الحج. وساعدني كتاب أحمد فون دنفر -الجامع على نحو مكثف للقرآن والحديث- كثيراً في ربط مناسك الحج ظاهرياً وباطنياً، مادياً وروحياً، وهذا الأمر ليس بغريب على المسلمين الذين تؤلف عقيدتهم بين الروح والمادة معاً، إذ إن التوجه إلى الله في الإسلام لا ينحصر في الروح فقط أو الجسد فقط. فالمسلم في صلاته، وفي صومه، وفي نحره للأضحية، وفي حجه ليس حاضراً بروحه وعقله وقلبه فقط، وإنما بلحمه ودمه أيضاً؛ فهو إما أن يكون هو كله حاضراً وإما ألا يكون حاضراً البتة. وهذا ناتج عن «التوحيد» بوصفه مبدأً جامعاً من منظور إسلامي.

ترقباً للأيام المشهودة، جلست في حجرتي بالفندق في جدة أطالع ما حملته معي من مطبوعات عن الحج، ومن بينها بعض سطور للأخ أحمد تقول: «ألا يمكننا القول إن الإحرام يشير إلى الموت، وإن الطواف يسلم المرء إلى الله؟ والسعي . . . أليس السعي إرهاقاً وتعباً؟ أليست زمزم هي الحياة والكينونة؟ ويوم عرفة . . . ألا يجعلنا نتوقع يوم القيامة؟ والمزدلفة . . . أليست هي الظلام الذي يسبق اليوم الجديد؟ ومنى . . . ألا تمثل الوفاء من خلال نحر الأضحية؟ وخلع ملابس الإحرام بمنى . . . ألا يعني حياة جديدة؟ ورمي الجمرات . . . ألا يرمز لكفاح مدى الحياة ضد كل ما هو شر؟ ولكن الله هو محور الحياة . . .».

ينطلق صوت المؤذن عبر مكبرات الصوت منادياً إلى صلاة العصر. ويجيء دوري لأرفع أذان الإقامة في مسجد الفندق الذي راح يمتلئ رويداً رويداً بالمصلين. ورحت أردد باللغة العربية ما ردده بلال أول المؤذنين قبل ١٤١٣ سنة قمرية، ولكن بصوت أضعف من صوته. وطلبنا من رجل من المالديف ذي بشرة داكنة جداً أن يؤمنا في الصلاة، فاستجاب لطلبنا على الفور.

لاحظت، ونحن مجتمعون حول مائدة العشاء، أنه لا يبدو على أحد منا أن لديه شهية للطعام. والسبب في ذلك هو ترقبنا للانتقال في الغد، وهو ثامن أيام ذي الحجة، من مكة إلى منى، حيث محل إقامتنا الأساسي في الأيام القادمة. ولم نذق ليلتها طعم النوم. وفي صباح اليوم التالي، تجمع القسم الأعظم منا - ونحن نرتدي ملابس الإحرام - في بهو الفندق من الساعة الخامسة صباحاً.

توقفنا بمكة لنؤدي طواف القدوم حول الكعبة مرة أخرى. وكان الطواف هذه المرة تحت الشمس الحارقة، فدفع كثيراً من الحجاج إلى محاولة الاحتماء مثلي بالمظلات، وهو ما كان ينطوي في مثل ذلك الزحام على خطر إلحاق أذى

بالآخرين. وفي ظل هذا الزحام، كان الطائفون لا يكادون يتقدمون خطوة إلى الأمام في فناء المسجد الفسيح. ولذلك، توجهت إلى الطابق الأعلى حيث يزداد نصف قطر دائرة الطواف، ولم يكن بوسعي إلا ذلك. وطواف الكعبة هنا يعني أن يقطع المرء مسافة ٥,٦ كيلو مترات في حرارة تصل إلى ٤٤ درجة مئوية. ومع ذلك، لا تأخذ المرء شفقة بنفسه، حيث يهون كل شيء على الحاج. ولقد كان جاري في الطواف يحمل ابنه على كتفيه مسافة الطواف بأكملها.

النظر من هنا إلى أسفل يكاد يكون كالتنويم المغناطيسي. والمشهد شديد الجمال. فالكعبة تبدو مركزاً ثابتاً لا يتحرك لأسطوانة تدور ببطء وفي سكون تام في اتجاه مضاد لاتجاه عقارب الساعة. ولا يتغير هذا المشهد إلا عند الصلاة، حيث تصير الكعبة مركزاً لدوائر عديدة متحدة المركز، تتكون من مئات الآلاف من أجسام ناصعة البياض لأناس يرغبون في شيء واحد ويبحثون عن شيء واحد، ويفعلون شيئاً واحداً، رمزاً لتسليم النفس إلى بارئها. ويحيط اليوم بفناء المسجد، الذي تتوسطه الكعبة، عدة طوابق من الرخام الأخضر اللون، ويحيط بالكعبة سبع مآذن مقامة على الطراز الهندي - الإسلامي، مثلما يحيط الإطار بالجوهرة.

كان لا بد من أن أنتزع نفسي من هذا المشهد لأواصل سفري إلى منى بالسيارة، في رحلة استغرقت ٤٥ دقيقة لقطع خمسة كيلو مترات. ومنى هي «نقطة الانطلاق» إلى يوم عرفة.. وما أدراك ما عرفة؟! يقول الرسول ﷺ: «الحج عرفة».

وفي التاسع من ذي الحجة، تنقل حوالي ٥٠ ألف حافلة، ما يزيد على المليوني حاج إلى عرفة، عبر شوارع قليلة موازية لمنى أو لمكة، لمسافة تتراوح بين ١٠ أو ١٥ كيلاً. وتسبب هذه الحافلات فوضى في المرور تعاني منها هي نفسها، وهي فوضى جديرة بأن تدون في موسوعة الأرقام القياسية.

يحاول بعضهم أن يقطع المسافة إلى عرفة سيراً على الأقدام، إلا أن هذا لا يعدُّ بديلاً مناسباً، نظراً لارتفاع درجة الحرارة بشدة منذ الساعة الثامنة صباحاً. وأرى رجلاً يسعى مع أبيه المسن إلى بلوغ عرفات، وهو ينهار بسبب هبوط حاد في الدورة الدموية.

عند وصولنا إلى مدينة الخيام المقامة حول جبل عرفات، كان الهواء يلفح الوجوه من شدة الحرارة التي جاوزت الخمسين درجة مئوية في الظل، وتزيد على ٦٠ درجة مئوية في الشمس، وليست هناك نسمة هواء منعشة. فالشمس شديدة القسوة، والمرء يعاني صعوبة بالغة في التنفس. وكل حركة يترتب عليها إحساس بالتعب. وكان لا بد لي من أن ألاحظ في أثناء انتظاري أمام الحمام، أن الأقدام الألمانية تحترق خلال بضع دقائق في درجات الحرارة المرتفعة على هذا النحو. ولذلك، التجأت في أوقات اليوم الأشد حرارة إلى خيمة صغيرة تقاسمتها مع حاج يعمل أستاذاً بجامعة جورج تاون في واشنطن. وكان الشيخ نحناح الجزائري يقيم في الخيمة المجاورة لخيمتنا.

وكان يوماً طويلاً رائعاً.. كان يوماً للتأمل وللسلام.. يوماً للصلاة، وللأحاديث القيمة.

لم أكن، منذ كنت أمارس التمارين الجيزويتية في سنوات الصبا، قد عايشت مثل هذا التوجه الكامل إلى الله بكل هذا الصفاء الداخلي الباهر. فلا شيء يوم عرفة سوى مناجاته. وهنا يتجسد نداؤنا الدائم: لبيك اللهم لبيك.. هذا إذن هو معنى الوقوف بين يدي الله بعرفات.. ملايين من الناس يتشحون بأكفان، ويتركون في هذا اليوم كل شيء وراء ظهورهم.. فوجودهم اليوم مكرس لله

وحده . . يتوقعون موتهم . . يصلون ويتضرعون في خشوع ويقين لم يحدثا من قبل، ولن يحدثا في الغالب من بعد.

ففي هذا المكان، ألقى محمد ﷺ قبل وفاته بأسابيع قليلة - في عام ٦٣٢ ميلادية - خطبة تقرأ كل عام في ذات اليوم، وذات المكان. لقد خاطب المسلمين في ذاك اليوم قائلاً: «أوصيكم بالنساء خيراً. . .» وأنهى خطبته قائلاً: «إني تارك فيكم - ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً: كتابَ الله وسنتي. وإني مسائلكم يوم القيامة فيما أنتم فاعلون». ووفقاً للرواية، أجابه الحاضرون: «نشهد أنك أديت الأمانة، وبلغت الرسالة، ونصحت الأمة». وهذا نفسه هو ما أشهده اليوم مع مليونين ومئتي ألف من النساء والرجال من أنحاء العالم كافة.

وفقاً لشعائر الحج، ينتقل الحجاج بعد غروب الشمس إلى المزدلفة التي تقع على بعد ٧ كيلو مترات من عرفة. وفي أثناء ذلك، يحدث الكثير من الهرج والمرج، وبسببه فقدت أنا وأستاذي حافلتنا، ورحنا نبحث دون جدوى عن مكان شاغر في مئات الحافلات. . وإذ بي ألمح وزير الصناعة المغربي عزماني، الذي تربطني به علاقة صداقة، وهو يلوح لي وسط أكثر من مليونين من البشر. ولقد قوّى ذلك من يقيني بأنه ليس هناك مصادفة حقيقية في دنيا الله. وهكذا أصبحت، مؤقتاً، عضواً غير رسمي في بعثة الحج المغربية الرسمية. وفي بادئ الأمر، كان هناك حث على الإسراع، ولكننا جلسنا بعد ذلك نتصبب عرقاً في الحافلة مدة ثلاث ساعات قبل أن تتحرك بسبب الزحام.

يتحرك جميع الحجاج الآن مرة أخرى في اللحظة نفسها، متجهين صوب هدف واحد. وتتدخل شرطة المرور، ولكنها تزيد من فوضى المرور. . ويحاول

بعض الحجاج قطع المسافة سيراً على الأقدام عبر الجبال السوداء التي تميزهم ملابسهم البيضاء من أحجارها.

بلغنا المزدلفة نحو الساعة الحادية عشرة مساء، بسبب كثرة التوقف في الطريق، ونحن نشعر بآلام في ركبنا. وفيها أمّنا إمام من الرباط لصلاتي المغرب والعشاء جمعاً على الصخور التي سنجمع منها ٤٩ حصاة، استعداداً لرمي الجمرات في اليوم التالي. وكنا قد وعدنا بطعام إلا أنه كان لا بد لنا من أن نتحرك قبل مجيئه. ولم آسف لذلك كثيراً، إذ اعتدت في أثناء أيام الحج أن أكتفي بقليل من لحم الدجاج، ومن البازلاء، وتفاحة وثمرة موز. ولقد كان شرب الماء هو الأهم. ولحسن الحظ لم نعان على الإطلاق نقصاً في مياه الشرب، فالمسؤولون السعوديون يوزعون في أثناء الحج ٨٠ مليون قارورة من البلاستيك تحوي كل منها لتراً من مياه الشرب، كما يقومون عند كل تقاطعات الشوارع الكبيرة بإلقاء أكياس تحتوي على عصير الفاكهة إلى هذا الحشد الكبير من الحجاج. ولذلك، لم أشعر بحاجة إلى زادي من الكوكاكولا.

وصلت حافلتنا في الساعة الثانية صباحاً إلى منى، قريباً من موضع رمي الجمرات.. ذلك الرمي الذي يرمز لرفض الإنسان القاطع للشر بداخله هو نفسه، وفي العالم أيضاً. واقتربت من العمود، حتى أضمن إصابته باستخدام إصبعين فقط، مع احتفاظي بمسافة تحميني من التعرض لوابل من حصى الحجاج من الخلف. إنه موقف صعب حقاً، لأن بعضاً من البسطاء ينتابهم شعور بأن في مقدورهم أن ينالوا من إبليس مرة واحدة في حياتهم، فيرموا رمزه بأحجار كبيرة وبأحذية ومظلات.

وتجمع حول حافلتنا مجموعة من الصبية يحملون - كما توقعت من قبل -

مقصات لكي يقصوا لكل منا خصلة من الشعر في مقابل ثلاثة ريالات، ما لم نكن نرغب في حلق الرأس تماماً. ومع أنه كان مسموحاً لنا أن نخلع ملابس الإحرام، فقد هرعنا إلى مكة قبل الشروق. ولم نكن بحاجة إلى إقناع سائق الحافلة، الذي أمضى الليل ساهراً، بأن يحملنا إلى مكة، إذ كان هو نفسه يرتدي ملابس الإحرام. وبعد وصولنا إلى مكة، طفنا للمرة الثالثة حول الكعبة طواف الإفاضة. وكان الزحام في هذه المرة أشد من ذي قبل، إذ كان عدد الطائفين فيها لا يقل عن مئتي ألف حاج. ولذا استغرق مني الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة ساعتين حافلتين بالإرهاق.

الساعة الآن هي الرابعة والنصف صباحاً. ولقد حان الآن موعد صلاة فجر يوم عيد الأضحى، عاشر أيام ذي الحجة، بالحرم المكي. وسوف أؤديها، بآخر ما تبقى لي من قواي، مع ٨٠٠ ألف مسلم. وبالنظر إلى فخامة الصوت وكمال القراءة، يعدّ مؤذنو الحرم المكي وأئمته صفوة الصفوة. فأذانهم نداء فني رائع.. وقراءتهم للقرآن مناجاة مسموعة. ومن حسن الحظ، أن يسمح الحنابلة السعوديون بهذا البعد الجمالي للصلاة، على عكس ما يفعله المالكيون في شمال إفريقيا. فهذا الجمال ينقل حاجاً ساهراً مرهقاً مثلي إلى عالم خال من التعب.

أخيراً، عدنا بعد الساعة السادسة صباحاً إلى بيت ضيافتنا في منى، بعد أن قضينا ٢٦ ساعة على أقدامنا متأثرين عاطفياً وبدنياً. وتعانقنا أنا ورفاقي في الحج مرددين: حجاً مبروراً، وحجاً مقبولاً إن شاء الله. وهنأني الشيخ نحناح في سعادة بوضعي الجديد. وعدت إلى غرفتي حيث خلعت أخيراً ملابس الإحرام- لهذه المرة- واستلقيت في سريري ملتهب العروق. وحمدت الله أن منحني القدرة

على أداء فريضة الحج، داعياً أن يتقبلها مني. ثم رحت في نوم عميق، لم يزعجني فيه ضجيج صوت جهاز التكييف المرتفع.

بينما كان المنهكون أمثالي يحاولون استعادة قواهم في يوم عيد الأضحى، كان حجاج آخرون- ممن يتمتعون بقدرة أكبر على الاحتمال - ينحرون الأضحية أينما شاؤوا. للحاج أن يأكل جزءاً صغيراً من لحم الأضحية. أما القسم الأكبر منها، فيوزعه على المحتاجين من الحجاج. ويعلق الهيكل العظمي في الشمس إلى أن يجف، ويتم ذلك أحياناً خارج عربات خشبية. وللمرء أن يتخيل الرائحة.. لا، لا يمكن ذلك إلا لمن خبرها فعلاً.

طرقت - أكثر من مرة- باب غرفة جاري القادم من واشنطن لكي أطمئن عليه، لعلمي أنه كلف نفسه ما لا طاقة له به. ولقد طلب مني بالفعل أن أقوم عنه بما تبقى من رمي الجمرات. وهو أمر مسموح به بالنسبة لفريضة الحج بأكملها، إذ يجوز أن تؤدى بالإنابة إذا كان الإنسان غير قادر على أدائها بنفسه.

كنت مدعواً في ثاني أيام عيد الأضحى - ضمن ١٥٠ حاجاً من أنحاء العالم كافة، من بينهم سلطان بروناي، وأحد أبناء الرئيس الإيراني رفسنجاني - إلى قصر الملك فهد بن عبدالعزيز بمنى. وكان العاهل السعودي قد وجه في ذلك العام دعوة للحج، وليس للغداء فقط، إلى ١٣٠٠ مسلم من الاتحاد السوفيتي السابق. وجاء مجلسي بين الكاتب المصري أنيس منصور، والقاضي الأعلى في باكستان محمد حفظ الله، الذي أخبرني أنه لم يصادق على الإطلاق على حكم بقطع يد سارق. وقد أتيح لنا وقت طويل للحديث، مراراً وتكراراً، عن الإسلام، تأكيداً على أن الحج هائل للمسلمين كافة.

ظهر جلياً في أثناء حديثي مع الملك أنه يعرف الكثير عني. وكانت دعوته لي قد فسرت على أنها رد على حملة التحريض ضدي في ألمانيا.

طبقاً لآداب الطعام العربية، تقدم الأطعمة كلها في وقت واحد، بحيث تكون في متناول الجميع، حتى لتكاد المناضد أن تتقوس. ومن هذه الآداب أن يأكل المرء بسرعة، ويتحدث قليلاً، وينصرف إذا ما شبع، ويبقى الملك إلى أن ينصرف الجميع.

في مساء اليوم نفسه، حاولنا أنا والوزير عزماني اختراق الشوارع التي تفوح منها رائحة كريهة، والمكتظة بالناس، بهدف الوصول إلى حيث الجمرات لرميها للمرة الثانية، مستعينين بالشرطة. كنا نضع مناديل معطرة على الأنف والفم. فمخلفات الحجاج الذين يفترشون أسفلت الشوارع، ومحركات السيارات الدائرة باستمرار لتشغيل أجهزة تكييفها، تجعل الطريق محل انتقاد شديد من حماة البيئة.

وهؤلاء الحجاج الذين يفترشون الأسفلت هم من الحجاج الأجانب، الذين يحجون بدون مطوف، وهم يمارسون وجوداً غير قانوني، ولكنه وجود حقيقي جداً. ولقد وضعت امرأة في هذا اليوم طفلتها على ما تفترشه من ورق.

في اليوم الثالث (١٣ يونيو)، وهو آخر أيام عيد الأضحى، توجهت بمفردي بعد صلاة الفجر مباشرة لرمي الجمرات لي ولزميلي. وكان الحجاج قد بدؤوا ينهضون من فراشهم الذي يفترشونه في الشارع. وكان هؤلاء يستخدمون

مخزونهم القليل من الماء للوضوء في المقام الأول (انظر فصل: «خمس مرات كما أمرنا»). وكان بعض الباعة الجوالين يبدؤون عملهم أيضاً. ومزج الحج بالتجارة أمر مسموح به دائماً. فبعض الحجاج يمولون رحلة عودتهم إلى أوطانهم من حصيلة ما باعوه من منتجاتهم الوطنية، من حلي من العاج وفضيات وأقمشة، ويمر بي أحد الحجاج الأتراك، ويسألني باقتضاب: أين الشيطان؟ وكأنه ينبغي على الجميع أن يعلم أين هو، بل وأن يتحدث التركية أيضاً! ولقد أرشدته في أدب شديد، وباللغة التركية، إلى العامود الثالث (الجمرة الثالثة) التي سنرميها اليوم. ولم يكن باستطاعتي قبل اليوم أن أحدد مكان الشيطان بهذه الدقة!

في اليوم التالي، وفي طريق عودتنا من منى إلى جدة، طفنا في مكة طواف الوداع حول الكعبة. وكان المسجد قد امتلأ حتى آخره، إذ كنا قد وصلنا إليه وقت صلاة العصر. وفي هذه المرة، طفت حول الكعبة فوق السطح على الرغم من عدم قدرة القدمين على احتمال سخونة السطح الملتهبة إلا لثوان معدودات. ولقد خلتُ نفسي مثل دب يحاولون تعليمه الرقص على سطح من صفيح ساخن. ومع ذلك، جلست فيما بعد مدة طويلة في الشرفة للتملي من صورة هذا المسجد ذي الجمال المبهر لحفظها في الذاكرة!

لاحظت يوم ١٦ من يونيو وأنا أسلم جواز سفر الحج، استعداداً للعودة بالطائرة إلى الدار البيضاء، أن المسؤولين يبدون سعداء كلما غادر حاج البلد راضياً. ولقد اتجهت الطائرة الجامبو مباشرة، وفي خط مستقيم إلى تونس. وبذلك ظل اتجاه القبلة ثابتاً طول رحلة الطائرة، فمكنّ هذا المضيفين من أداء

الصلاة في ممرها . ولقد وقع اختياري على عدد مجلة «تايم» الصادر في ١٥ من يونيو لكي أقرأه في أثناء رحلة الطائرة . وكان يحتل غلاف هذا العدد صورة لأحد المساجد، وعنوانه الرئيس هو : «إسلام . . هل يجب أن يخاف العالم؟» .

الفصل الثاني

دروب فلسفية إلى الإسلام

لم يدر بخلدي على الإطلاق، وأنا أتوجه إلى وزارة الخارجية على جبل فينوس في بون يوم ٨/ ٩/ ١٩٨٠م، أنني سأسافر إلى مكة بعد سنتين لأداء فريضة الحج. فلقد بدأ ما حدث بعد ذلك، من تحول في حياتي يتكشف لي، عندما أمعنت التفكير في محاضرة شائقة ألقاها زميلي المسلم محمد أحمد هوبوم، وفي حديثي مع محمد أحمد رسول المدير المصري - الألماني لدار نشر «المكتبة الإسلامية» بكولون، وأنا أعرض عليه مخطوطاً من اثنتي عشرة صفحة، جمعتها لولدي على مر السنين، لكي أحدد له بشكل جازم ما أراه فلسفياً حقاً. فلقد أذهلني رد فعل رسول، وهو يقول لي: إن كنت مقتنعاً بما استخلصته، فأنت مسلم!! ولم يكن بوسعي آنذاك أن أدرك هذا. ومع ذلك، فقد أقنعني برغبته في نشر هذا النص، عن طريق دار نشره، تحت عنوان «درب فلسفي إلى الإسلام»[1].

لم يمر سوى أيام معدودات قبل أن أشهر إسلامي بنطق الشهادتين يوم ٢٥/ ٩/ ١٩٨٠م وليس من الأمور الهينة أن يقدم المرء كشف حساب وتقييماً لتطوره الفكري. لقد كتب هيرمان هسه في إحدى رواياته القصيرة «نوفاله» Klein und Wagner عام ١٩١٩م: «التحدث هو أضمن السبل لإساءة فهم كل شيء وجعله ضحلاً ومجدباً». وكتب أيضاً في روايته «لعبة الكرات البلّورية» محذراً من صياغة معنى داخلي في كلمات، إذ يقول على لسان قائد الأوركسترا: «أظهر

(١) مراد هوفمان: «درب فلسفي إلى الإسلام». الطبعة الثانية، كولونيا، (١٩٨٣م).

المهابة للمعنى، ولكن لا تظنه قابلاً للتعلم». [1] لقد أخفق عظماء كثيرون في هذه المحاولة.

فعمر القوي، ثاني الخلفاء، كان يضطهد المسلمين إلى أن اعتنق الإسلام، ولا يمكن حقاً فهم كيفية إقناعه بالإسلام على نحو مفاجيء بعد أن قرأ سورة طه إثر مشاجرة مع أخته[2].

ويقول الصوفي العظيم أبو حامد الغزالي (في القرنين الحادي عشر والثاني عشر م) في اعترافاته: «إن العقيدة لم تتغلغل في نفسه من خلال دليل واحد واضح بعينه، وإنما من خلال عدد لا يحصى من أسباب الإيمان، وخبرات ومواقف مصاحبة يمكن تعديد تفصيلاتها». ويقول أخيراً: إن عودته إلى الإسلام كانت بفعل «نور ألقاه الله في صدره»[3].

وفي كتابه الرائع «الطريق إلى مكة»، يعرض محمد أسد لأمر هدايته إلى الإسلام في سطور قليلة لا تكاد تقنع بعض القراء المتشككين، في حين يشير في موضع آخر من كتابه إلى أنه تشرب الإسلام ارتشاحاً[4].

ويكاد هذا الأمر يشبه أمر اهتداء كريستيان (عبد الهادي) هوفمان إلى الإسلام، إذ يصفه بما لو كانت «ضربة من السماء» قد أصابته[5].

---

(١) هرمان هسه «طُرُق إلى الداخل»، فرانكفورت (١٩٧٣م). وكذلك: «لعبة البلورات الزجاجية» (١٩٤٣م)، طبعات عديدة في دار نشر Suhrkamp.

(٢) صحيح البخاري: «السنوات الأولى للإسلام» (ترجمة محمد أسد)، جبل طارق (١٩٨١م). في متن (١) الخاص بالمقطع ١١ (ص ١٦٧)، ترد روايتان مختلفتان لاعتناق عمر الدين الإسلامي.

(٣) الغزالي: «المنقذ من الضلال»، (دار نشر Felix Meiner، رقم ٣٨٩). هامبورج (١٩٨٨م)، ص١٠ وص٤٢.

(٤) محمد أسد: «الطريق إلى مكة» (١٩٥٤م)، جبل طارق (١٩٨٢م) ص ٣٥٠ وص ٣٦٠.

(٥) كريستيان هوفمان «بين كافة الكراسي»، بون (١٩٩٥م)، ص٢٥.

أما أنا فكنت لسنوات، بل لعقود، منجذباً إلى الإسلام كالمغناطيس، لأنني أَلِفْتُ أفكاره، كما لو كنت قد عايشته من قبل.

لقد وجهني إلى هذا الدرب ثلاثة أحاديث أساسية، ذات طبيعة إنسانية، وجمالية فنية، فلسفية. ويرتبط أول هذه الأحاديث ارتباطا عجيباً بالجزائر.

ففي عام ١٩٦٠م، أمضيت شهرين في Chateauneuf - sur - Loire لأتمكن من إجادة اللغة الفرنسية، استعدادا لامتحانات القبول بوزارة الخارجية. وهناك، كنت أقرأ يومياً تقارير الصحافة الفرنسية عن حرب الجزائر.

وفي اختبار القبول بوزارة الخارجية، كان على كل متقدم أن يلقي محاضرة مدة لا تتجاوز خمس دقائق في موضوع يحدد عشوائياً، ويكلف به قبلها بعشر دقائق. ولكم كانت دهشتي عندما تبين لي أن موضوع محاضرتي هو «المسألة الجزائرية». وكان مصدر دهشتي هو مدى علمي بهذا الموضوع، وليس جهلي به. وبعد شهور قليلة من الاختبار، ، وقبل أن أتوجه إلى جنيف بوقت قصير، أخبرني رئيس التدريب، عندما التقينا مصادفة في أثناء تناولنا للطعام، أن وجهتي قد تغيرت إلى الجزائر.

في أثناء عملي بالجزائر في عام ٦١/ ١٩٦٢م، عايشت فترة من حرب استمرت ثماني سنوات بين قوات الاحتلال الفرنسي وجبهة التحرير الوطني الجزائرية، وانضم إليهما في أثناء وجودي هناك طرف ثالث هو «منظمة الجيش السري»، وهي منظمة إرهابية فرنسية، تضم مستوطنين وجنوداً متمردين. ولم يكن يمر يوم دون أن يسقط عدد غير قليل من القتلى في شوارع الجزائر. وغالباً ما كانوا يقتلون رمياً بالرصاص على مؤخرة الرأس من مسافة قريبة. ولم يكن لذلك

من سبب، إلا كونهم عرباً، أو لأنهم مع استقلال الجزائر.

وكنت عند سماعي صوت سلاح آلي، أتصل هاتفياً بزوجتي الأمريكية لتسرع إلى شراء ما نحتاج إليه، لأن الهجوم التالي في المنطقة نفسها لا يتوقع حدوثه قبل عشرين دقيقة.

وكانت أنبل مهامي هي إعادة أفراد الفرقة الأجنبية من الألمان الفارين إلى الوطن بمعاونة من السلطات الفرنسية. وكان عدد هؤلاء الرومانسيين المساكين غير قليل، منذ فر قائد قوات المظلات في العام السابق. وكم كان الموت يجذبهم! وكانت منظمة الجيش السري قد جندت عدداً منهم ضمن قوات خاصة (كوماندوز). ومن ثَمَّ وجدوا أنفسهم بين نارين. كما كانت فرص نجاتهم من الموت ضئيلة جداً. وكنت، بصفتي ممثلا للقنصلية العامة الألمانية، أضع الزهور على قبور الكثير منهم.

كنت، وأنا أبحث عن ألمان بين الجرحى في المستشفيات، أحمل سلاحي مُعداً للاستخدام. وكنت أدقق النظر في وجه من يقابلني، بل وفي يديه. وعندما كانت القامات تتقابل، كان كل شخص يبتعد عن الآخر عائداً إلى الخلف، طالباً للأمان. وفي بعض الأحيان، كانت زوجتي المذعورة تصر على حماية ظهري، فكانت تسير خلفي على مسافة عدة خطوات حاملة في كُمِّ ثوبها سكيناً حادة.

وما يزال بعض ذكريات تلك الأيام يثير كآبة في نفسي حتى الآن. فعندما كنت في طريقي إلى مقر إذاعة فرنسا ٥، حيث كان من المقرر أن ألقي، تنفيذاً لتكليف من القنصل العام، محاضرة عن «وضع الرقص المسرحي» في ألمانيا، تعطلت مضخة البنزين في سيارتي الفولكس واجن من طراز «الخنفسة» في شارع إيزلي

الضيق، كثير المنحنيات. وسرعان ما اصطفت السيارات خلف سيارتي، مطلقة أصوات النفير، وفي تلك الأثناء كان أمامي رجل يعبر الشارع، وأطلق عليه شخص الرصاص من الرصيف المقابل، فسقط جريحاً أمام سيارتي، وإذا بالمهاجم يشير لي بسلاحه آمراً أن أواصل سيري، كي أخلي ساحة إطلاق الرصاص. ولم أكن أرغب في ذلك، بل ولم أكن أستطيعه أيضاً. وأخيراً، تقدم الشخص الذي يحمل السلاح من الرجل المصاب، وأطلق عليه رصاصة أخرى أردته قتيلاً، ثم اختفى في زحام البشر في تؤدة وعلى مهل!

ولقد استأت كثيراً أيضاً، عندما رأيت مضطراً أعضاء منظمة الجيش السّري، وهم يشعلون النار في سيارات شحنوها سلفاً ببراميل من الوقود، ويدفعونها من فوق منحدر إلى حيّ يسكنه العرب. ولا بد للمرء من أن يتوقع أن يكون على قائمة القتلى، إذا ما أصبح شاهداً غير مرغوب فيه. وكان حلاقي في البيار يدرك ذلك جيداً، فحين هاجمت قوات «منظمة الجيش السري» مكتب التلغراف المقابل لمحله في شارع جاليني، أدار مقعده حتى لا يكون شاهداً على ما يجري. ولم يكن تصرفه أقل غرابة من تصرف أحد أفراد الشرطة الذي عرض عليّ في مايو عام ١٩٦٢م أن يحرس سيارتي، في حين كانت النيران مشتعلة خلف ظهره في مكتبة البيار.

عندما توصل الرئيس ديجول، في إيفيان في مارس عام ١٩٦٢م، إلى اتفاق مع الحكومة المؤقتة لجبهة التحرير الوطني الجزائري على وقف إطلاق النار في يوليو التالي[١]، صعّدت منظمة الجيش السري من أعمالها الإرهابية، بهدف استفزاز الجزائريين لخرق الاتفاق. فبدأ أفرادها في تصفية النشء الأكاديمي

(١) Les Accord d'Evian: Benyoucef Ben Khedda الطبعة الثانية، الجزائر (١٩٨٧م).

الجزائري، وراحوا يقتلون رمياً بالرصاص، النساء اللائي يرتدين الحجاب، وقبل تحقيق الاستقلال بأيام قليلة، أطلقوا الرصاص على آخر بائع جزائري جوال في البيار، فأردوه قتيلاً أمام مكتبي مباشرة. وكان هذا البائع قد عاش ينادي على أسماكه منذ عقود طويلة، دون أن يلحق أذى بأي إنسان كائناً من كان. وفي الشارع الذي كنت أقطنه، كان جيراني من الفرنسيين يلقون من النوافذ على المتصرين بكل ما لا يبخلون به. وكانت الثلاجات التي يلقون بها تسقط على أكوام القمامة التي لم تُزَلْ منذ أسابيع، وهو ما كان من حسن حظ الفئران.

شكلت هذه الوقائع الحزينة خلفية أول احتكاك لي عن قرب بالإسلام المعيش. ولقد لاحظت مدى تحمل الجزائريين لآلامهم، والتزامهم الشديد في رمضان، ويقينهم بأنهم سينتصرون، وسلوكهم الإنساني، وسط ما يعانون من آلام. وكنت أدرك أن لدينهم دوراً في كل هذا. ولقد أدركت إنسانيتهم في أصدق صورها، حينما تعرضت زوجتي للإجهاض تحت تأثير «الأحداث» الجارية آنذاك.

فلقد بدأت تنزف عند منتصف الليل، ولم يكن باستطاعة سيارة الإسعاف أن تحضر إلينا قبل الساعة السادسة صباحاً، بسبب فرض حظر التجول، وبسبب شعار «القتل دون سابق إنذار» المرفوع آنذاك. وحينما حانت الساعة السادسة، أدركت، وأنا أطل من نافذة مسكني في الطابق الرابع، أن سيارة الإسعاف لا تستطيع العثور علينا، لأن منظمة الجيش السري كانت قد غيرت في تلك الليلة أسماء كل شوارع الحي الذي أقطنه، بحيث أصبحت كلها تحمل أسماء مثل شارع «سالان»، وشارع «يهود»، وشارع «منظمة الجيش السري».

بعد تأخير طال كثيراً، كنا في طريقنا متجهين إلى عيادة الدكتور شمعون (قبل أن تنسفها منظمة الجيش السري بوقت قصير)، حيث صادفنا حاجز أقامته الجمعية

الجمهورية للأمن. وعلى الرغم من صفير البوق الذي كان السائق يطلقه، فإنه لم يكن باستطاعته أن يشق طريقه إلا ببطء شديد. وكانت زوجتي تعتقد، في تلك الأثناء، أنها ستفقد وعيها. ولذلك، وتحسباً للطوارئ، راحت تخبرني أن فصيلة دمها هي (O) ذات (RH) سالب. وكان السائق الجزائري يسمع حديثها، فعرض أن يتبرع لها ببعض من دمه الذي هو من فصيلة دمها نفسه. ها هو ذا العربي المسلم يتبرع بدمه، في أتون الحرب، لينقذ أجنبية على غير دينه.

لكي أعرف كيف يفكر ويتصرف هؤلاء السكان الأصليون المثيرون للدهشة، بدأت أقرأ «كتابهم» . . القرآن في ترجمته الفرنسية لـ Pesle/Tidjani. ولم أتوقف عن قراءته منذ ذلك الحين، حتى الآن. وحتى تلك اللحظة، لم أكن قد تعرفت على القرآن إلا من خلال النوافذ المفتوحة لكتاتيب تحفيظ القرآن في متراب جنوبي الجزائر، حيث يحفظه أطفال البربر، ويتلونه في لغة غريبة عنهم، وهو ما دهشت له كثيراً. وفيما بعد أدركت أن حفظ وتلاوة القرآن، باعتباره رسالة الله المباشرة، فرض تحت الظروف كافة.

ولقد أزعجني رد الفعل الغاضب من جانب أحد الجزائريين، عندما حدثته في بهو فندق ترانس ميدترانيان في غاردايا، عن قراءتي للقرآن، إذ استنكر في صراحة لا ينقصها الوضوح وجود ترجمات له. وعدَّ محاولة ترجمة كلام الله إلى لغة أخرى بمنزلة تحريف. ولم أستغرق وقتاً طويلاً قبل أن أستوعب رد فعله، فاللغة العربية تشتمل على مفردات لا تدل على وقت محدد بعينه، فالمفردات التي تشير إلى مستقبل مؤكد يمكن أن تدل على أمر حدث في الماضي أيضاً. ناهيك عن أن اللغة العربية تتضمن بعض ما يمكن للعربي أن يفهمه تلميحاً. وبغض النظر عن ذلك، فهناك المشكلة المعتادة التي تكمن في أن الكلمات التي تعبر عن المعنى

ذاته في لغتين لا تتطابق فيما يختص بتداعي الخواطر إلا نادراً، ومن ثم، فإن كل ترجمة للقرآن إن هي إلا تفسير يُفقر المعنى ويجرده من مضمونه، وهكذا كان الرجل في البهو على حق.

لم تشأ هذه الجزائر، التي أدين لها بالكثير، أن تتركني وشأني، وإنما تبعتني كالقدر. فعندما أصبحت سويسرا ترعى مصالحنا في الجزائر، في عام ١٩٦٦م، كان عليّ أن أعمل من السفارة الألمانية في بون على استمرار الاتصال مع من تبقى من بعثتنا الدبلوماسية في الجزائر، من خلال القسم السياسي في السفارة السويسرية. وكان البريد المرسل من بون إلى الجزائر، يمر من خلالي أسبوعياً. وبعد ٢٥ عاماً من عملي في الجزائر لأول مرة، عدت إليها سفيراً في عام ١٩٨٧م. ومنذ اعتمدت سفيراً في المغرب المجاور للجزائر، في عام ١٩٩٠م، يندر أن تفارق مخيلتي صورة الجزائر التي ما تزال تعاني آلاماً مأساوية. فهل يمكن أن يكون ذلك كله محض مصادفة؟!

* * *

هداني إلى الإسلام أيضاً، تجربة مهمة، ذات طبيعة جمالية متصلة بالفن الإسلامي. ولهذه التجربة، قصة تتلخص في أنني «مولع بالجمال». وكنت منذ صباي معجباً بالجانب الشكلي للجمال، وأرغب الغوص في أعماقه حتى عندما كانت حماتي الأمريكية تقول - استناداً إلى المنهج البيوريتاني - إن الجمال مجرد أمر سطحي، وإنه ليس إلا خداعاً على السطح.

عندما تلقيت في عام ١٩٥١م الدفعة الأولى من منحة التفوق، التي تمنحها وزارة الثقافة في بافاريا «للموهوبين جداً»، دفعتها بأكملها ثمناً لشراء نسخة مطبوعة على قطعة من الجوت من لوحة بول جوجان «الفتاة وثمار المانجو». وبما

أنني لم أكن ممن يقطنون حي Maximilianeum، الواقع على اليمين من نهر إيزار، Isar وإنما كنت أقيم في المستوطنات السكنية للثوريين الديمقراطيين، عند ميدان ماسمان، حيث يتقاسم العمال والطلبة غرفها، فقد نقلت لوحة جوجان التي اشتريتها إلى مسكني هناك، ورحت أحللها، ولم ألبث أن اقتنعت بأن الفن الساكن (غير المتحرك) - الرسم، والنحت، والعمارة، والخط، والأعمال الفنية الصغيرة - مدين بالفضل في تأثيره الجمالي للحركة المجمدة؛ ومن ثم، فإنه مشتق من الرقص. ولذلك، يزداد إحساسنا بجمال الفن التشكيلي كلما ازدادت قدرته على الإيحاء بالحركة.

وهذا هو ما يفسر انبهاري الشديد بالرقص الذي دفعني إلى مشاهدة عروض الباليه كافة في مسرح برينزرجنتن في ميونخ. ومنذ ذلك الحين، ازداد اهتمامي بالرقص، واتسع ليشمل كل ما يتصل به. وكنت أقضي كل ساعة فراغ بين مواعيد المحكمة في صالات عروض الباليه، بالقرب من قصر العدل. وحصلت على تمارين للباليه، لكي أتعلم ولو على نحو مختلف - رقص الباليه الكلاسيكي، حتى أعرف ماهية ما أكتب عنه. ويعتمد هذا الفن اللطيف، في نهاية الأمر، على جهد بدني خارق. وهكذا تعلمت أن أميز، على سبيل المثال، بين الحركات المختلفة وأساليب أدائها[1].

كان أكثر ما يروق لي هو مدرسة لونافون زاخنوفسكي الروسية، التي تعيش

---

(١) من يهتم بخطوات ومصطلحات الباليه الكلاسيكي، سيجد خير دليل في كتاب «أسس الرقص الكلاسيكي» لمؤلفه A.J.Waganowa، (ترجمة: Jochen Scheibe)، والصادر في برلين عام ١٩٦٤م.

وكذلك كتاب: «الباليه الكلاسيكي» تأليف: Muriel Stuart/George Balanchine، نيويورك (١٩٥٢م).

في المنفى. ولقد تربى في هذه المدرسة تلميذات نجيبات مثل أنجيلا ألبريشت. ومنها تكونت في منتصف الخمسينيات فرقة «باليه زاخنوفسكي»، التي قدمنا بوساطتها عروضاً راقية في ميونخ وفي مدن أخرى في بافاريا. وكنت مسؤولاً في هذه الفرقة عن التعاقدات، والدعاية والإضاءة، ووحدة التزيين، وفي عام ١٩٥٥م، أسست في ميونخ بالاشتراك، مع كارل فيكتور برينتس تسوفيد، جماعة أصدقاء الباليه، وتوليت معه باب نقد الرقص في صحيفة ميونخ المسائية.

كانت المراحل التالية في حياتي هي بإيجاز: العمل فيما بين عامي ١٩٥٤م، ١٩٨٠ ناقداً متخصصاً في الباليه في صحف في ألمانيا وبريطانيا وأمريكا، والعمل محاضراً لمادتي تاريخ وعلم جمال الباليه بمعهد كولونيا للباليه فيما بين عامي ١٩٧١م، ١٩٧٣م. وتقدمت بمذكرات إلى مؤتمر وزير الثقافة حول تأسيس باليه قومي ألماني.

لم يكن بعض معارفي يعلم أن القانون والدبلوماسية هما مهنتاي الأساسية، وليس الباليه. وكان الكتاب الأثير حقاً عندي، هو كتاب جيلبرت وكونز عن تاريخ علم الجمال بوصفه علماً فلسفياً[١]. وكعاشق للباليه، ذلك الفن المجرد الذي يجسد الموسيقى، كنت في الواقع أبحث عن الأسباب التي ترغمنا على الإحساس بجمال أشياء أو حركات بعينها[٢] ولهذا السبب، كنت أقبع لأسابيع طويلة في إحدى الغابات البفارية باحثاً في أسس علم جمال الحركة. وهناك تبين لي أننا بوصفنا بشراً لانملك إلا أن نحس جمال الجسد البشري الصحيح وما

(١) كاترين جيلبرت وهلموت كونز «تاريخ علم الجمال»، بلومنجتن، إنديانا، عام ١٩٥٣م.

(٢) فلفريد هوفمان: «الباليه. الموضوعي وغير الموضوعي»، في «المسرح والعصر»، فوبرتال (١٩٦٥م)، عدد ٦.

يتطابق مع مقاييسه. وهو ما ينطبق أيضاً علينا بوصفنا محللين بصريين لما تفرزه الطبيعة من صور وأنواع. يضاف إلى ذلك أننا نقرأ الصور في ذات الاتجاه الذي نكتب فيه. وتبين لي أخيراً أن الحركات تستحوذ على انتباهنا بسبب ما يمكن أن تنطوي عليه من مخاطر. وتبين لي آخراً أننا نُعْجَبُ بحركات الطرد المركزي، لأننا نستطيع أن نتخيلها ممتدة في ما لا نهاية[1].

عبر هذا الطريق، صار الفن الإسلامي بالنسبة لي تجربة مهمة ذات قيمة عالية ومثيرة. ألا يماثل في سكونه تماماً ما أسعدني في حركات الباليه.. التجريدية: القدرة الإنسانية، والحركة الداخلية، والامتداد فيما لا نهاية، وذلك كله في إطار من الروحانية التي يتسم بها الإسلام؟!

ألهمتني أعمال معمارية، مثل الحمراء في غرناطة، والمسجد الكبير في قرطبة، اليقين بأنها إفراز حضارة راقية رفيعة. واستوعبت جيداً ما كتبه راينر ماريا ريلكا بعد زيارته لكاتدرائية قرطبة، إذ كتب: «... تملكني منذ زيارة قرطبة عداء وحشي للمسيحية. إنني أقرأ القرآن وهو يتجسد لي صوتاً يستوعبني بقوة طاغية، وأندفع بداخله كما تندفع الريح في الأرغن»[2].

صار الفن الإسلامي لي وطناً جمالياً، مثلما كان الباليه الكلاسيكي من قبل. وأصبحت أرى الأعمال الفنية للعصر الإغريقي والروماني والقوطي، ولعصر

---

(١) فلفريد هوفمان «عن الجمال في الرقص – أسس جماليات الباليه»، في «أرشيف الرقص» كولونيا (١٩٧٣م – ١٩٧٤م) العدد ٦ – ٨. ونشرت كذلك مصورة تحت عنوان «عن الجمال والرقص. نحو أسس جماليات الباليه» باللغة الإنجليزية في «آراء حول الرقص»، نيويورك (١٩٧٣م) العدد ٥٥.

(٢) نقلاً عن «إيفا بركون»: نظريات عن التأثير العربي في الموسيقى الأوروبية في العصور الوسطى» صدر في الدورف عام ١٩٧٦م، ص ١١٠.

النهضة والروكوكو مثيرة، وعريقة، وأصيلة، بل وعبقرية، ولكنها لا تنفذ إلى داخلي، ولا تحرك عواطفي ولا مشاعري.

إنني أدرك قوة جاذبية فن هذا الدين الآن أفضل من ذي قبل؛ حيث إنني محاط في المنزل الآن بفن تجريدي، ومن ثم بفن إسلامي فقط. وأدركها أيضاً عندما يستمر تاريخ الفن الغربي عاجزاً عن مجرد تعريف الفن الإسلامي. ويبدو أن سره يكمن في حضور الإسلام في حميمية شديدة في كل مظاهر هذا الفن، كما في الخط، والأشغال الخشبية المزخرفة، ونقوش السجاد، وعمارة المساجد والمنازل والمدن. إنني أفكر كثيراً في أسرار إضاءة المساجد وفي بنائها الديمقراطي، وفي بناء القصور الإسلامية، الذي يوحي بحركة متجهة إلى الداخل، بحدائقها الموحية بالجنة بظلالها الوارفة وينابيعها ومجاريها المائية، وفي الهيكل الاجتماعي - الوظيفي المبهر للمدن الإسلامية القديمة (المدينة) الذي يهتم بالمعيشة المتجاورة تماماً كما يهتم بإبراز موقع السوق وبالمواءمة أو التكيف لدرجات الحرارة وللرياح، وبدمج المسجد والتكية والمدرسة والسبيل في منطقة السوق ومنطقة السكن.

إن من يعرف واحداً من هذه الأسواق - وليكن في دمشق، أو إسطنبول، أو القاهرة، أو تونس، أو فاس - يعرف الجميع. فهي جميعاً، كبرت أم صغرت، منظمات إسلامية من الطراز الوظيفي ذاته. فما أكثر ما تجولت في سوق مدينة سالي المؤاخية للرباط لكي أستعيد حيويتي. إنه ذروة مجتمعية حيوية يجد فيها كل إنسان مكاناً له، شيخاً كان أو شاباً، صحيحاً كان أو معاقاً، فقيراً أو غنياً، أبيض أو أسود. ولا يوجد به عجلة، ولا أزمة ضيق وقت، ولا مبالغة في تقييم الذات، ولا خمور، ولا وسائل نقل ثقيل، ولا سياح، ولا ابتزاز، وحيث الجميع سواسية، وكل عملية شراء ترتبط بـ «دردشة»، وحيث تغلق الحوانيت أبوابها وقت الصلاة.

كان ما أحسست منذ البداية أنه إسلامي وباعث على السعادة هو في واقع الأمر التأثير الناضج للتناغم الإسلامي، وللإحساس بالحياة والمكان الإسلاميين على العقل والروح. وهذا ما أحسست به في متحف جولبينكيان الإسلامي في لشبونة، مثلما أحسست به في المسجد الأموي بدمشق، وفي مسجد ابن طولون بالقاهرة، وفي مسجد القيروان القديم أو المسجد السليمي في درنه.

قبل أن يقودني الدرب الفلسفي إلى الإسلام، الذي قادني بدوره إلى تجربة أساسية ثالثة في حياتي، كنت قد حصلت، وأنا بعد في سن المراهقة في مدينة أشفنبرج، على قسط وافر من التعليم الجيزويتي، من خلال عضويتي لجمعية Con-gregatio Mariana، وهي المقابل لحركة «أمانيا الجديدة» المتمركزة في الشمال.

ويعود ارتباطنا، بل تعلقنا الرومانسي، بهذه المنطقة إلى مدة حكم النازي، وذلك لأن الجستابو لم يتمكن من الكشف عنها عندما كانت تقاوم هذا الحكم سراً. ولم يكن حتى أبي المشتت الفكر يعلم بعضويتي لهذه المنظمة. وكنا نجتمع أسبوعياً مع أحد القساوسة الجيزويت في إحدى المقابر، في ظل إجراءات أمنية مشددة. فكان كل فرد منا لا يعرف سوى أفراد مجموعته فحسب. ولكننا تمكنا بمرور الوقت من استقطاب أفضل عناصر تلاميذ المدارس الثانوية. وقطعنا بذلك الطريق على منظمة «شبيبة هتلر»، أي إننا منعنا هذه العناصر الجيدة من أن تنضم إلى منظمات الشباب التابعة للحكم النازي. ولقد أدهشنا أن عدد أفراد المنظمة بلغ عند انتهاء الحرب ٨٠ فرداً.

بعد أن انقضت الحرب، عدنا إلى الاستمتاع بحياة وأساليب منظمات الشباب التي كانت سائدة في عشرينيات هذا القرن.

ونظراً لما سبق ذكره، فقد كنت على دراية تامة بالديانة الكاثوليكية، وبأدق شؤونها من الداخل. ولكنني في الوقت ذاته، كنت قد بدأت أضع هذه الديانة محل تساؤلات وشكوك.

كنت أنا و Carl Jacob Burckhardt نتساءل دوماً عما إذا كان من الصواب أن يكون عالم اللاهوت ودارس الأديان مسيحي الديانة[1].

وبالرغم من إعجابي بفلسفة Ludwig Wittgenstein، فإني كنت على يقين تام من عدم وجود دليل ينفي وجود الله. وكنت شديد التمسك بالرأي القائل بأن عدم وجود الله غير مؤكد بشكل قاطع، وأن الاعتقاد بوجود الله أو نفي وجوده يظل مسألة تحسمها العقيدة ويقين الفرد[2].

ولقد حسمت هذه باعتقادي في وجود الله. وبعد ذلك ثار سؤال عن ماهية الاتصال بين الله والإنسان.

ولقد كنت شديد الاقتناع بإمكانية، بل قل بضرورة، تدخل الله وتسييره لمجريات الأمور. ويرتكز اقتناعي هذا على دراستي ودرايتي بتاريخ الإنسانية والعلوم والحق، التي استنتجت من خلالها أن مجرد مراقبة الطبيعة وتتبعها فقط لن يقودنا إلى إدراك حقيقة علاقتنا ببيئتنا وبالله. ألا يشهد تاريخ العلوم على حقيقة مفادها: أن الحقائق العلمية يغير بعضها بعضاً بسرعة شديدة[3]؟!

كنت بهذه الخطوة قد حسمت يقيني بإمكانية، بل بضرورة، الوحي والدين.

(١) هو جوفون هوفمانستال/ كارل بوركهاردت: (رسائل) فرانكفورت (١٩٥٧م)، خطاب بتاريخ ١٥/ ١/ ١٩٢٩م.

(٢) انظر (١)، خطاب بتاريخ ١٢/ ١/ ١٩٢٩م.

(٣) ريتشارد سوبيرن: «وجود الله» شتو تجارت (١٩٨٧م).

ولكن أي دين؟ وأي عقيدة؟ هل هي اليهودية، أو المسيحية، أو الإسلام[1]؟

وجاءتني الإجابة من خلال تجربتي الثالثة التي تتلخص في قراءتي المتكررة للآية ٣٨ من سورة النجم: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2] ولا بد من أن تصيب هذه الآية بصدمة شديدة كل من يأخذ مبدأ حب الآخر الوارد في المسيحية مأخذ الجد، لأنه يدعو في ظاهر الأمر إلى النقيض.

ولكن هذه الآية لا تعبر عن مبدأ أخلاقي، وإنما تتضمن مقولتين دينيتين تمثلان أساساً وجوهراً لفكر ديني، هما:

١ - أنها تنفي وتنكر وراثة الخطيئة.

٢ - أنها تستبعد، بل وتلغي تماماً، إمكانية تدخل فرد بين الإنسان وربه، وتحمل الوزر عنه.

والمقولة الثانية هذه تهدد، بل وتنسف، مكانة القساوسة، وتحرمهم من نفوذهم وسلطانهم الذي يرتكز على وساطاتهم بين الإنسان وربه وتطهيرهم الناس من ذنوبهم.

والمسلم بذلك هو المؤمن المتحرر من جميع قيود وأشكال السلطة الدينية.

أما نفي وراثة الخطيئة وذنوب البشر، فقد شكل لي أهمية قصوى، لأنه يفرغ التعاليم المسيحية من عدة عناصر جوهرية، مثل: ضرورة الخلاص، والتجسيد، والثالوث والموت على سبيل التضحية.

(١) انظر وصف اعتناقي الإسلام في كتاب «الحمد لله، مسلم ذو أصول غربية» في: «ألمان هداهم الله»، كولونيا (١٩٨٢م).

(٢) تجد المعنى ذاته في الآيات التالية: سورة ٦ الآية ١٦٤، سورة ١٧ الآية ١٥، سورة ٣٥ الآية ١٨، وسورة ٣٩ الآية ٧.

وبدا لي أن تصور فشل الله في خلقه، وعدم قدرته على تغيير ذلك إلا بإنجاب ابن والتضحية به - أي إن الله يتعذب من أجل الإنسانية - أمر فظيع ومروع، بل وتحريف وإهانة بالغة.

وبدت لي المسيحية وكأنها تعود لترتكز في أصولها على أساطير متنوعة ومتعددة.

وتبين لي جليًا الدور الخطير والشرير الذي أداه بولس الرسول. لقد قام بولس - الذي لم يعرف المسيح أبداً ولم يصاحبه في حياته - بتغيير بل بتزوير التعاليم اليهودية - المسيحية التي صاغها برنابه وترى في المسيح أحد رسل الله وأنبيائه.

وتيقنت أن المجلس الملي، الذي انعقد في نيقيا (عام ٣٢٥)، قد ضل طريقه تماماً، وحاد عن الصواب وتعليمات المسيحية الأصلية، عندما أعلن أن المسيح هو الله. واليوم، أي بعد مرور ما يزيد على ستة عشر قرناً، يحاول تصحيح هذا الخطأ بعض علماء اللاهوت الذين يتمتعون بجرأة شديدة.

ومجمل القول: إنني بدأت أنظر إلى الإسلام كما هو، بوصفه العقيدة الأساسية الحقة التي لم تتعرض لأي تشويه أو تزوير.. عقيدة مؤمن بالله الواحد الأحد الذي ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (سورة: الإخلاص). رأيت فيه عقيدة التوحيد الأولى، التي لم تتعرض لما في اليهودية والمسيحية من انحراف، بل ومن اختلاف عن هذه العقيدة الأولى.. عقيدة لا ترى أن معتنقيها هم شعب الله المختار، كما أنها لا تؤله أحد أنبياء اليهود.

لقد وجدت في الإسلام أصفى وأبسط تصور لله، تصور تقدمي. ولقد بدت

لي مقولات القرآن الجوهرية ومبادئه ودعوته الأخلاقية منطقية جداً حتى إنه لم تعد تساورني أدنى شكوك في نبوة محمد.

ولقد سمعت مراراً قبل اعتناقي الإسلام مقولة أن التحول من دين إلى دين آخر ليس له أي أهمية، حيث إن الأديان كلها تؤمن في آخر الأمر بإله واحد، وتدعو إلى الأخلاقيات والقيم ذاتها. وإن السلوك والأخلاق الحميدة، وبالإضافة إلى الإيمان بالله في قلب الإنسان، وأن يتوجه الإنسان إلى الله سراً، لأهم من الصلاة خمساً، ومن صوم رمضان وأداء فريضة الحج. كم من مرة اضطررت إلى الاستماع إلى هذه المقولات من مسلمين أتراك تخلوا عن عقيدتهم دون أن يدركوا ذلك[1].

إن إلهًا خاصًا سريًا ليس بإله.. وكل هذه الحجج والمقولات تبدو واهية، إذا ما تيقنت أن الله يتحدث إلينا في قرآنه. ومن يدرك هذه الحقيقة لا يجد مفراً من أن يكون مسلمًا بأعمق معاني هذه الكلمة.

(١) محمد رسول: «الصلاة في الإسلام»، كولونيا (١٩٨٣م).

الفصل الثالث

خمس مرات يوميًا كما هو مفروض

ربما يمكن القول إنني كنت قريباً من الإسلام بأفكاري قبل أن أشهر إسلامي في عام ١٩٨٠م، بنطق الشهادتين متطهراً كما ينبغي، وإن لم أكن مهتماً حتى ذلك الحين بواجباته ونواهيه فيما يختص بالحياة العملية. لقد كنت مسلماً من الناحية الفكرية أو الذهنية، ولكنني لم أكن كذلك بعد من الناحية العملية. وهذا على وجه اليقين ما يتحتم أن يتغير الآن جذرياً. فلا ينبغي أن أكون مسلماً في تفكيري فقط، وإنما لابد أن أصير مسلماً أيضاً في سلوكي.

إذا كان الدين يعني رباطاً يربط الإنسان بربه، وإذا كان الإسلام يعني أن يهب المسلم نفسه لله، فقد كان أهم واجباتي، بوصفي مسلماً، حديث عهد بالإسلام، في الخمسينيات من العمر، أن أتعلم صلاة الإسلام. وليس من الضروري أن يكون المرء خبيراً في الحاسب الآلي ليدرك أن الأمر هنا يتعلق بمسألة اتصال.. ما أصلح فنون الاتصال للاتصال به؟

من المؤكد، على أي حال، أنه لا شيء يعرض إسلام المرء للخطر أكثر من انقطاع صلته بربه. ومن ثم يصبح التسبيح بحمد الله هو العنصر المحوري في حياة كل من يعي ويدرك معنى ما يقوله، عندما يقول إنه يؤمن بالله. وبناء على ذلك، فإن من لا يصلي ليس بمؤمن من وجهة نظري. فمن يؤكد لامرأة غائبة حبه لها، دون أن تكون لديه رغبة في التحدث إليها هاتفياً أو في الكتابة إليها، ودون أن يلقي نظرة واحدة على صورتها طول اليوم، ليس محباً لها في حقيقة الأمر. وهذا ما ينطبق تماماً على الصلاة. فمن يعي ويدرك حقاً المعنى الحقيقي لوجود الله، ستكون لديه بالضرورة رغبة في التأمل وفي التوجه إلى الله كثيراً. وبذلك

فقط، يصير ما يردده المسلم كثيراً وهو يقرأ سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقيقة واقعة.

كنت حتى تلك اللحظة أجهل ما يجب فعله واتباعه في الصلاة. ناهيك عن قدرتي على الحفظ والتلاوة باللغة العربية. ومن ثم، كانت أولى أولوياتي آنذاك هي التغلب على هذا النقص. وقبل أن أمعن في دراسة مقدمة مصورة باللغة الألمانية للصلاة الإسلامية، تحظى بأكبر قدر من الثقة، طلبت من صديق تركي أن يعلمني الوضوء وكيفية الوقوف في الصلاة، والركوع، والسجود، والجلوس على الأرض مستنداً على القدم اليسرى، ورفع الذراعين، واتجاه النظر، ومتى يقرأ المرء جهراً، ومتى يقرأ سراً مع تحريك الشفتين في القراءة، وكيف يقف المرء موقفاً صحيحاً خلف الإمام، وكيف يتصرف المرء عندما يأتي متأخراً إلى المسجد، وكيف يتحرك داخل المسجد. إنه علم كامل! وفي الحقيقة، فإنه من الخطر أن يتصرف المسلم بوصفه مسلماً دون أن يكون كذلك.

* * *

تبدأ الصلاة الإسلامية، وإن بدا ذلك أمراً غريباً، من الحمام أو عند مصدر المياه في الفناء الأمامي للمسجد بالوضوء. وينبغي تعلم ذلك بحسب تتابعه وتسلسله، وكيف يغسل المرء اليدين، وكيف يمسح الرأس، وكيف يتأكد من غسل الكعبين. . كل شيء وُضع وحُدد على نحو دقيق تماماً[(١)].

حينما ينوي المرء الصلاة ويرفع اليدين إلى الرأس مكبراً مفتتحاً الصلاة، فإنه ينفصل تماماً عن مشاغل حياته اليومية، وهذا يؤكد قدسية الصلاة بالنسبة له.

(١) هذا الوضوء لا يفي بالغرض في حالتي المعاشرة الزوجية والحيض عند المرأة، ولهذا يلزم الغسل.

لا يمثل الوضوء مشكلة في البلدان الحارة، حيث تؤدي الحرارة المرتفعة إلى سرعة الجفاف. وفي حالة عدم توافر الماء، فإنه يكفي تنظيف اليدين بالرمل على سبيل الرمز (التيمم). ولقد تعرضت لمثل هذا الموقف، حينما غاصت السيارة التي يقودها سائقنا الخبير بالصحاري في السابع من شهر ديسمبر عام ١٩٩٣، في أثناء رحلة في منطقة ليوا الغنية بالنفط في الإمارات العربية المتحدة، حيث تبدو الرمال صالحة تمامًا للتيمم.

أما في مناطقنا الباردة، فليس من السهل حقاً، في حالة عدم وجود مناشف، أن يضطر المرء إلى ارتداء جواربه وقدماه مبتلتان.

* * *

تبين لي أن تعلم كيفية أداء الصلاة أيسر كثيراً مما كنت أتوقع، لأن الصلاة تتكون من وحدات ثابتة تسمى «ركعة». فالركعات هي وحدات الصلاة.

وينبغي أن يتعلم المرء أيضاً عدد الركعات في كل من الصلوات الخمس الصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وأن يعرف مواقيتها، وما ينبغي على المسافر أن يراعيه من أحكام الصلاة.

تعلمت أخيراً كيفية الوقوف في صلاة الجماعة، حيث ينبغي أن يصطف المصلون في صف مستقيم تتلاصق فيه الأقدام وتُسدُّ الفرج. وهذا التلاصق يرمز بالنسبة لي أكثر من مجرد ضم صفوف. إنه يرمز إلى التضامن على نحو يؤثر فيَّ مجدداً كل مرة. ويتجدد هذا التضامن في نهاية كل صلاة مع تحية «السلام عليكم» التي ينطقها المُصَلّي وهو يلتفت يميناً ثم يساراً، وبعد ذلك يمسح وجهه بكلتا يديه إعلاناً عن انتهاء الصلاة، وبعدها يمد يديه إلى جاره في الصلاة مصافحاً ومتمنياً أن يتقبل الله صلاته «تقبل الله صلاتك».

روى لي عبد الوهاب عبادة، السكرتير العام السابق لوزارة الخارجية الجزائرية، أنه غير هذه التحية مرة عندما كان طفلاً. فلقد بدا له أنه من الأقرب إلى المنطق أن يقول: «السلام عليك». وكانت نتيجة ذلك أنه تلقى على وجهه صفعة من والده الذي علمه أن المسلم يقول دائماً: «السلام عليكم» لأن تحيته تشمل جميع المخلوقات المرئية وغير المرئية.. تشتمل الجنادب.

من الأهمية بمكان، أن يعرف كيف يحدد موضع صلاته، بحيث يضع نظارته وحافظة أوراقه على مسافة نحو ٩٠ سنتيمتراً أمامه. فلن ينتهك أحد موضع صلاة أحد آخر، ولن يمر أحد من أمام أحد المصلين مباشرة. وإنني لأتذكر أنني هممت بمغادرة مسجد الرسول ﷺ في المدينة، بعد أن انتهيت من الصلاة، يوم ٢٦ من ديسمبر عام ١٩٨٢. وعندما بلغت الباب الرئيسي، كانت حركة السير بطيئة. وكان السبب أن أحد القادمين إلى الصلاة متأخر، لحق بها فور وصوله إلى الباب، وما يزال يكمل صلاته على الدرج في هدوء تام، في حين انقسمت جموع المصلين المنصرفين من المسجد حوله كما تنقسم حول صخرة. ولم يجرؤ أحد على أن يزعجه، أو يشوش عليه في صلاته، أو أن يقتحم موضع صلاته. أما ما هو أشد غرابة وإثارة للدهشة، فذلك الذي رأيته في أثناء الطواف حول الكعبة في عام ١٩٩٢.. فلقد راحت امرأة ضعيفة البنية تؤدي الصلاة دون اكتراث، في قلب الزحام على مسافة بضعة أمتار من الكعبة، محاطة بأربعة رجال أشداء يصنعون لها سياجاً بسواعدهم. ومرة أخرى يتكرر رد الفعل الهادئ نفسه من جانب الناس. فلا لوم، ولا تأنيب، ولا كلمة غاضبة، وإنما احترام للصلاة.

ربما يكون من العسير أو حتى من المستحيل، بسبب هذه القواعد الصارمة، أن يغادر المسجد أحد من المصلين في الصفوف الأمامية قبل أن يغادره الجميع. ولقد

اضطرت في عام ١٩٩٣ إلى أن أترك مضيفي في أبو ظبي ينتظرني، لأنني لم أجد وسيلة لمغادرة المسجد تتفق مع القواعد. فلكي أغادر المسجد عبر طريق جانبي، كان لابد من أن أمر أفقياً من أمام المصلين، وهذا هو «الحرام» بعينه.

* * *

أحب كثيراً أن أؤدي الصلاة بمفردي، حتى أستطيع أن أتحكم في سرعة إيقاعها الذي يتسم عادة بالسرعة إلى حدٍّ ما عند الصلاة في المسجد، بسبب مراعاة ظروف المرضى ومن يكونون على عجلة من أمرهم. ومع ذلك، فإن لصلاة الجماعة فضلاً على الصلاة منفرداً.

بعيداً عن المساجد التي لها إمام محدد، يؤم الصلاة فيها، ينبغي قبل كل صلاة جماعة أن يختار في لحظتها من يؤمها. ويتمتع المضيف بالحق في أن يؤم الصلاة. ومع ذلك، فإنني أحب بشدة أن أفوض في إمامتها واحداً من ضيوفي (مثل السفير السعودي، أو رئيس حزب الاستقلال المحامي محمد بوستة، عندما نلتقي معاً على مائدة الإفطار في رمضان بمقر إقامتي في الرباط).

وذات مرة، اقتضت ظروف غريبة أن أصلي أنا نفسي إماماً[1]. فعند وصولي إلى سان فرانسيسكو في العاشر من أكتوبر عام ١٩٨٥، للمشاركة في الاحتفال السنوي لتجمع شمالي الأطلنطي، رحت أبحث في دفتر الهاتف وفي سجل الكنائس عن مسجد. وكنت موقناً أنني سأجد في عاصمة المذاهب الأمريكية جماعة إسلامية. وشد ما كانت دهشتي حينما قرأت «المركز الإسلامي، ٨٥٠، شارع ديفيزاديرو، تقام شعائر الصلاة يومياً في الساعة الثانية عشرة، وأيام الآحاد

(١) انظر لتفصيلات أدق: مراد هوفمان: «يوميات مسلم ألماني» الطبعة الثانية. كولونيا (١٩٩١) ص ١٥٦.

في الساعة الثالثة عشرة»، تماماً كما هو معتاد في الكنائس التي لا تحدد مواعيد الصلاة بها تبعاً لوضع الشمس كما هي الحال عند المسلمين. وعندما وصلت إلى هناك، وجدت جماعة تتألف من ثلاثة أعضاء من السود. وانتظاراً لارتفاع الأذان منادياً للصلاة راح شيخ أشيب الشعر، يضع على عينيه نظارة واسعة مائلة إلى أسفل، يقرأ في نسخة عربية من القرآن واضعاً الإصبع على السطور. وينضم إلى الحاضرين عضو آخر من أعضاء الجماعة. إنه يوسف سيمون. . شاب شيعي أسود يدرس العلوم السياسية. ولقد قابل دهشتي بالصمت، إذ لا بد من أنه اعتاد أن يعاني التفرقة لأنه أسود بين بيض، ومسلم بين مسيحيين، وشيعي بين سنّة.

لم تفارقني الدهشة على الإطلاق. فها هو ذا المؤذن للصلاة، ولكنه يبدأ بالإقامة قبل الأذان. ولأن «بلالاً»، أول مؤذن للإسلام بالمدينة، كان أسود، فقد شعرت بحرج شديد في أن أصحح خليفته في سان فرانسيسكو. ولكني ما كنت لأستطيع الصمت إزاء كل هذه التطورات المتناقضة، فرحت أروي بحرص شديد أنه سبق لي أن كنت في مكة، وأنهم هناك يبدؤون بالأذان ثم الإقامة.

ولم يدهشني رد الفعل لما قلت، بل عددته رد فعل طبيعياً، إذ دعتني الجماعة الصغيرة على الفور للصلاة بها إماماً، لأنني «الأكثر علماً» بين المسلمين الموجودين. ولم يؤثر في ذلك بأي حال كوني ألمانياً أبيض وأنني جئتهم أول مرة. وهكذا وجدت نفسي على غير انتظار في مواجهة القبلة. وتمنيت لو أنها كانت، على الأقل، موجهة توجيهاً صحيحاً نحو مكة، وصففت جماعتي الصغيرة جداً في صف مستقيم، ورفعت يديّ مكبراً «الله أكبر».

إن للمعرفة وحدها وزناً يُعتد به. وهذا ما تؤكده أيضاً واقعة أخرى. ففي ديسمبر عام ١٩٨٢، أمَّ صبي عربي في الخامسة عشر من العمر، بفندق شيراتون

المدينة، صلاة مجموعة من المعتمرين الباكستانيين الأميين.

فيما يختص بصلاة الجمعة، التي تتألف بصفة أساسية من خطبتين قصيرتين ثم صلاة ركعتين، فإنه لا بد لأدائها من الذهاب إلى المسجد. وينهي الخطيب خطبته في العادة برفع يديه بالدعاء إلى الله. ومما له أهمية سياسية كبيرة، أن يدعو الخطيب بالبركة للحاكم.

وبناء على خبرتي لسنوات طويلة، لا تحقق هذه الخطب، للأسف، في العالم العربي ما كان يمكن أن تحققه، لأنها تخاطب المشاعر أكثر من مخاطبتها للعقل. فهي تردد ما يؤمن به المؤمنون أكثر مما تعمقه. ويظهر ذلك في نبرة صوت الخطباء. فبعضهم يصرخ كما لو كان يستثير حماسة جيش لخوض معركة. وينبغي مع ذلك أن أقر، على الجانب الآخر، أنه لا مجال في العالم الإسلامي للوعظ بأسلوب حديث، لأنه لا يكاد يوجد به من يدّعي الإلحاد. فلماذا ينبغي على المرء إذن أن يدعم أسس ومبادئ العقيدة بحجج وبراهين عقلية ومعقدة، بدلاً من أن يوظف تربوياً ما يسود العالم الإسلامي من إيمان؟ (وهناك أيضاً استثناءات إيجابية. فكما يتحمل بعض المسيحيين في ميونخ مشقة الوصول عبر طرق أطول إلى خطيب بعينه، كنت في مدة وجودي بالرباط أذهب حتى مشارف المدينة لأستمع إلى إمام مسجد لالا «السيدة سكينة»، المثقف في خطبة صلاة الجمعة).

في أثناء عملي الوظيفي، كان عليّ، تنفيذاً لقاعدة بروتوكولية، أن أصلي صلاتي عيدي الفطر والأضحى خلف قادة دول، مثل الرئيس الجزائري الشاذلي ابن جديد، والملك الحسن الثاني ملك المغرب. وكان ذلك يجري أمام عدسات كاميرات التليفزيون. وكنت في كل مرة ألمس الروح الديمقراطية التي تضفيها

الصلاة الإسلامية حتى على مثل هذه الأجواء. فسجود ملك على الأرض مرتدياً جواربه أمر جد مختلف عن خطو رئيس فرنسا في كاتدرائية ريمس نحو موضع جلوسه المميز.

❖ ❖ ❖

يتسم حفظ النصوص العربية، التي تُتلى في أثناء الصلاة، ومن بينها مقاطع قصيرة أو طويلة من سور القرآن، بالنسبة للبعض، بقدر من الصعوبة، يفوق ذلك الذي يتّسم به تعلم كيفية أداء حركات الصلاة. ولقد ساءني ألا أستطيع أن أحفظ جيداً النصوص العربية، ما جعلني أشبه بمساعد قسّ يفتقر إلى المعرفة اللاتينية. ولذلك، قررت مثل المسلمين كافة، من الأزل إلى الأبد، أن أتعلم من اللغة العربية ما يكفي على الأقل لفهم الصيغ النحوية وأصول المتون. (ولقد استفدت كثيراً من هذه المعرفة الأولية، عندما عملت فيما بعد سفيراً في الجزائر). وكان أول ما تعلمته بطبيعة الحال هو سورة «الفاتحة»، أول سور القرآن وفاتحة الكتاب، وهي مكون رئيسي لكل ركعة. ومن ثم، فإنها تُتلى يومياً ١٧ مرة على أقل تقدير:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. بعد الفاتحة تعلمت السورة رقم ١١٢، أي سورة الإخلاص، التي تعادل من حيث مضمونها، وفقاً لما يُروى عن الرسول ﷺ، ثلث القرآن بأكمله، على الرغم من قصر آياتها الأربع ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

وتلا ذلك المعوذتان، هما: سورة الفلق (رقم ١١٣)، وسورة الناس (رقم

١١٤)، ثم سورة مكية أخرى قصيرة مثل سورة الفيل (رقم ١٠٥)، وسورة قريش (رقم ١٠٦)، وسورة الكافرون (رقم١٠٩)، وسورة النصر (رقم ١١٠)، وكذا الآيات من ١ إلى ٥ من أول سورة نزل بها الوحي، وهي سورة العلق رقم ٩٦: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾. ولم أغامر بعد ذلك بمحاولة تعلم (حفظ) مقاطع أطول من القرآن مثل آية الكرسي (سورة ٢ - آية ٢٥٥)، وآية النور (سورة ٢٤ -آية ٣٥)، وكذا المقاطع الخاصة بأسماء الله الحسنى، أي صفات الله، (سورة ٥٩ - الآيات ٢٢ - ٢٤)، إلا بعد تقدمي المتنامي في المعارف العربية.

إن من يحلل نصوص الصلاة، يصل إلى اليقين بأن جوهر الصلاة هو ذكر الله ودعاؤه. وهذا يتفق مع إرشاد القرآن إلى أن أسمى واجبات الإنسان أن يهتدي بفضل قدراته الذهنية إلى معرفة الله والتسبيح بحمده. وهذا هو جوهر سلوك المسلمين. فإذا سألت أحدهم عن أحواله، فلن يجيب: جيدة أو سيئة. وإنما سيقول: الحمد لله.

بعد الصلاة، يقوم المرء بشغف شديد بالتسبيح بحمد الله، مستخدماً إما سبحة مكونة من ثلاث وثلاثين أو من تسع وتسعين حبة، وإما أصابع يده مردداً في همس: «سبحان الله وبحمده» أو «الشكر لله»، و «الحمد لله»، و «الله أكبر». ولعلنا نلاحظ أنه - خلافاً للمسيحية - تتعدد أشكال التسبيح والدعاء في الإسلام.

وإذا كان للدعاء مكانته الرئيسية، فإن الانصراف عن الدعاء إلى الله يصير نوعا من نقص الإيمان، لأن « الله قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه». (انظر: سورة ٢ آية: ١٨٦).

وكما أنه ليس للدعاء صورة أو قالب محدد، فليس له أيضاً موقع أو زمن محدد، ولا يشترط أن يكون باللغة العربية، وهو في حالته المثلى ذكر دائم لله. وهذا الذكر الدائم لله هو ما يجتهد فيه متصوفة المسلمين. ولقد قامت آنّا ماري شيميل بجمع قدر كبير من هذه الأذكار والأدعية الإسلامية الجميلة(١).

ويرجع إلى التصوف الإسلامي الفضل في تمسك وعدم تفكك الأذكار والأدعية الإسلامية شكلاً ومضموناً، بدءاً من المتصوف الأندلسي ابن عربي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر م حتى فيريشجوف شوؤن(٢) في عصرنا الراهن. فلم يتحلل الصوفيون الإسلاميون الحقيقيون على الإطلاق من الشكليات المفروضة، وإنما قاموا بعقلنتها. فها هو ذا شوؤن يقول في موضع آخر(٣): إن «المسلم - وبصفة خاصة من يتبع السنّة حتى في أدق وأصغر تفريعاتها - يعيش في شبكة من الرموز. . .». ومن يحمل هذا في قلبه لا يترك صلاته تتحول إلى روتين وسواء أديت الصلاة في مسجد شيعي في هامبورج، أو في مسجد مبني بالطوب اللبن (الطوب الأخضر) وجذوع النخيل في واحة فيجيج شرقي المغرب، أو في المسجد الأموي في دمشق بفسيفسائه المبهرة، فإن الصلاة واحدة، فقد تعلموها على يد معلم واحد (وهو ما حدث بالفعل). وهذا التوحيد الشكلي يوفر الهدوء والطمأنينة اللازمين للتركيز التام.

(١) آنّا ماري شيميل: «لك الملك وحدك: صلوات وأدعية إسلامية. فرايبرج (١٩٧٨)، و «فلتكن مشيئتك - أجمل الأدعية الإسلامية». بوندورف (١٩٩٢).

(٢) Islam and the Perennial Philosophy: Frithjof Schuon لندن (١٩٧٦).

(٣) Frithjof Schuon: «أن نفهم الإسلام»، ميونيخ (١٩٨٨) ص ٨٥. وانظر كذلك: «أدعية الإسلام» لمؤلفه عادل تيودور خوري. ماينز (١٩٨١).

تنطوي الصلاة في الإسلام، بالإضافة إلى جانبها الروحي، على بعد مادي ملموس، فضلاً عن بعد سياسي محتمل. فالمرء يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعلم كيف يجلس على قدميه مسترخياً على أرض صلبة، دون أن يتعرض لتقلصات عضلية، مدركاً أن وضع القدمين عاريتين في الوضع المناسب أيسر منه وهما داخل الجوارب. ولكن الجلوس على الأرض دون حراك لساعات طويلة على نحو ما يفعله إخوتنا في الشرق أمر لم يعد بمقدورنا أن نتعلمه في سن متقدمة.

ومن المؤكد، أن الصلاة في الإسلام تفيد في علاج أعراض التوتر المعاصر، الذي لا يحتاج إلى وقت طويل لتحليل ومعرفة أسبابه. فالإنسان المعاصر لا يعمل من حيث الكم، فيما يختص بالعمل العضلي بصفة خاصة، أكثر مما كان يعمل فيما مضى من الزمن، بل إن العكس هو الصحيح. أما الجديد، فهو السرعة التي تجري بها كل الأحداث وتُجْرى بها كل الأعمال - بوساطة التلكس، والفاكس، والبريد الإلكتروني، والإنترنيت، والبريد السريع -والتي ترهق المرؤوسين - أكثر من الرئيس - الذين يساورهم القلق من احتمالية فقدان السيطرة على الأمور ومداهمة المواعيد لهم، والخوف من الفشل. ويزيد تعاطي الخمور، والتدخين، والأقراص المخدرة، والأقراص المنشطة، الأمر سوءاً. ولقد ارتفعت تكاليف علاج انسداد الشرايين عند من يشغلون وظائف الإدارة العليا، إلى درجة أنهم أصبحوا يرغمون على القيام بإجازات إجبارية. وكذلك تتناول البرامج التدريبية لمديري شؤون العاملين التغذية الحيوية المرتدة، والتأمل الاستشرافي، وضرورة اكتشاف الفرد بنفسه لطقوس الشاي اليابانية بعدها وسائل للتخلص من التوتر والقلق.

ومقولتي في المقابل، هي أن الصلاة الإسلامية تحقق كل هذا وأكثر منه، إذ إنها لا تساعد المؤمن على التوقف عن التفكير والاسترخاء فحسب، وإنما تساعده أيضاً على تحقيق تحرره الداخلي من سحر المال والجاه والمنصب. فبينما يجد الأمريكي الذي يعيش تحت ضغوط مختلفة أنه أمام خيارين لا ثالث لهما إما الحرب وإما الهروب بالانتحار، يختار المسلم اختياراً ثالثاً هو أن يفيض مع الأشياء. (ربما يقصد المؤلف هنا توكل المسلم على الله). فبفضل الصلاة الإسلامية لا يستطيع مسلم حقيقي أن يكون متوتراً مؤرَّقاً، ولا أن يكون مصدراً للتوتر والأرق.

إنني أعرف تماماً عما أتحدث. فلقد كان بمقدوري أن أعرف كل العوامل التي تسبب الضغط والتوتر والأرق من خلال عملي مديراً لقسم حلف شمالي الأطلنطي والدفاع بوزارة الخارجية في المدة (١٩٧٩ - ١٩٨٣)، ومن خلال عملي مديراً لإدارة المعلومات الخاصة بخطر التهديدات بالعدوان في حلف شمالي الأطلنطي ببروكسل في المدة (١٩٨٣ - ١٩٨٧).

ابتداءً من عام ١٩٨٠، لم أعد أحمل معي في رحلات العمل سوى سجادة الصلاة وبوصلة (صنع تايوان)، لتحديد اتجاه القبلة، وإن كنت على يقين بأن منشفة نظيفة تفي بالغرض، وأن الله ليس غربياً ولا شرقياً، إذ ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (سورة البقرة: الآية ١١٥). وراحت أيامي تتشكل أكثر فأكثر تبعاً لمواقيت الصلاة، وليس تبعاً للساعة التي تسبب القلق والتوتر. (فعندما يتواعد المرء مع مسلمين فإنه لا يواعدهم «الساعة الثالثة والربع»، وإنما يواعدهم لوقت غير محدد إلى حد ما «بعد صلاة الظهر»، أو «بعد صلاة المغرب»).

ومجمل القول إنني وجدت عبر الصلاة تلك الطمأنينة والتحرر الداخلي الذي ينتزع المسلم من الضغوط كافة، لأنه يستطيع أن ينتزعه من عالم يقاس الوقت فيه بالمال، والمال فيه هو كل شيء.

عندما تعرضت في عام ١٩٩٢ لحملة طعن وتجريح شرسة في وسائل الإعلام بسبب إيماني، لم يستطع بعض من زملائي أن يفهم عدم اكتراثي بهذه الحملة (أو إنهم عدُّوه نوعاً من الكبرياء والغطرسة). وكان من الممكن العثور على تفسير لهذا السلوك من جانبي في الآية الخامسة من سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

في تلك الأثناء، صارت الصلاة بالنسبة لي عنصر تنظيم لحياتي على جانب كبير من الأهمية، حتى إنني لم أعد أرغب العيش في بلد لا أستطيع أن أسمع فيه نداء المؤذن الجميل للصلاة كما هي الحال في فاس، وفي إسطنبول مرة أخرى أخيراً.



لاحظت مراراً أن صلاة المنزهة عن الغرض يمكن، بحكم طبيعتها، أن تصير عنصراً سياسياً، فإلى ما قبل إقدام الجبهة الإسلامية في الجزائر على العمل العلني في عام ١٩٨٨، كان أتباعها قد بدؤوا يتجنبون المساجد الخاضعة لإشراف الحكومة (كما يتجنب كثيرون من الأتراك العاملين في ألمانيا المؤسسات التابعة لوزارة الأديان التركية). فإسلامهم الموازي ينعكس في صلاة موازية أيضاً. ففي البليدة على سبيل المثال، أدينا الصلاة في عام ١٩٨٧ في مسكن خاص مجاور للمسجد مباشرة، بدلاً من أن نصلي في المسجد.

وبالمثل، كان من المظاهر المميزة أن تدخل المسجد مجموعات من الشباب، قبل أو بعد صلاة الظهر بوقت قصير، لتصلي في أحد الأركان على أنها مجموعة مغلقة، وخلف إمام خاص. وهذه هي الظاهرة ذاتها التي لاحظتها في سبتمبر عام ١٩٩٤ في مسجد سنان باشا بحي باربارِوس بإسطنبول.

كانت النتائج السياسية باهرة، عندما أرادت حكومة جبهة التحرير الوطني الجزائري أن تدلل، في أحد المساجد بالقرب من ميناء الجزائر يوم عيد الأضحى عام ١٩٨٨، على مدى ما صارت إليه من تدين وورع. فلقد غضب الشعب بأكمله، (أو سخر)، عندما تبين له على شاشات التلفزيون أن عناصر قيادية من حزب الوحدة الاشتراكي تجهل بشكل واضح كيفية أداء الصلاة. ولم تمض سوى شهور قليلة حتى أصيبت جبهة التحرير الوطني في شهر أكتوبر بهزيمة قاسية، في انتفاضة شعبية، في حين اكتسبت الجبهة الإسلامية للإنقاذ وضع حزب شرعي.

ما يزال هناك الكثير مما يمكن قوله في هذا الصدد. ولكن حان الآن موعد انطلاق صوت الأذان منادياً عبر عشرات من مكبرات الصوت لصلاة المغرب التي تحين بغروب الشمس مباشرة، وهو أمر لا يحتمل التأجيل.

الفصل الرابع

الإفاقة من السكْر

كان أبرز مظاهر تحولي إلى الإسلام، هو رفضي المهذب لاحتساء الخمر، واختفاء زجاجة النبيذ الأحمر من فوق مائدة طعامي. ولقد ظننت في بادئ الأمر أنني لن أستطيع النوم جيداً من دون جرعة من الخمر في دمي، بل وأن النوم سيجافيني من البداية. ولكن ما حدث بالفعل كان عكس ما ظننت تماماً. فنظراً لأن جسمي لم يعد بحاجة إلى التخلص من الكحول، أصبح نبضي في أثناء نومي أهدأ من ذي قبل. كما قد نحينا لحم الخنزير عن مائدتنا إلى الأبد، بل إن رائحة هذا اللحم الضار أصبحت تسبب لي شعوراً بالغثيان.



كنت في جاهليتي الشخصية «زمن الظلام» قبل اعتناقي الإسلام، خبيراً بالخمور، حتى إنني كنت أحدد أنواع الأنبذة الحمراء المدهشة بمجرد تذوقها بطرف لساني. وكان التمييز بين أنواع الخمور «الذكورية» و «الأنثوية» أيسر منه بين الأنواع المختلفة داخل كل مجموعة منهما، حيث يتطلب الأمر بالنسبة لكل حالة تحديد الزيت الأثيري الخاص بها عن طريق التذوق. ولقد أتاحت لي الحياة الدبلوماسية، وبصفة خاصة حفلات العشاء الرسمية في ختام مؤتمرات وزراء حلف شمالي الأطلنطي، فرصة هائلة لاكتساب هذه الخبرة.

لقد «تدربت» بنشاط وجد، لأنمي وأدرب ملكة التفرقة والتمييز بين أنواع النبيذ. وفي أثناء عملي بباريس في عام ١٩٦٧، كنت في عطلة نهاية الأسبوع

أحجز عن طريق دليل ميشلان منضدة في أحد المطاعم ذات النجمة الواحدة. وكنت أختار النبيذ بوساطة الهاتف، وأطلب فتح الزجاجة على الفور، حتى يتأكسد النبيذ بدرجة كافية، ويصل إلى كامل نضجه ومذاقه عند وصولي إلى المطعم. وكنت في المساء أختار قائمة طعامي بما يناسب النبيذ، وليس العكس.

عندما كنت أشغل منصب المستشار الأول بالسفارة في بلجراد، في عامي ١٩٧٧/١٩٧٨، كنت أقيم حفلات اختبار وتذوق للنبيذ، أدعو إليها الأصدقاء. وكنت أعرض على ضيوفي كيف يمكن عن طريق سقف الحلق تحديد أنواع الكروم والتربة وطرائق القطف وطرائق التخمير والسَّنة، مستخدماً أنواعاً من النبيذ الأبيض الشفاف، كنت أجلبها من متاجر متخصصة، ومن مناطق مختلفة. وكنت «بوصفي تربوياً» أعرض أنواع النبيذ على نحو تتتابع فيه أنواع تجمع بينها صفات مشتركة، وتميز بعضها عن بعض في صفات أخرى. ولقد تطورت قدرات بعض ضيوفي، في واقع الأمر، بحيث استطاعوا بعد سابع محاولة للتذوق أن يميزوا بين أنواع النبيذ المختلفة تبعاً لمعايير مختلفة.



لقد وجدت مع ذلك أن التحريم القرآني للخمر والمخدرات[1] ليس ضرورة اجتماعية فحسب، وإنما هو أيضا منفعة شخصية للفرد، إذ يمكّنه من أن يكون متيقظاً صافي الذهن دائماً. ومن ثم، أنهيت هذه المرحلة من حياتي مرة واحدة، وإلى الأبد. فإن الإنسان، بفضل قدرته على التفكير وإعمال عقله، يفاخر بأنه أعظم المخلوقات. فنحن البشر نستطيع أن نمعن التفكير في العالم من حولنا وفي

(١) خطوات تحريم المخدرات، انظر هلموت جتيه: «القرآن وتفسيره» شتوتجارت (١٩٧١) ص ٢٦٤، ص ٢٧٦.

أحوالنا، وأن نتصرف بحكمة. وهذه الصفات التي ترقى بنا، هي الصفات ذاتها التي ندمرها على نحو منتظم بتعاطي الخمور والمخدرات. ونحن بذلك نمتهن أنفسنا ونحط من قدرنا داخل المنظومة الكونية، وننحدر بالتالي إلى مكانة أدنى من مكانة الحيوانات، التي لا يغيب عنها وعيها أبداً. فإدمان تعاطي الخمور والمخدرات نوع من التشويه الذهني الذاتي. وكانت مديرة منزلي الصربية في بلجراد مثالاً منذراً لي، إذ كانت تعود دائماً إلى إدمان الخمر، حتى بعد علاج مدة طويلة.

إن مشهد مدمني تعاطي الخمر مشهد مهين، يبعث على الاكتئاب، ويثير الشفقة. وكثيراً ما يقدم هؤلاء على الانتحار. وهم يعلمون حقيقة حالهم، ولكنهم لا يستطيعون الرجوع عما هم فيه، لأن الخمر سلبتهم العزيمة والإرادة والقدرة على اتخاذ القرار.

من النادر أن تجد عدد مدمني الخمر في المجتمع الأحدث في المدن التركية الكبيرة أقل من عددهم في ألمانيا. فهم يمسكون - من وقت الظهيرة - بكأس الراكيا في يد، وبالسيجارة في اليد الأخرى، مبرهنين بذلك على أنهم لم يعودوا سادة أنفسهم. وهم، من الناحية الدينية، يمارسون بذلك نوعاً من «الشرك بالله»، لأن الخمر ونيكوتين الدخان أهم عندهم من كل ما عداهما في العالم بمن في ذلك ربهم الذي خلقهم. فهم يستطيعون - في ظنهم - أن يعيشوا من دونه، ولكن ليس من دون الراكيا.

يهدف القرآن من وراء التحريم المطلق للخمر إلى منع البدء في تعاطيها، حيث لا يبدو ضاراً في حالة احتساء كأس واحدة. فالكأس الواحدة التي لا تبدو خطيرة في الظاهر يمكن في يوم ما أن تصبح كؤوساً عديدة. ومن المعتاد ألا يرى المدمن

أنه معرض للخطر، وأن يقدِّم مالا حصر له من الأعذار والحجج لتسويغ اعتياده التدخين أو احتساء الخمر، في هذا الوقت بصفة خاصة، ومن ذلك كون المدمنين سعداء أو تعساء، يعانون من ضغط العمل أو في إجازة منه، جماعة أو فرادى، مرضى أو أصحاء، جوعى أو شبعى.

لقد واجهت بوصفي رئيساً مسؤولاً هذه المشكلة. فكنت، عندما أنبه أحد العاملين معي حتى قبل احتسائه الخمر بيوم واحد، كنت أُعَدُّ معتدياً على حقه في أن يعبر عن شخصيته بحرية (وأواجه بذلك مشكلة مع مستشار شؤون العاملين). ومع ذلك، كان مستشار شؤون العاملين نفسه يستطيع أن يتأكد في اليوم التالي أن الموظف المعني صار في واقع الأمر مدمناً للخمر. ومن ثم، فإنه يعد رسمياً من هذه اللحظة مريضاً بإدمان الخمر.

إن من لا يتعاطى الخمر، إذا وُجد بين سُكارى، سرعان ما يكتشف أنه في مكان خطأ، إذ يرى هؤلاء أنفسهم ظرفاء ومبدعين وقادرين على التخيل. ولقد استطعت أن أثبت لنفسي عكس ذلك تماماً، عندما قمت بعزف مقطوعات موسيقية بذاتها على إحدى الآلات النحاسية وتسجيلها ثلاث مرات. وكنت بين المرة والأخرى أحتسي كأسين من ويسكي البربون من النوعية المفضلة لدي. وكان توقعي أنّ عزفي سيكون أفضل في كل مرة أحتسي قبلها الخمر، لكن جهاز التسجيل كشف الحقيقة الصاعقة!

شعرت بخجل شديد من سلوك بعض مواطنيَّ ونحن على متن إحدى طائرات شركة لوفتهانزا، في طريقنا إلى جدة.. فكنا كلما اقتربنا من السعودية بمناخها الشديد الجاف، ازداد طلبهم، وبإلحاح شديد للخمر حتى إنهم طلبوا من المضيف

أربع زجاجات في وقت واحد - كما لو أن المرء يستطيع أن يجتر الخمر بعد ذلك كالجمل. ولقد كان مشهدهم مخزياً، وهم يغادرون الطائرة حاملين في أيديهم شجرة عيد الميلاد مغلفة بالبلاستيك، ويترنحون من السكر.

أثبتت لي هذه الوقائع أنه قد لا يكون هناك عائق في طريق انتشار الإسلام في ألمانيا أقوى من التحريم القرآني للخمر (ولحم الخنزير). فلن يتنازل الألماني في بافاريا ولا في كولونيا عن طعامه المفضل من لحم الخنزير، ولا عن خمره المفضلة.

لقد نظم ليسنج في القرن الثامن عشر قصيدة ساخرة في هذا الصدد، بعنوان «الأتراك»، يتغنى فيها بجمال الفتيات التركيات، وبحق المرء في تعدد الزوجات إذا أراد، ورغبته بالتالي في أن يكون تركياً. ولكنه سرعان ما يعدل عن هذه الرغبة، ويصرح بأنه لا يريد أن يكون تركياً لأن الأتراك لا يشربون الخمر. وما كان يمكن أن يكون مجديًا لليسنج على الإطلاق أن يصير تركياً، وإن كان الأتراك يتعاطون الخمر الآن، و يعاقب القانون في تركياً حالياً على تعدد الزوجات.

إن المسلم، بتناوله كوباً من الماء أو العصير بين أناس يحتسون الخمر، يفسد عليهم بهجتهم، لأن ما يفعله ينطوي على عقاب معنوي لهم. لذلك، أصبح من النادر بعد اعتناقي الإسلام أن نُدعى، أنا وزوجتي، إلى حفلات خاصة أو إلى حفلات رقص، وكأن المرء لا يسعد إلا بالخمر، وهكذا، أصبحنا معزولين«منبوذين».

كثيراً ما يساق اختلاف البيئة المناخية حجةً ضد التحريم الإسلامي للخمر ولحم الخنزير في مجتمعنا - (يقصد المجتمع الألماني) - بدعوى أن هذا التحريم لا يناسبه مناخياً. وهذه حجة تفتقر إلى المنطق. فالحقيقة أن أضرار الخمر في العصر

التكنولوجي أكبر بكثير منها في القرن السابع، حيث كان أقصى ما يمكن أن يحدث للمخمور هو أن يسقط من فوق صهوة جواده، أو أن يعتدي بالضرب على زوجته وأطفاله، أو أن يقطع أوتار ساق الجمل. (كان وقوع حدث شرير من هذا القبيل مناسبة لنزول إحدى آيات تحريم الخمر في القرآن)[1].

وما يزال النساء والأطفال يتعرضون اليوم للضرب تحت تأثير الخمر، وكذلك تسقط الطائرات اليوم تحت تأثير الخمر. ولقد تسبب قائد إحدى الناقلات البحرية تحت تأثير الخمر في وقوع أسوأ كارثة بيئية حتى الآن. وعلى الرغم من توافر إحصاء عن حوادث الطرق وحوادث المصانع، فإنه لا يمكن تقدير الخسائر البشرية والمادية التي تصيب المجتمع الغربي بسبب إدمان الخمر والمخدرات. وفي بعض المستشفيات التركية، تتجاور أقسام علاج الإدمان وأقسام علاج الأمراض العقلية، لما ينطوي عليه ذلك من إنذار، إن عاجلاً أو آجلاً. هذا إذا ما دمر العقل قبل أن يتوقف الكبد عن أداء وظائفه.

لقد كنت واحداً من ضحايا حوادث المرور التي تقع تحت تأثير الخمر. ففي نهاية عام دراسي في كلية الاتحاد بشينيكادي بولاية نيويورك، قمت بجولة في الولايات المتحدة «بطريقة الأوتوستوب»، (أي إيقاف السيارات والانتقال بها مجاناً من موقع إلى آخر). وفي أثناء هذه الجولة، تعرضت يوم ٢٨ من يونيو عام ١٩٥١ لحادث سيء بالقرب من هولي سبرنجز (بولاية مسيسيبي). فبينما كنا في طريقنا على الطريق السريع من أتلانتا (بولاية جورجيا) إلى ممفيس في ولاية مسيسيبي، ظهر أمامنا ونحن على مقربة من غايتنا شبح. ولا أتذكر شيئاً عما حدث بعد ذلك. ولكني علمت فيما بعد أن هذا الشبح لم يكن سوى سيارة

(١) سورة ٢ آية ٢١٩، سورة ٤ آية ٤٣، سورة ٥ آية ٩٠.

اصطدمت بنا، كان سائقها ومرافقه قد احتسيا كميات كبيرة من الخمر في تنيسي، التي تسمح باحتسائه في أثناء القيادة، قبل أن يتوجها إلى مسيسيبي التي تمنع احتساءه في أثنائها. وكانت خسائرنا أقل فداحة من خسائرهم، لأننا كنا نركب سيارة شيفروليه مصنوعة في عام ١٩٤١، أي قبل الحرب، وكانت أشد متانة من السيارة التي كانوا يركبونها وهي شيفروليه من إنتاج عام ١٩٤٣، أي في أثناء الحرب.

ولقد تبين لي بوضوح أن ذراعي المصابة الآن، والتي كنت أضعها على وسادة المقعد الخلفية، قد وقتني مما هو أكثر. وكان من الواضح أيضاً أنني ما كنت لأنجو لو أن قامتي كانت أقصر بمقدار ثمانية سنتيمترات فقط، لأنني كنت سأنكفئ في هذه الحالة على أنفي وعيني بسرعة نحو ١٦٠ كيلو متراً في الساعة. ومع ذلك، كانت خسارتي في هذا الحادث تسع عشرة من أسناني. وبعد انتهاء الجراح من خياطة ذقني وشفتي السفلى، سألني قائلاً: إنه من الممكن إصلاح وجهي بعد سنوات عن طريق إجراء عملية تجميل. وأضاف قائلاً: إن «مثل هذا الحادث لا ينجو منه في الواقع أحد، وإن الله يدخر لك يا عزيزي شيئاً خاصاً جداً».

ولقد كنت أفكر في هذا الأمر، وأنا أتجول في هولي سبرنجز بذراع مربوطة وضماد يحيط بالذقن وفم مخيط. وكنت أفكر أيضاً فيما أرفّه به عن نفسي في يوم عيد ميلادي العشرين. ولكن كل شيء كان يؤلمني.. تناول الطعام أو الشراب، أو التنزه، أو الإجابة عن الأسئلة. وأخيراً ذهبت لأقص شعري، فهذا على الأقل لا يؤلم. ولم أدرك المغزى الحقيقي لنجاتي وبقائي على قيد الحياة إلا بعد ثلاثين سنة، عندما أشهرت اعتناقي للإسلام.

الفصل الخامس

اختبار الجَلَد

بعد بضعة أشهر من اعتناقي الإسلام، حل شهر الصيام، شهر رمضان، وهو الشهر التاسع بين أشهر السنة الهجرية. وكنت أنتظر حلوله بشيء من القلق والخوف، لأنه اختبار صعب لجَلَد المسلم وقوة احتماله، يجسد قمة وعيه وصحوته. ففيه ينبغي عليّ أن أمتنع مدة ٢٩ أو ٣٠ يوماً من الفجر إلى غروب الشمس عن الطعام والشراب والتدخين ومعاشرة الزوجة، ولكن مع ممارسة عملي كالمعتاد[١].

عرفت الصيام أول مرة في عام ١٩٧٧، على متن إحدى طائرات شركة الخطوط الجوية اليوغسلافية JAT المتجهة من بلجراد إلى إسطنبول. فلقد لاحظت أن يد جاري في الدرجة الاقتصادية لم تمتد إلى الطعام إلا بعد رفع آنية طعام بقية الركاب، وعندما حان موعد الإفطار الذي كان يتابعه بالنظر إلى ساعته من حين إلى آخر. وفي أثناء إقامتنا في بلجراد، كنا كثيراً ما ندعو رمضاني رمضان، البستاني الذي يرعى حديقتنا، إلى طعام الإفطار، إذ كان يثير شفقتنا بإصراره الشديد على الصيام. فلقد كان يمتنع تماماً عن تناول أي طعام عندما يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. ولقد قمت بصيام أسبوع من قبيل التعاطف معه. ومع ذلك. فإن المرء لا يتعلم صيام ٣٠ يوماً إلا بصومها فعلاً.

في بون، كان من بين المهام الموكولة إليّ إقامة حفلات عشاء لضيوف أجانب. وكان عدم مشاركتي لهم الطعام يثير حرجاً شديداً: فهل أعاني توعكاً في

(١) لتفاصيل أخرى، انظر «الصيام»، منشورات المركز الإسلامي بميونخ عدد ٥، ميونخ (١٩٧٨).

معدتي؟ أم إن الطعام الذي طلبته لهم بنفسي لا يرقى إلى مستواي؟ وفي مثل هذه المناسبات، كنت أتذكر السهولة التي كان يمكن بها الاعتذار عن عدم تناول العصير أو القهوة التركية التي كانت تقدم لي في وزارة الخارجية اليوغسلافية في شهر رمضان. وفي واقع الأمر، فإن صيام رمضان لا يصبح مناسبة تسعد المرء على مدار العام كله إلا عندما يكون في محيط مسلم، حيث يكون شهراً مشبعاً تماماً بالروحانيات.. شهر سلام داخلي وإخاء.

يشتمل الصوم في الإسلام، مثل كل العبادات، على مكونات مادية وأخرى معنوية، لا ينفصل بعضها عن بعض. ويبدأ الحرمان البدني بامتناع المرء عن تناول قهوة أو شاي الصباح. وينخفض السكر في الدم في أثناء النهار، حتى ليكاد المرء يصاب بالإغماء. ويسهل على المرء، من ناحية أخرى، أن يعرف كيف يعمل نظامه البيولوجي. فبالنسبة لي، هناك على سبيل المثال وقتان للنشاط الوفير في النهار، هما: الساعة الحادية عشرة والساعة السادسة عشرة بعد الظهر. ولقد استفدت من ذلك على نحو نظامي، حيث وزعت عملي اليومي تبعاً له إلى ما ينبغي، وما يجوز، وما يمكن عمله.

وكانت المجموعة الأولى من الأعمال هي ما أقوم بأدائه بقدر الإمكان عندما يستفيد ضغط دمي من الذروة البيولوجية المخططة. فكنت أحاول أن أقود سيارتي مسافة ١٣ كيلو متراً في طريقي من مقر قيادة حلف شمالي الأطلنطي إلى مسكننا في إكسيل، وأنا في أوج نشاطي. وكنت أزيد من حذري حتى لا أعرض نفسي أو غيري للخطأ. في شهر رمضان، تزداد بالفعل حوادث المرور وبصفة خاصة عندما يحاول أرباب الأسر اللحاق بالإفطار في منازلهم. ولقد لقي خمسة من مواطنينا من ألمانيا الشرقية سابقاً حتفهم بالقرب من القنيطرة يوم ٢٥ من فبراير

١٩٩٣ ، ثالث أيام شهر الصوم ، عندما حاول سائق سيارة نقل أن يتجاوز الحافلة التي يستقلونها ، فصدمها ، فانقلبت بهم . وأرجع الحادث إلى ضعف تركيز قائد السيارة بسبب الصيام .

واليوم الثالث من أيام الصوم يوم عصيب ، يكون فيه المرء في أسوأ حالاته ، ويصاب بصداع شديد تز داد حدته إذا ما استلقى ليسترخي . ومع ذلك ، يبدأ جسدنا بقدرته الهائلة على التكيف في التأقلم منذ هذه اللحظة مع المعطيات الجديدة ، فتخف حدة الصداع والإحساس بالجوع ، ويستطيع المرء أن يرى مَنْ يتناول الطعام دون أن يحسده . ومع أنني كثيراً ما أشعر في المساء بأنني قد أنقصت ولا أستطيع القراءة ، وأجلس أمام شاشة التلفزيون بلا إرادة ، فإنني لا أشعر برغبة في الطعام وخاصة اللحوم .



يعلن عن نهاية يوم الصوم في العالم الإسلامي بإطلاق مدفع ، وعندئذ يتناول المرء بعضاً من الماء أو من العصير ، وعدداً فردياً من التمر أو الزيتون ، ثم يؤدي صلاة المغرب شاكراً لله أن أعانه على صيام اليوم . ويبدأ تناول وجبة الإفطار في كل من الجزائر والمغرب بتناول شاي بالنعناع الأخضر ، وحساء داكن اللون هو شورية الفريك الجزائرية ، والحريرة المغربية التي يختلف مذاقها إلى حد ما من منزل إلى آخر ، إلى جانب بيضة مسلوقة وتمر بالعسل ، الذي كان طعام الرسول ﷺ المفضل . وسرعان ما ينتعش الجسد مرة أخرى . وبعد توقف قصير ، يتناول المرء وجبة كاملة من اللحوم ، وفي المغرب من الدجاج ، ولحم الضأن المشوي ، والكسكي باللحم البقري ، وحلوى وفواكه . وكان كل ذلك يتم للأسف بسرعة

حتى إنني أعود إلى منزلي في الساعة التاسعة من دعوات للإفطار في الساعة السابعة والنصف.

يختلف مفهومي عن رمضان، المبني على اتباعي للسنَّة، عن الكيفية التي يُمارس بها في بعض البلدان الإسلامية، ومن بينها المغرب. فالناس يميلون إلى أن يعوضوا في الليل ما فاتهم في النهار، فيشاهدون التلفزيون، ويلعبون الورق (الكوتشينة)، ويحتسون الخمر أحياناً، حتى منتصف الليل، حيث يتناولون وجبة ثالثة (السحور). ومن ثم، لا يأخذ كثيرون من الجزائريين والمغاربة قسطاً كافياً من النوم، بل إنهم لا يتمتعون في الساعات القليلة التي يخلدون فيها إلى النوم بنوم مريح من فرط إتخام معداتهم بالطعام. ويترتب على ذلك، أنهم لا يلحقون بصلاة الفجر، وبصفة خاصة في رمضان. ولا يفيدون بشيء في ضحى اليوم التالي. ومن شأن هذا أن ينمي الاتجاه الغريب نحو استبدال الليل بالنهار في رمضان.

وفي واقع الأمر، يرتفع كثيراً استهلاك الأغذية في هذه البلدان في رمضان، بدلاً من أن ينخفض. أما ما ينخفض بالتأكيد، فهو إنتاجية العمل. ويؤثر رمضان على الإنتاج القومي في هذه البلدان، كما لو كان مدة إجازة ثانية. لذلك، فليس غريباً أن يعلن رؤساء علمانيون عرب أن بلدانهم النامية لا تستطيع أن تحتمل «كسل» رمضان.

أما ما أراه عبثاً، فكان دعوتي من قِبَل شخصيات رفيعة المستوى إلى تناول طعام الإفطار باستخدام أدوات مائدة مصنوعة من الذهب، وكذا أن يبدأ المسلم تناول الطعام بقول: «Bon Appetit»، أي «شهية طيبة»، بدلاً من قول «باسم الله» على طبق طعامه المليء بخيرات البحر، وقبل أن يؤدي صلاة المغرب. ولقد

بدا لي دائماً أنه من غيـر المنطقي أن يصـوم من لا يصلي. ولكن هذا السلوك يكشف عن حقيقة أن صوم رمضان أصبح يمارس في أقسام من عالم المسلمين على نحو يجرده من مغزاه الديني، ويجعله جزءاً متحرراً من المدنية، وهذا يفسر أيضاً السلوك الغريب من جانب بعض المسلمين إذ يمتنعون عن تناول الخمور في شهر رمضان، باعتباره شهر إسلام مقابل أحد عشر شهرا للراحة من الإسلام. .



يمضي يومي في رمضان في الفترة من ١٩٨٧ إلى ١٩٩٤ على نحو مختلف تماماً. فأنا آوي إلى فراشي بعد صلاة العشاء، أي نحو الساعة الحادية عشرة، وأضبط المنبه على الساعة الثالثة والنصف أو الساعة الرابعة صباحاً، لأستيقظ قبل بداية الصوم بنحو ٤٠ دقيقة كي أتناول، قبل انطلاق مدفع الإمساك، طعام السحور وأشرب كثيراً من الماء. وبعد ذلك، أقضي ما تبقى من وقت حتى الفجر في قراءة القرآن. وبعد صلاة الفجر، أنام ساعتين. وكان العمل في سفارتي يبدأ متأخراً ساعة عن المعتاد. وكنت أنجز بالفعل أكثر مما أنجز في الأيام العادية، وخاصة أن العمل يشغل عن الإحساس بالمعدة الخالية. وكنت في رمضان أجلس في مآدب غداء العمل الدورية التي يقيمها زملائي من البلدان أعضاء الاتحاد الأوربي وأمامي طبق خال. وكان زميلي الفرنسي في الرباط السيد دي كونياك يشاركني سلوكي «تضامنا» منه مع أبناء البلد المضيف، كما كان يقول، وهذا يعد تصرفاً سياسياً بارعاً.

كان يوم عملي في رمضان ينتهي عادة بحضور دروس دينية «دروس الحسنية» في القصر الملكي بالرباط. وكانت الحكومة المغربية بأكملها، وهيئة الأركان العامة، وعلماء المسلمين، وسفراء الدول الإسلامية، يجتمعون يومياً، ابتداء من

الساعة الخامسة بعد الظهر في القصر الملكي. وكنا نستمع إلى تلاوة قرآنية إلى أن يصل الملك والأمراء. وكان من يلقون الدروس محاضرين مدعوين من جميع أنحاء العالم الإسلامي، من بينهم مسلمون أمريكيون، وأعلام كالشيخ طنطاوي من القاهرة. وكانو ا يجلسون على المنبر التقليدي، في حين يجلس الملك مثلنا جميعاً عند أقدامهم في مربع حولهم.

كنت أنا وزملائي المسلمون نتناوب الدعوة إلى طعام الإفطار نحو الساعة السابعة مساء. وعندما كان دوري يحين، كان بهو مقر إقامتي في سُويْسي الواقع بين غرفة الاستقبال وغرفة الطعام يتحول إلى مسجد، حيث كانت أرضه تُغطى بسجاد صلاة. ولقد صارت العلاقات والصلاة التي أقمتها في هذه المناسبات مع بعض من أعضاء الحكومة ومن مستشاري جلالة الملك ذات طبيعة دائمة وقوية بمرور الوقت.

ومن المعتاد، أن أفقد بانقضاء شهر الصوم ما يتراوح بين ٥و٨ كيلو جرامات من وزني. وبتعبير أدق: فإنني أقترب من وزني المثالي.



ينطوي الصوم، إلى جانب بعده المادي، على بعد روحاني يصير من دونه مجرد حركات تجويع بهلوانية. وشهر رمضان شهر مُعظم، لما له من أهمية في تاريخ العالم. فلم يشهد رمضان موقعة بدر (عام ٦٢٢م) ذات الأثر الحاسم في بقاء وتثبيت المسلمين الأوائل فحسب، وإنما الأكثر أهمية من ذلك أن فيه ليلة القدر التي بدأ فيها نزول الوحي بالقرآن. وعن هذه الليلة أحادية الرقم التي تقع بين الليالي الأخيرة من رمضان[1]، يقول الله في السورة ٩٨: بسم الله

(١) يبدأ اليوم الإسلامي بغروب الشمس.

الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

هذا نص يصلح للتأمل والتفكر.

لقد جرت العادة على اعتبار ليلة السابع والعشرين من رمضان ليلة القدر. وتشترك ليلة القدر مع ليلة عيد الميلاد، وإن يكن عن بعد، في أن المرء يُهدي فيها (إخراج زكاة الفطر). كما يقام فيها - كغيرها من ليالي رمضان - صلاة التراويح، وتكثر تلاوة القرآن والموشّحات والأدعية. ومن ثم، فما لم يدرك المرء في هذه الليلة مغزى الرسالة والوحي، فمتى عساه يدركه؟!

وصوم رمضان فرض على المسلمين. ومن يعدونه عبادة، بوصفه "أحد أركان الإسلام الخمسة التي لا تحتاج إلى تسويغ مقنع. فالمسلم، بوصفه عبدا لربه، يصوم لأنه أمره بالصوم. فالطاعة هنا واجبة. ويستطيع المرء أن يكتشف بسهولة أن هذا الفرض لم يفرض لله، وإنما فرض من الله للناس.

منذ أن عادت رشاقة القوام لتصبح زيًا سائداً، راح النساء يتبعن نظما للتغذية تُذكِّر بالصوم، كما يمكن أن تؤدي إلى نحافة مَرَضية. ومع كثرة الحديث في الآونة الأخيرة عن أضرار الكوليسترول والوزن الزائد، ظهرت عروض مختلفة لبرامج التخسيس أو إنقاص الوزن.

ومن ناحية الصوم الإسلامي، فإنه يفي بهذا الغرض وزيادة. فهو يؤدي، على سبيل المثال، إلى إذكاء الإحساس الاجتماعي حيث يشعر الصائم مرة واحدة على الأقل في السنَة بما يشعر به من يرغم على الصوم في العام كله، بسبب ما يعانيه من شح في الغذاء أو المال.

وبالنسبة لي، لعل أهم أثر جانبي لصوم رمضان فيّ، أنني أستطيع - في رمضان - أن أختبر ما إذا كنت ما أزال سيد نفسي أم أنني صرت عبداً لعادات تافهة، وما إذا كنت ما أزال قادراً على التحكم في نفسي أم لا. وأتمنى أن يكون فرحاً وليس غروراً ذلك الذي أشعر به بعد انتهاء آخر أيام رمضان، أي عند صلاة المغرب، من أنني استطعت بعون الله أن أصومه.

ولكن، من ذا الذي يستطيع أن يقول لي بثقة: متى يبدأ رمضان؟ ومتى ينتهي؟ ولقد يقول المرء: إن تحديد متى وأين يظهر الهلال الجديد أمر فلكي هين في أيامنا. وهو بالفعل كذلك. ومع ذلك، فمن المخزي أن يظل مسلمو الأرض مختلفين في أيام بدء وانتهاء صومهم، تبعاً لكونهم أتراكاً أو مغاربة أو سعوديين. وهذا أمر من شأنه أن يضر بالصوم بوصفه حدثاً جماعياً، وأن يعرض المسلمين لسخرية الآخرين.

ويرجع هذا الاختلاف إلى سببين: أولهما، أن الأمة مجزأة إلى دول قومية، ولا يكفي التركي أو المغربي أن يعرف أن رؤية الهلال ثبتت في مكة، إذ لابد بالنسبة لكل منهما أن تثبت رؤيته في قونية أو فاس. ويترتب على ذلك اختلاف في تحديد يوم بداية ويوم نهاية شهر رمضان، لأن الترتيب الوضعي بين الشمس والأرض والقمر يختلف في كل بقعة من الأرض عنه في غيرها. ويتباين الاختلاف في موعد ظهور القمر في يومين متتاليين عن الاختلاف فيهما في موعد شروق الشمس، فيبلغ دقيقتين في شروق الشمس، في حين يبلغ خمس عشرة دقيقة في ظهور القمر[1].

أما السبب الثاني، فيدركه الفقهاء على نحو أفضل. فلقد جرت العادة في

(١) انظر G.S.P. Freeman - Grenville: التقويان الإسلامي والمسيحي، الطبعة الثانية (١٩٩٥).

عصور الإسلام الأولى على أن تثبت رؤية الهلال بالعين المجردة، وليس بالحسابات الفلكية أو بالتنبؤات، وهو ما لم يمثل فيما مضى ولا يمثل اليوم أي مشكلة، بفضل الظروف المناخية في شبه الجزيرة العربية، واستناداً إلى ذلك، يرى بعض الفقهاء المتشددين أن رؤية هلال رمضان بالعين المجردة من شخص موثوق به تقليداً ضرورياً لا غنى عنه، وأن الحسابات الفلكية غير كافية في هذا الشأن. ويعادل رفض التواريخ الفلكية عدم الأخذ في قانون العقوبات بدليل مبني على أساس غير قانوني[1].

يتمسك المتشددون بالإجراءات الموروثة لتحديد بداية الشهر القمري، حتى وإن حالت الظروف المناخية دون رؤية الهلال الذي يكون موجوداً بالفعل. ويمكن أن يترتب على ذلك، كما حدث في عام ١٩٩٤، أن يفطر المرء في المغرب متأخراً يومين عنه في السعودية. وعندما نقلت الاحتفالات بعيد الفطر في مكة، عبر وسائل الإعلام. في ثاني أيام الصوم الزائدة في المغرب عنها في السعودية، رأى بعض البسطاء في المغرب أن هذا الاختلاف أمر مخز ومشين!! أليس من الممكن حقاً أن تُوحد مواعيد شهر الصوم في أنحاء العالَم الإسلامي كافة بناءً على الحسابات الفلكية بالقياس إلى مكة، أسوة بما هو متبع في حالة تحديد مواقيت الحج، ومن ثم أيضاً عيد الأضحى؟!

وعندما يتناول المرء يوم عيد الفطر أول قدح من القهوة، في أول إفطار منذ ٢٩ أو ٣٠ يوماً، يشعر بألذ مذاق. وعند صلاة العيد في المسجد، لا يلتقي المرء إلا بأناس تشع منهم إشراقة داخلية. ولعل مما يبدو غريباً، وإن كان حقيقة، أن يشعر المرء بالجوع عند الظهر لأنه تناول طعام الإفطار، في حين ينسى طعام الغداء في رمضان على الرغم من أنه لم يتناول طعام الإفطار.

(١) انظر عبد الحميد بنتشيكو: «مواقيت الإسلام»، (باللغات الإنجليزية، الفرنسية، العربية) (١٩٩١).

وهكذا تعود الأيام سيرتها الأولى .

إنني أحتفظ لنفسي بما أسميه «مفتاح رمضان» . فعندما تكون هناك ضرورة ، بين الحين والآخر ، على مدار العالم ، لترك وجبة أو وجبتي طعام ، أضغط ذهنياً على هذا المفتاح الذي يعيدني نفسياً إلى رمضان بالوضع نفسه والشعور نفسه . وسرعان ما أحتمل جوعي ، ولا أعيره اهتماماً .

إنني أترقب رمضان المقبل بسعادة غامرة ، حتى وإن لم يصدقني في ذلك أحد .

الفصل السادس

مع مسلمين حول مائدة الطعام

إذا كنا تحدثنا فيماسبق عن الصوم أو الامتناع عن تناول الطعام، فلقد آن لنا أن نؤكد أن المسلمين لا يأكلون فقط، وإنما يحق لهم أن يأكلوا باستمتاع وتلذذ كل ما هو صحي، وهذا يعني كل شيء ما عدا لحم الخنزير (والخنزير البري أيضاً)، والميتة ومنتجات الدم مثل السجق المصنوع من الدم، ومشتقات الخنزير: كالحلوى التي يدخل شحم الخنزير في صناعتها، وكذا الحلوى التي تحتوي على خمور.

ومن الخطأ تصور أن تحريم القرآن لتناول لحم الخنزير إنما يعود إلى أسباب مناخية فقط، أو إلى عدم القدرة على التعامل مع الدودة الشريطية في القرن السابع الميلادي. فنحن نعلم اليوم أن تناول لحم الخنزير يؤدي إلى الإصابة بسرطان الأمعاء، وبالتهاب المفاصل، وبالأكزيما والدمامل، وإلى ارتفاع نسبة الكوليسترول في الدم، وإلى الإصابة بحمى القراص بسبب ارتفاع نسبة الهستامين[1].

إن تسمية هذا الفصل باسم «مع مسلمين حول مائدة الطعام» تسمية مُضَلِّلة، لأن تناول الطعام جلوساً على الأرض، حول قطعة من الجلد دائرية أو مربعة أو بيضاوية الشكل، وليس على منضدة، لا يقتصر قط على البدو المرتحلين في الصحراء، وإنما يمارسه أيضًا بعض إخوتي المسلمين في ألمانيا. فنحن عندما نتناول طعامنا، على سبيل المثال في دار الإسلام في ليتسيل باخ في أودن فالد، نعد قطعة مماثلة من الجلد في قاعة الاجتماعات والصلاة، ونجلس أو نستلقي عليها مثلما كان الإغريق الأقدمون يفعلون، وإن كان من دون نبيذهم. وهكذا يفعل

(١) انظر Hans Heinrich Reckeweg: «لحم الخنزير والصحة»، بادن - بادن (١٩٧٧).

بعض المسلمين في الغرب تقليداً، ولو في بعض الشكليات غير المهمة، للرجل الذي يدينون له بالكثير من الفضل- محمد ﷺ - وتنطوي قطعة الجلد المشار إليها على معنى رمزي. فهي تذكرنا بأننا جميعاً بدو مرتحلون دائماً على طريق عودتنا إلى الله.

هذا السلوك في واقع الأمر سلوك عملي، إذ إن حمل ونقل هذا القطعة من الجلد أيسر كثيراً من تحريك منضدة في مسكن، أو من شحنها في سيارة. وهكذا، يمكن استغلال المكان الذي يتناول فيه المرء الطعام على رقعة (قطعة) الجلد في أغراض متعددة. ولكن ينبغي ملاحظة أنه قليلاً ما يتناول المرء الطعام واقفاً، أو جالسًا القرفصاء، أو مستلقياً فيضغط على المعدة. فالجلسة الصحية تكون بمد الساقين ناحية اليمين، مع الاتكاء على الذراع الأيسر. ومن ثم تبقى اليد اليمنى طليقة لتناول الطعام بها[1].

هناك، مع ذلك، في العالم العربي أيضاً من يتناول الطعام واقفاً كما هي الحال في تناول الطعام في محلات الوجبات السريعة في أوربا. وفي الجزائر، جرت العادة أن يتناول الناس شاة مشوية وهم وقوف حول منضدة الطعام، حيث يمكن أن تلتهب أصابع يد من يبدأ بتقطيع اللحم، الذي يُؤكل معه خبز وبصل وملح وكمّون. أما بقية البلدان العربية من المغرب إلى السعودية، فيأكل الناس الشياه المشوية وهم جلوس.

تعد التغذية السليمة، من أجل الحفاظ على سلامة الجسم، لصالح المرء نفسه ولصالح أهله، في المنظور الإسلامي فرضاً، ومن ثم عبادة. لذلك يبدأ المسلم تناول طعامه بالبسملة، أي بسم الله الرحمن الرحيم، وينهيه بالحمد، أي الحمد

(١) يستطيع الإنسان الأشول أن يأكل بيساره.

لله . وبما أن تناول الطعام عبادة، فإن المسلم لا يقطع تناوله للطعام عندما ينادي المؤذن لعبادة أخرى، هي الصلاة، طالما كان هناك متسع من الوقت لأدائها .

ولأن تناول الطعام عبادة، يحرص المرء على ألا يسرف فيه، وعلى ألا يتناول منه ما يزيد على حاجته، وعلى أن يتوقف عنه على الرغم من شعوره بأنه يستطيع أن يستمر فيه، وعلى ألا يشبع حتى الامتلاء . وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ (الأعراف : ٣١) .

ومن المفروض أن يتوقع المرء أن يأتيه ضيوف فجأة، ولذلك ينبغي إعداد طعام يكفي لعدد أكبر من عدد الموجودين بالفعل . وتقضي التقاليد الإسلامية في مثل هذه الحالات، بأن طعاماً لفردين يكفي لثلاثة أفراد، وأن طعاماً لثلاثة أفراد يكفي أيضاً لخمس . ولأن ذلك كذلك، لا يجد المرء في بلاد المسلمين حرجاً في أن يزور أحداً في وقت تناول الطعام، أي كما يقول الأمريكيون : جرب «حظك مع القدر» .

ومن كان مثلي وزوجتي، مضيفاً رسمياً في العالم الإسلامي يعرف أن المرء لا يستطيع أن يتوقع بدقة عدد من سيأتيه من ضيوف على مائدة العشاء، فمن المحتمل أن يتخلف عدد غير قليل من المدعوّين عن الحضور، بعد أن يكونوا قد أكدوا أنهم سيحضرون . ومن المحتمل أيضاً أن يحضر عدد من الضيوف يزيد كثيراً عن عدد الذين وجهت إليهم الدعوة وقد يسبب حرجاً للمضيف وللضيوف على السواء .

بسبب مثل هذه المواقف، التي تسهم في إظهار العربي في صورة المهمل، كنا نتجنب بقدر المستطاع توجيه دعوة إلى تناول طعام العشاء جلوساً حول منضدة،

وفق ترتيب معين إلى نحو ٢٤ شخصاً. وبدلاً من ذلك، كنا نفضل أن ندعو إلى تناول طعام العشاء في بوفيه مفتوح يصل إلى ٨٥ مدعواً ينتشرون على كثير من المناضد صغيرة الحجم موزعة دون ترتيب تقريباً.

لذلك يعزى تخلف ضيف عربي عن تلبية دعوة إلى تناول العشاء، على الرغم من التأكيد السابق بالحضور، إلى أسباب كثيرة غير العقبات المرتبطة بالعمل. ومن ذلك على سبيل المثال أن يكون قد استقبل ضيوفاً على نحو مفاجئ، أو أن تصر زوجته على أن ليس لديه ما ترتديه من الثياب. إلا أن ما أصابني بدهشة ألجمت لساني، كان اعتذار ضيف شرف مغربي عن عدم حضور حفل عشاء أقمته على شرفه، لأنه لم يكن يشعر بجوع. وكان هذا فيما أعتقد أصدق أسباب الاعتذار.

ولقد كنت أنا وزوجتي نلبي جميع الدعوات التي توجه إلينا، سواء أكانت دعوة من وزير أم من سائق سيارتي، أم دعوة من أميرة أم من خادمتنا. وهكذا أوصى الرسول ﷺ الذي كان يلبي حتى دعوات العبيد، ولم يجز رفض الدعوة إلا لسببين، وهما أن تؤدي الدعوة إلى استدانة الداعي، أو أن تكون لغرض التفاخر والمباهاة. ولذلك، لم أشعر بحرج لرفض دعوات كثيرة وجهت لي لحضور حفلات زفاف، لعلمي أن والد العروس يبغي المباهاة بحضوري بوصفي سفيراً.



ومثلما ينظم الإسلام نواحي الحياة كافة، فإنه كذلك ينظم آداب الطعام، وهي ما نسميه «إتيكيت»[1]. والكثير من هذه الآداب مألوف لنا، لأنها آداب معروفة

(١) أسس وقواعد الطعام وآداب المائدة واردة في القرآن: (السورة ٥ الآيات من ٣ - ٥، سورة ٦ الآية ١٤٥، سورة ٧ الآية ٣١، سورة ١٦ الآيات من ٦٦ - ٦٩، سورة ٢٤ الآية ٦١، السورة ٣٣ الآية ٥٣، السورة ٨٠ الآيات من ٢٤ - ٣٢). وكذلك أحاديث الرسول في صحيح البخاري (ترجمة م. م. =

على نطاق العالم كله، في حين بعضها الآخر خاص بالمسلمين وحدهم، اهتداءً بسلوك أتاه الرسول ﷺ فعلاً، أو تنفيذاً لتوصيات أوصى بها.

ففي بعض البيوت العربية، يستقبل الضيف بالتمور، ويساعده المضيف على خلع معطفه، ولا يتخذ مكانه في صدارة المجلس ما لم يصر المضيف على ذلك. وقبل تقديم الطعام، يتيح المضيف لضيوفه أن يغسلوا أيديهم، لأن المرء في نهاية الأمر يأكل بيده، ويحول بعض المضيفين، وبصفة خاصة في المغرب، الأمر إلى طقوس جميلة، حيث يلتف الجميع حول حوض عليه صابون، في حين يصب الماء للضيوف شخص غالباً ما يكون هو المضيف نفسه. ويتكرر ذلك مرة أخرى بعد أن ينتهي الضيوف من تناول الطعام. ويقوم المضيف بتعطير يدي الضيف عند انصرافه بماء الورد أو ماء البرتقال.

وينظف بعض المسلمين أسنانهم بالسواك، بعد الانتهاء من تناول الطعام. والسواك غصن صغير (سمكه نحو ١٥مم) من خشب لين تماماً. ولدي أنا أيضاً

= خان)، ٩ أجزاء، الطبعة الثالثة، شيكاغو)١٩٧٧)، الجزء ٧ كتاب ٦٥ (عن الطعام)، وكتاب ٦٩ (عن الشراب). وكذلك في صحيح مسلم (ترجمة عبد الحميد صديقي)، ٤ أجزاء لاهور (١٩٨٠)، الجزء ٣ في كتاب رقم ٢١ أحاديث رقم: ٥٠٣٧، ٥٠٣٩، ٥٠٩٧ و ٥١٢١.

وتجدر الإشارة كذلك إلى كتاب أبي حامد الغزالي: «إحياء علوم الدين» (ترجمة: مولانا فضل الكريم) لاهور الجزء ٣، كتاب ٣، الفصلان الثاني والثالث.

وكذلك هانز كندرمان: عن العادات الطيبة لتناول الطعام والشراب - الكتاب ١١ من العمل الرئيس للغزالي. ليدن (١٩٦٤). وأو سترروب: آداب وذوقيات شرقية: أشكال وصيغ في الإسلام. ليبزج (١٩٢٩). أما التذييب والانحطاط في بلاط الخلفاء العباسيين، فنقرؤهما في كتاب ابن الوصا: «كتاب الثوب المطرز» (ترجمة ديتربلمان، ليبزج (١٩٨٤). خاصة الجزء الثاني الفصل ٢٩ (الأخلاق التي يجب أن يتبعها علية القوم عند تناول الطعام)، والفصل ٣٠ (عن سلوك علية القوم عند تناول الشراب).

سواك حصلت عليه في المدينة المنورة. ويمتاز بأن استخدامه لا يحتاج إلى ماء ولا إلى معجون أسنان.

لكي يستطيع المرء أن يتناول طعامه بيده، يجري تجزئة الطعام إلى قطع صغيرة تغني عن الحاجة إلى السكين. ومع ذلك، تقدم اليوم أدوات المائدة كاملة، ولا يقتصر الأمر على تقديم ملعقة الحساء فقط. ولا تسمح التقاليد باستخدام أدوات مائدة مصنوعة من الفضة، لا لكونها من مادة صنع النقود فحسب، وإنما لأن أدوات المائدة الفضية ترف غير إسلامي بالنسبة لهم. (وهو ما ينبغي أن يذكر به المرء بصفة دورية في مقرات السفارات الإسلامية).



عندما يقدم الطعام، يأكل المرء مما يليه مباشرة من لحم أو حلوى أو فاكهة. ويهتم المضيف والجالسون بجوار المرء عادة بأن يجد بطبقه كل ما لذ وطاب. وكثيراً ما يملأ لي بعضهم طبقي بما لذ وطاب، دون اكتراث بمعارضتي الشديدة. ويخدم المرء نفسه، ويأكل بثلاث من أصابع يده اليمنى، هي الإبهام والسبابة والوسطى، لأن الأكل بإصبعين أمر عسير جداً، والأكل بكل أصابع اليد نهم مستهجن. وإذا لم يستسغ المرء نوعاً من الطعام فله أن يتركه جانباً ولا يأكل منه، وكان محمد ﷺ نفسه يفعل ذلك، إذ كان لا يستسيغ الطعام الذي يحتوي كثيراً من الثوم. ومن ناحيتي فإنني للأسف لا أستسيغ طعم الكمون. ومرد الأسف هنا أن لهذا الصنف من التوابل دوراً كبيراً في الشرق كله.

من اليسير على المرء أن يترك صنفاً من الطعام دون أن يتناوله، عندما تقدم الوجبة بأكملها - من المشهيات إلى الحلو - دفعة واحدة. ولقد خبرت ذلك، عندما دعاني الشيخ زايد آل نهيان إلى تناول طعام الغداء معه، حيث كانت المائدة

تبدو وكأنها تُقوّست تحت تأثير ثقل ما تحمل من طعام. وهو نفسه ما حدث عندما كنت ضيفاً على طعام الغداء يوم عيد الأضحى، على مائدة الملك فهد بمنى كما سلفت الإشارة. ومن طبيعتي أن أفقد شهيتي للطعام تماماً عندما أرى أمامي ثمار الموز أو الحلوى (تورته بالكريمة) بجوار كبد مشوي أو دجاجة محشوة بالنقل (المكسرات) وأوصال ضأن مشوية. لذلك، لم أتناول في منى سوى بضع تمرات وقطعة خبز وثمرة موز، وانحنيت نحو الملك المضيف وانصرفت.

وتبعاً لآداب الطعام عندنا في الغرب، يعد الانصراف فور الانتهاء من تناول الطعام إهانة بالغة، حيث إننا نشأنا منذ الطفولة على ألا ننصرف من حول مائدة الطعام قبل أن يأذن لنا الأم والأب. ولكن الأمر يختلف تماماً حسب العرف الإسلامي، حيث يبدأ المضيف المسلم تناول الطعام (قبل ضيوفه ليثبت لهم سلامة الطعام وعدم خطورته) وآخر من يتوقف عن تناوله. وهكذا يبقى المضيف، حتى وإن كان ملكاً، آخر من يجلس بمفرده إلى مائدته. ومن ثم، فقد كان سلوكي سليماً[1].

وربما يستطيع المرء أن يعترض بأنني كنت أستطيع على الأقل أن أجري في منى حواراً طيباً حول مائدة الغداء دون أن أتناول كثيراً من الطعام. حسناً! ولكن هذا ليس من الإسلام في شيء. فالمرء بوصفه ضيفاً في بيت مسلم يستفيض في تجاذب أطراف الحديث قبل تناول الطعام، ويتحدث قليلاً جداً في أثناء تناوله، وينصرف بعد الانتهاء منه بقليل. ومن شأن هذا النظام أن يعطي للمضيف فرصة لتحديد طول المدة التي يبقى فيها ضيوفه عنده.

(١) يتبع بروتوكول البلاط المغربي العادات الغربية لا السّنّة.

إذا كنت قد تحدثت عن موائد عامرة بأصناف وكميات الطعام، حتى لتكاد تتقوس من ثقله، فإنني لم أقصد بذلك أن الإسراف، وفي المقام الأول إلقاء الطعام في سلة الفضلات، يمكن أن يكون سلوكاً إسلامياً. بل إنه على العكس من ذلك تماماً. فالمضيفون المسلمون من دبي إلى مراكش يعدون أن من واجبهم إكرام الضيف وتدليله. وعلى أي حال، فهناك، خلف الكواليس، جيش كامل من العاملين ومن الفقراء مستعد لتلقي ما يتبقى من الطعام.

تمثل الحفاوة البالغة بالضيف في الشرق مشكلة لمن يزوره من الرسميين الألمان، لأن اللوائح المالية لجمهورية ألمانيا الاتحادية الغنية لا تسمح لممثليها - سواء أكان رئيساً اتحادياً أم وزيراً أم مندوباً - أن يرد المعاملة بالمثل. ولا يعود ذلك فقط إلى رقابة ديوان المحاسبات الاتحادي علينا، وإنما هو أيضاً نتاج لعملية وئيدة الخطى للتحول إلى أقاليم، ولإشاعة البيروقراطية، وللفرز البروليتاري على نحو أفقدنا القدرة على أن نحتفل وأن نستضيف بكرم وحفاوة وأناقة.

ولقد قدم المغرب الفقير، باستضافته مندوبي عالم المال بأكمله في مؤتمر الجات بمراكش في إبريل عام ١٩٩٤، المثل على مدى أهمية كرم الضيافة في التقاليد الإسلامية. ولقد انصرف بعض المندوبين الغربيين، يسيطر عليهم شعور بالخزي، من ضيافة الأمير محمد ولي العهد الذي استضافهم استضافة ملوك في خيمة تغطي أرضيتها بُسُطٌ فاخرة، قدمت لهم في أثنائها ألعاب نارية.



بعد وصف الكيفية التي يجري بها تناول الطعام في العالم الإسلامي، يأتي الآن عرض للأطعمة التي يتناولها الناس هناك. والمطبخ الإسلامي، مثله مثل الفن الإسلامي، يتعرف عليه المرء للوهلة الأولى على الرغم من تنوعه الشديد.

ويرجع هذا التنوع الشديد إلى أن كل مجموعة قومية، من موريتانيا إلى بلوخستان، لها وجباتها القومية الخاصة بها، والتي تسهم بها في هذا المطبخ. وفي موسم الحج، تتحول مكة إلى بوتقة يتحقق فيها انصهار مثالي لمطبخ إسلامي. ويتمثل القاسم المشترك في هذا المطبخ في سيطرة المطبخ التركي الذي يعد، إلى جانب المطبخين الصيني والفرنسي، أحد أشهر وأشهى ثلاثة مطابخ في العالم. ويمكن للمرء في الواقع أن يحدد درجة تأثر المطابخ القومية المختلفة، كالمطبخ المصري والسوري، واللبناني، بالمطبخ التركي.

تشترك كل هذه المطابخ في كونها مثالاً جيداً للعادة التركية المتمثلة في بدء تناول الطعام بتناول عدد لا حصر له من «المشهيات» (المزة) سهلة الهضم، الباردة أو الدافئة، كالخضراوات، والسَّلَطَة، والفواكه، والبطيخ، والكبد، والمخ، والزبادي، وورق العنب المحشو، وفاصوليا حمراء، وسلطة خيار... إلخ ولقد تبينت زوجتي في أثناء جمعها وصفات (الأطعمة كثيفة العمل اليدوي) أن المشهيات تزيد على الوجبات الرئيسية في العالم الإسلامي بصفة عامة[1].

لقد جرت العادة في بلاط الخلفاء والسلاطين والأمراء أن يقدم الطعام في تتابع يأتي الحساء في نهايته، ويجري تناول قدح من شراب الفواكه بين الوجبات الرئيسية المكونة من السمك واللحم[2]. ولكن الأمر يختلف عن ذلك في العالم

(١) كانت النتيجة مسودة لم تطبع بعد بلين هوفمان: المطبخ الإسلامي ١٥٠ أكلة من المغرب والمشرق وتركيا.

(٢) لقد رأى الفيلد مارشال هلموت فون مُلتكه عادات الأكل هذه وغيرها في أثناء خدمته مستشاراً عسكرياً للسلطان العثماني. ولقد قام بوصفها بدقة. انظر: هلموت فون مُلتكه: «في ظل الهلال. وقائع وأحداث في تركيا القديمة ١٨٣٥ - ١٨٣٩» توبنجن (١٩٧٩) ص ٨٥، ص ١٠٥، ١٣٦، ١٦٠، ١٦٢، ١٨١، ٢١٦، ٢٢٧، ٢٧٣، ٢٩٢.

العربي اليوم، إذ يهاجم المرء الضيف بأطباق متوالية من اللحم ظناً من المضيف أن طعامه يخلو عادة من اللحم.

يعلم الجميع أن الإسلام ليس ديناً نباتياً. ولكن ربما لا يعلم إلا القليلون أنه محرم على المسلمين أن يأكلوا لحم الحيوانات التي لم تذبح وفق الشريعة الإسلامية. ولقد ثبت بالدليل القاطع أن الحيوانات لا تتألم إذا ما ذبحت وفق كل من الشريعة الإسلامية والشريعة اليهودية أكثر مما تتألم عندما تقتل صعقاً بالكهرباء أو رمياً بالرصاص، أو خنقا بالغاز، كما هي الحال في الغرب الذي يتصور أن أساليبه أكثر إنسانية. فوفقاً للشريعة الإسلامية يذبح الحيوان راقداً وبسكين حادة جداً. ولتجنيب الحيوان الإحساس بآلام نفسه، لا بد من أن يغذى تغذية جيدة إلى أن يحين موعد ذبحه، وألا يتعرض لمشاهدة حيوان آخر وهو يذبح، وألا يشاهد حتى السكين وهي تُشحذ. بل إن من آداب الذبح في الإسلام أن يخفي الجزار السكين خلف ظهره وهو مقبل على الحيوان لذبحه. والجزار المدرب يقطع الحلق والمريء وشرايين الرقبة بضربة سكين واحدة، حتى يغيب الحيوان عن الوعي مرة واحدة، فينزف دمه تماماً، ويسلم الروح دون ألم[1].

وبالنظر إلى كل ذلك، يُسمح للجماعة اليهودية بألمانيا أن تذْبح ذبائحها وفق الشريعة اليهودية، في حين يمنع المسلمون من هذا الحق، وهو أمر يدعو إلى السخرية. وفي شأن ذلك، يقول القرآن ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. (سورة الأنعام: ١٤٥). وتستنتج السلطات الألمانية من ذلك نتيجة «منطقية» مؤداها أنها إذا منعت المسلمين من أن يذبحوا ذبائحهم وفق شريعتهم،

(١) لتفاصيل أخرى، انظر أنيس محمد كرديا: «الطريقة الإسلامية للنحر» في «الإسلام»، ميونخ (١٩٩٠) العدد ٢ - ٤.

فسوف يضطرون إلى أكل لحوم حيوانات لم تذبح وفقاً لها. ولكن هذا التصور ينطوي على خطأ فادح في الحساب، لأن اضطرار المسلم الذي ورد ذكره في القرآن ينطوي على محاولته درء خطر موت يتهدده جوعاً. ومن ثم، فالمسلم في ألمانيا مضطر إما إلى الاستغناء عن اللحوم والأطعمة النباتية، وإما إلى شراء اللحم من الجزارين اليهود.

يُحذّر القرآن من تحريم ما أحله الله للناس من طعام: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. (سورة الأعراف - الآية ٣٢). ومن ثم، فإنه يحث على تناول مواد غذائية بعينها، كاللبن والتمر والزيوت النباتية والأعناب والعسل الذي وصفه أنه دواء ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾. (سورة النحل - الآية ٦٩). ولذلك يضعه المرء في جميع الحلويات تقريباً في العالم الإسلامي، كالبقلاوة على سبيل المثال.

يمكنني أن أذكر على وجه السرعة وجباتي المفضلة في العالم الإسلامي. في المناطق الحارة، يحتاج المرء إلى تناول الكثير من المشروبات التي تصل كمياتها إلى ٧ لترات يومياً، وبصفة خاصة إذا كان المرء يعيش منذ عشرين عاماً بإحدى كليتيه فقط. لذلك فإن أول ما يخطر ببالي من المشروبات هو اللبن باللوز، والقرفة، والزنجبيل، والقهوة التركية، والشاي بالنعناع، والقهوة التي تقدم في بهو فنادق المشرق العربي كافة والتي يشعر المرء بأنه استعاد حيويته من جديد بعد أن يحتسي ثلاثة أقداح منها.

في أول زيارة لنا إلى مكة، في عام ١٩٨٢، طلبنا في أحد المطاعم إبريقاً من القهوة، كما هي العادة في ألمانيا عند ما يتناول مجموعة من الأصدقاء القهوة معاً.

وكلما كرر النادل السؤال أكثر من مرة عن طلبنا بهدف التأكد، أرجعنا ذلك إلى مشكلات وصعوبات تتعلق باللغة. . وأخيراً، أحضر لنا طائعاً إبريقاً يمنياً تقليدياً مملوءاً بالقهوة العربية، لكننا لم نتمكن، بطبيعة الحال، من احتساء كل ما به كاملاً، إذ شعرنا أن ضربات القلب راحت تتسارع بعد احتساء ما يعادل نصف قدح من الحجم الألماني.

كنا على موعد مع القدر، عندما أتيح لنا أن نشهد طقوس إعداد الشاي الأخضر بأوراق النعناع في ضاحية النخيل بواحة العطوف في جنوبي الجزائر. وكنت قد ألقيت في عام ١٩٨٩ محاضرة في واحة بني عزجون المجاورة، حول عشر نقاط في العالم الإسلامي لا تروق لي، وبعدها قضيت ليلتي وحيداً في كوخ وسط عدد من أشجار النخيل. وفي الصباح، حضر مضيفي حاملاً معه طعام الإفطار وعدداً من الأقداح والعلب، وغسل الإبريق بماء ساخن، ثم غسل الشاي بماء ساخن داخل الإبريق، وتخلص بعد ذلك من الماء ثم أضاف أوراق النعناع والكثير من السكر والماء المغلي إلى الشاي. وراح بعد ذلك يصب الشاي في الأقداح من ارتفاع قدره نحو نصف متر، دون أن تهدر نقطة واحدة منه، ولا أعتقد أن هناك طريقة أمتع من ذلك ليبدأ بها المرء صباح يوم جديد.

من بين أطعمة المسلمين التي أفضلها: الباذنجان المحشو والمقلي، وسلطة الجبن الفرنسي، والدجاج المحشو بالمكسرات، وأوصال الضأن، والحمص، والكباب، والأرز الشرقي وبخاصة الباكستاني (الذي يحتوي على كثير من القرفة والزبيب)، والتبولة، والكسكي الحلو، والعاشوراء، والمهلبية، وأم علي.

في ختام هذا الفصل، أريد أن أقص عليكم إحدى النوادر التي ترتب عليها أننا تناولنا وجبة طعام بالمجان. في عيد الميلاد عام ١٩٨٢، كنا نقيم في فندق

شيراتون المدينة الذي يقع في المنطقة المسموح لغير المسلمين بارتيادها، ومن ثم يقيم به رجال أعمال غربيون. ولذلك كان عمال الفندق الباكستانيون يعاملوننا على أننا رجال أعمال، لا معتمرون. فكانت تحيتهم الودودة لنا ونحن في الطريق إلى تناول طعام الغداء «عيد ميلاد سعيد». وكنت أرد عليهم التحية بود مماثل، قائلاً: «شكراً جزيلاً، وبالمناسبة نحن مسلمون والحمد لله». وكاد يغشى على هؤلاء الأجانب المساكين، خشية أن يُرَحَّلوا إلى وطنهم.

وما لبث مدير الفندق أن حضر بعد دقائق معدودة، ليعتذر لنا رسميًا عن الإهانة البالغة التي لحقت بنا من بعض العاملين، وراح يرجونا أن نقبل تناول الطعام على نفقة الفندق تعويضاً بسيطاً لنا عن هذه الإهانة. ولم يقتنع بإلحاحنا في التأكيد أكثر من مرة أننا لم نشعر أننا تعرضنا للإهانة. فالمسيح يحظى عندنا في الإسلام بذات الاحترام الذي يحظى به جميع الرسل والأنبياء. ولقد تبين لنا من هذه الواقعة أن معرفة بعض المسلمين بالمسيحية مشوهة، كما هي الحال في معرفة بعض المسيحيين بالعهد القديم.

الفصل السابع

قدريون طموحون

لا يفتح بعض القراء الغربيين كتاباً عن الإسلام إلا بعد أن يبحثوا في فهرست المحتويات عن كلمات مثل «قسمة» و «قدر» و «حسد» و «الحرب المقدسة». وأنا لا أريد أن أخيب ظنونهم.

وكلمة «كسمت» المنتشرة في اللغة التركية (يقابلها في العربية قسمة) بمعنى النصيب أو القدر يعرفها المرء، في ألمانيا، إن لم يكن من العمال الأتراك، فمن كارل ماي. والأصل العربي لهذه الكلمة هو فعل «قَسّم» أي وزع أو قسم أقدار كل منّا ويفضل المرء في العالم العربي التعبير عن هذا المعنى باستخدام لفظ أو كلمة «مكتوب»، وأصلها فعل كتب. وهي تعني أن قدر كل إنسان «مدون» في كتاب كبير على غرار القرآن (اللوح المحفوظ). وسواء أكان «مقسوماً» أم «مكتوباً»، فإن كل المسلمين على اقتناع بأنه ما من شيء يقع دون معرفة أو علم سابق من الله العليم بكل شيء.

يقر كثير من المسيحيين أيضاً بذلك، ولكنهم لا يحبون مع ذلك أن يعترفوا بالنتيجة الحتمية التي لا بد من أن تترتب عليه، وهي أن ما نفترض أنها إرادة حرة لا يمكن إلا بصعوبة وصفها بأنها «حرة». وأنا أعرف أن كثيرين من الفلاسفة المسلمين فكروا كثيراً في القدر وحرية الإرادة [1] (أي ما إذا كان الإنسان مخيراً أم مسيّراً). ومن ثم، فليس هناك من حرج في أن نقر بعجزنا عن إدراك الكيفية التي يثيب الله العادل أو يعاقب بها الناس على أفعالهم، التي كان بمقدور الله العليم الرحيم القادر أن يمنعها. وبالمثل.، فإنه قليلاً ما يقبل عقلنا أنه كان بمقدور البشر

(١) انظر مراد هوفمان: «الإسلام كبديل». الطبعة الثالثة، ميونيخ (١٩٩٥)، فصل «القدرية».

أن يحركوا سلسلة أصلية من الأسباب. ومن الأفضل أن نتبع نصيحة الرسول ﷺ إذا كنا لا نريد أن نحطم رؤوسنا بالتفكير في مثل هذه الأمور، إذ إنه يمكن حقا أن يؤدي التفكير فيها إلى تحطيم رؤوسنا دون جدوى.



لقد صادفت في حياتي كثيراً من الأحداث المذهلة التي يمكن للمرء أن يلصق عليها بطاقة «قسمة»، والتي تجعلني وغيري من المسلمين نشعر بالسكينة والطمأنينة، لأن الله القادر العليم يرعانا في السراء والضراء على السواء:

عام ١٩٤٤:

في أثناء الحرب الجوية الاستراتيجية في الحرب العالمية الثانية، كنت أعيش في مدينتي أشافينبرج، وكانت ذات حامية بها خمس كتائب من الجيش، إلى جانب كونها نقطة التقاء للمواصلات ومنطقة صناعية. وابتداء من سبتمبر عام ١٩٤٠، راحت تتعرض لغارات جوية منتظمة تقريباً. وبعد أن انتزعتني صفارات الإنذار من النوم أكثر من ٧٠٠ مرة، قررت أن أنام، مرتدياً ملابسي، في مخبأ للحماية من الغارات الجوية. وكنت أذهب إلى المدرسة، ومعي مؤونة الطوارئ والقناع الواقي من الغازات. وفي أحد الأيام، تعرضت مدرستي للقصف، وأصيب المخبأ الخاص بتلاميذ فصلي.

وكنت قد قررت بالفعل عند سماع أولى صفارات الإنذار، أن أنصرف!! ترى ما الذي كان يمكن أن يحدث، لو أنني كنت في المدرسة في تلك الأثناء؟!

ونظراً لعدم وجود مدرسة أذهب إليها، عملت على أن يكون بقائي بالمنزل مفيداً، فرحت أستمع باستمرارتقريباً إلى إذاعة «فيجارو»، التي كانت القوات

الجوية الألمانية توجهها. وكانت مدينة أشافينبرج بالنسبة لهم مربع الخريطة «ريتشارد توني ١». وهكذا، صرت أعرف على وجه الدقة ما إذا كان ضرورياً حقاً أن أذهب إلى المخبأ أم لا.

وفي يوم ٢١ من نوفمبر عام ١٩٤٤، فاجأتني صافرة الإنذار، عندما قام سرب مكون من ١٥٠ إلى ٢٠٠ قاذفة قنابل أميركية بدك المدينة بما يزيد على ألف قنبلة متفجرة، أتبعتها بقنابل حارقة. وترتب على ذلك تدمير المدينة وتحويلها إلى حطام بنسبة ٦٤٪. فلقد لقي مئات من الناس حتفهم، ودُمر تماماً ١٩٠٠ منزل، في حين أصيب ألف منزل آخر بخسائر فادحة. ودكت المنطقة الواقعة على بعد ١٢ متراً فقط خلف منزلنا بقنابل متتابعة الانفجار، مع ما تتركه من حفر هائلة، ترى ماذا كان يمكن أن يحدث، لو أن قاذف القنابل ضغط على المفتاح مبكراً بمقدار عُشر ثانية..؟!

عام ١٩٤٥:

كان هدير المدفعية في منطقة الراين قد اعتادنا، حتى تعوّدنا عليه وصار السكون يفزعنا، وكان رجال باتون يحصارون مدينة أشافينبرج بعد ساعات معدودة من عبورهم الراين. وكان باستطاعتهم أن يدخلوا المدينة بسهولة ويسر، لولا أنهم تركوا أنفسهم فريسة للخوف من بعض أفراد المقاومة الشعبية المتقدمين في العمر، ومن بينهم أبي، وبعض أفراد شبيبة هتلر، وبعض أفراد مخابرات النازي المغالين في إخلاصهم لزعيمهم. ورد الأمريكان على هذه المقاومة بحرب مادية بلا حدود.

ولما كان منزلنا يقع على الجبهة مباشرة، فقد فررنا منه إلى «المجهول». وأمضينا، ومعنا كثيرون من جيراننا، ١١ يوماً وليلة في قبو عميق للبيرة يتبع

بستاناً يحمل اسماً مثبطاً هو «الهجوم الأخير». وكانت أمي تطهو في منزلنا كل ليلة ملء إناء كبير من حساء الفاصوليا، لأحمله دون أن تهدر منه قطرة واحدة إلى القبو، تحت نيران قذائف المدفعية المتقطعة.

وكنت في طريقي، ذهاباً وإياباً، أتحدث مع جندي وحيد، حفر خندقاً بالقرب من منزلنا ليحتمي به مع مدرعته. وبينما كنت أمر بهذا الخندق ذات ليلة، تبين لي أنه قد تحول إلى حفرة قنابل، وأن الجندي قد لقي حتفه من جراء قصف موقعه بقنبلة زنتها ربع طن، ألقت بها طائرة حربية من طراز ثاندربولت[1]. ترى ماذا كان سيحدث، لو أنني كنت قد توقفت لأتحدث معه مدة أطول؟!

عام ١٩٥٠:

في ليلة عيد الميلاد، تخلفت بسبب عاصفة ثلجية عن القطار الذي كان سيقلني من شينيكتادي بولاية نيويورك إلى مدينة نيويورك، وما كان لي أن أصل به حتى لو لم يحدث ذلك، لأنه أصيب إصابة بالغة بصاعقة برق.

عام ١٩٥١:

تحدثت في موضع سابق من هذا الكتاب عن حادثة السيارة التي وقعت في مسيسيبي والتي ما كان لي - من وجهة نظر الجراح - أن أنجو منها أصلاً. وبعد أن أصبحت مؤهلاً للسفر مرة أخرى، بعد هذا الحادث، سافرت بالقطار من ممفيس بولاية تنيسي إلى واشنطن العاصمة، وكنت في أثناء رحلة القطار أنكبُّ على القراءة تارة، وأومئ برأسي إلى الأمام تارة أخرى، وأتطلع عبر النافذة أحياناً.

---

(١) انظر: ألويس شتادملر: «أشفنبرج أثناء الحرب العالمية الثانية: قذف بالقنابل، احتلال، تسليم» أشفنبرج (١٩٧٠).

وذات مرة، بينما كنت أشرع في التطلع عبر النافذة، اخترقت «مصادفة» رصاصة طائشة، أطلقت من بندقية صغيرة، زجاج النافذة، ومرّت على مسافة تقل عن بضعة سنتيمترات مني!! ترى ماذا كان سيحدث، لو أنني كنت منكبًا على القراءة حينذاك؟!

عام ١٩٥٤ :

عندما كنت «مصادفة» بمبنى تدريب القانونيين، عند باب النصر بمدينة ميونخ، في أحد أيام الأربعاء، رأيت إحدى السكرتيرات تلصق إعلانا على الباب، يشير إلى أن الأستاذ رودولف بوهلا، أستاذ كرسي إجراءات القانون المدني الجديد، سوف يفتتح حلقة دراسية (تدريباً) للإجراءات المدنية، يشترط لحضورها الحصول على شهادة تدريب في إجراءات القانون المدني بدرجة«جيد»، على أن تقدم طلبات الالتحاق أيام الأربعاء، من الساعة الثانية إلى الساعة الثالثة بعد الظهر.

ولقد كنت حاصلاً على شهادة وحيدة بدرجة «جيد»، وكانت «مصادفة» في إجراءات القانون المدني. وبالنظر إلى ساعتي، تبينت أن الوقت كان قد تجاوز الساعة الثانية بقليل، ومن ثم، لم أكن الطالب الأول الذي يتعرف عليه الأستاذ بوهلا في ميونيخ فحسب، وإنما صرت مساعداً معاوناً له أيضاً، كما صرت فيما بعد مساعداً (معيداً) أساسياً.

وبطبيعة الحال، كان لا بدّ من أن أعد رسالتي لنيل درجة الدكتوراه في أحد موضوعات الإجراءات المدنية، وترتب على ذلك، حصولي على منحة بحثية من مدرسة هارفارد للحقوق بمدينة كمبردج بولاية ماساتشوستس، حيث حصلت

منها على درجة الماجستير. ترى لو لم أذهب مصادفة إلى مبنى تدريب القانونيين ذاك الأربعاء، ماذا كان سيحدث؟!

عام ١٩٥٥:

حضر امتحاني الشفهي «مصادفة» أبو علم قانون الإجراءات المدنية الألماني، الأستاذ ليو روزينبرج. ولكوني معيداً في هذا التخصص، استطعت بطبيعة الحال أن أعرِّف، أفضل الدارسين الأربعة الآخرين الذي يؤدون الامتحان معي، ماهية الحكم الغيابي، ومدى أهمية مفهوم موضوع النزاع فيما يختص بتغيير موضوع الشكوى، وبقوة القانون، وبالتقادم. وكان من نتيجة ذلك، أن سمح لي، وأنا الموظف تحت التمرين من خارج ميونيخ، على سبيل الاستثناء أن أبقى بها.

عام ١٩٥٩:

تلقيت في إحدى عطلات نهاية الأسبوع دعوة من زملاء بمدرسة هارفارد للحقوق، لحضور حفل يقام في مكان قريب من مسكني. وأبلغوني أنني سأعثر عليه بعد مجمَّعين فقط من المباني السكنية، في اتجاه ميدان هارفارد، على مقربة من طريق ماساتشوستس. ولقد كان من اليسير التعرف على المبنى؛ فهو مبنى كبير أبيض يشبه الفيل من حيث الضخامة.

وبالفعل، كانت أصوات حفل تنطلق من مبنى رأيته أشبه بالفيل في ضخامته. ولكني ما لبثت أن تبينت أنني في حفل آخر غير الذي دعيت إليه. ولم يتركني أحد أغادر الحفل، بدعوى أنه لا يوجد على الإطلاق ما يمكن أن يسمى «حفلاً خطأ». وقيل لي: «ابْقَ، واحتفل معنا»!

ولقد كانوا على حق! فهناك قابلت إليزابيث آن جريفيث، التي تزوجتها بعد

ذلك بستة أشهر . هل لو كنت قد ذهبت إلى الحفل الذي دعيت إليه أصلاً ، كان سيصبح لي اليوم ابن أمريكي ؟!

أعوام ١٩٦٠ - ١٩٦٥ :

كنت مرتبطاً حقاً بالجزائر بعلاقة قدرية ، على نحو غريب متكرر ، كما سبق أن أشرت في فصل «دروب فلسفية إلى الإسلام» .

فبراير عام ١٩٧٦ :

في التاسع والعشرين من يناير ، عرضت إيفا كامبيانو ، بمصاحبة رباعي إدوارد ميلكوس ، باليه عصر النهضة في مسرح ألبرتينا بفينا . ولقد دُفِعَتْ بلبين أوتس - العازفة التركية في مرحلة الامتياز ، بالمعهد العالي للموسيقى والفنون التشكيلية - إلى مشاهدة العرض على الرغم منها . فلم يكن لديها رغبة في ذلك على الإطلاق ، (ولذلك جاءت متأخرة) . ولقد أرغمت أنا أيضاً على مشاهدة العرض من جانب كورت بيتز الصحفي الكولوني . وبدوري ، لم يكن لدي على الإطلاق رغبة في مشاهدته ، (ولم أكتب نقداً حوله) . وبعد عام واحد من العرض ، تزوجنا . . بلبين وأنا !! فماذا كان سيحدث لو لم يذهب أي منا لمشاهدة هذا العرض ؟!

مارس عام ١٩٧٦ :

على الرغم من أن الحياة في فينا تعجبني ، ومن أن محادثات حلف شمالي الأطلنطي وحلف وارسو حول إزالة الأسلحة من أوربا الوسطى كانت تمثل لي يوميًا جولة جديدة مثيرة في لعبة الشطرنج ، فقد طلبت نقلي بعد ثلاث سنوات ونصف من العمل فيها وفي يناير من عام ١٩٧٦ ، عرض علي مدير شؤون

المعاملين بوزارة الخارجية منصب السفير في جدة. وكان ذلك قبل الفورة النفطية منصباً شاقاً جداً، حيث لم يكن هناك طبيب أسنان بعد. وكان زوجتي الأمريكية قد توفيت في العام السابق. . فهل كان بوسعي بوصفي أعزب أن أحتمل الحياة هناك؟ ولأنني أشعر بخوف شديد أمام الواجب، فقد قبلت المهمة.

أجريت لي في اليوم ذاته اختبارات تحمُّل مناخ المنطقة الحارة، واتصلت بسلفي في المنصب، ودرست ملف البلد، واشتريت ملابس ملائمة لطقس المناطق الحارة. وبعد ١٤ يوماً، أوصى مكتب الخدمات الصحية بوزارة الخارجية، استناداً إلى نتائج التحاليل المخبرية، بإجراء تحليل لبولي، نظراً لوجود كرات دم بيضاء به.

ولو أنني كنت أعير أمر صحتي قدراً أكبر من الاهتمام، لكنت قد أدركت أن جميع اختبارات قدرتي على تحمل مناخ المناطق الحارة ستؤدي إلى النتيجة نفسها، دون التوصية بإجراء المزيد من الاختبارات. وعندما ذهبت إلى العيادة الخارجية لمستشفى فيينا الجامعي ٢، لأطلب إجراء الاختبار بسرعة، إذ ينبغي أن «أرحل إلى جدة على عجل»، التقيت «مصادفة» بأخصائي الكلى، دكتور بول شميت دينست، الذي لم يكن على الإطلاق في عجلة من أمره، فراح يجري لي فحوصاً أكثر تعقيداً. وبعد أسبوع، أجريت لي في يوم ٢٣ من مارس جراحة لاستئصال الكلية اليسرى، بسبب إصابتها بورم سرطاني من نوع خطير، حتى إنني ما كنت لأبقى على قيد الحياة عاماً آخر ما لم تُجر الجراحة.

بعد نصف عام من مباشرة عملي – في بلجراد وليس في جدة – عدت إلى فيينا لإجراء فحص للمتابعة. وكانت نتيجة تحليل البول مذهلة، إذ كان ما يزال في البول كرات دم بيضاء، وإن كان عددها قد انخفض إلى النصف. وتبين لنا أن

الطبيب اكتشف الورم السرطاني استناداً إلى أعراض ليست من بين أعراضه على الإطلاق!!

ولو لم أطلب نقلي من فينا، لما عرض عليّ منصب في منطقة حارة.. ولو لم أقبل هذا المنصب، ما كنت ذهبت لإجراء الفحوص.. وما كنت التقيت بالأخصائي.. وما كنت كتبت هذا الكتاب!!



هذه الوقائع الدرامية، والأقل منها في دراميتها، لا تؤكد شيئاً، وإنما تبين كل شيء. فهي علميًا ليست شيئًا، ولكنا على المستوى الشخصي كل شيء. إنما لا تؤكد شيئاً، لأنها وقائع شخصية جداً تعكس سلسلة من الأسباب والنتائج التي تدل على تصرّف الله في تسيير الأحداث. فهل نعلم حقاً أن «واقعة حظ» غير عادية «قسمة» تجلب لنا الحظ، وأن «واقعة سوء حظ» غير عادية «قسمة» تجلب لنا سوء الحظ حقيقياً؟

وبالمثل، تبين لي الأحداث المشار إليها كل شيء. ففيها يكمن إحساسي الشخصي بالأمان، بسبب رعاية الله لي. وربما يؤدي هذا الشعور إلى القدرية (أي الاستسلام للقدر). ولكن لا ينبغي - ولن يحدث أيضاً - أن يستطيع المسلم، عندما يتبين له ذلك، أن يدرك مشيئة الله في كل ما يقع له من أحداث مقبلة. ومن ثم، فإنه يمكن أن يكون قدرياً فقط في مواجهة حدث وقع بالفعل، وبالتالي يجب أن يقبله، وهو سيقبله، دون أن ينتف شعره، أو يلطم الخدود ويشق الجيوب، كما يفعل بعضهم.

لا يعني هذا أن المسلم قدري فيما يختص بالمستقبل، أو أنه يجوز له أن يتواكل

في أمر من أموره بل ينبغي عليه النقيض من ذلك؛ أن يكون عضواً نشطاً في جماعة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة آل عمران - الآية ١٠٤). وكذا: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. (سورة آل عمران - الآية ١١٤). فهل هذه دعوة إلى القدرية؟!

إننا على معرفة تامة بهذه القضية، ومن خلال نظرية «المادية التاريخية» و «المادية الجدلية» لزمن الشيوعية الغابر. فوفقاً لتعاليم ماركس - إنجلز، التي كانت تتسم بالقدرية الشديدة، يتحرك التاريخ وفق قوانين جدلية لا مفر منها إلى غايتها، وهي مجتمع بلا طبقات. ومع ذلك، لم يتوقف لينين ولا تروتسكي ولا ستالين ولا عناصر الصف الخامس عن العمل من أجل «بناء الشيوعية».

لقد فسر رسول الإسلام ﷺ هذا الأمر في صيغة بسيطة بقوله: «اعقلها وتوكل»، أي إن على المرء أن يعقل ناقته وأن يترك ما بقي لله. ولقد تسلحت بهذا اليقين حينما كنت بالجزائر، دون أن أتوهم لحظة واحدة أنني أستطيع بمسدس أن أطيل حياتي ولو ثانية واحدة إذا حان أجلي. وكنت دائماً شديد الاقتناع بأن الرصاصة التي لم تصبني، لم تكن تمثل خطراً بالنسبة لي أياً كانت درجة قربها مني.

في أثناء عملي مديراً لمعلومات حلف شمالي الأطلنطي (١٩٨٣ - ١٩٨٧)، عادت مسألة اتخاذ تدابير لحماية النفس تفرض نفسها من جديد، عندما أخبرتني مصادر وجهات مختلفة عديدة أنها تخشى أن ألقى المصير الذي لقيه زميلي السابق فون براوتميل، الذي راح ضحية عملية اغتيال. ولقد خبرت منذ ذلك الوقت كل الإجراءات المعروفة لحماية الشخصيات الرسمية، بما يمكن أن يقترن بها من

إجراءات روتينية ومن مضايقات. وكنت فيما مضى أشفق على من يُسمَّون «الشخصيات المهددة بالخطر»، بسبب فقدانهم حرياتهم الشخصية. والآن، ينبغي عليّ أن أمارس بنفسي «ألعاب سيرك الأمن».

ونظراً لتحولي من استخدام مسدسي (والتر ٦٥، ٧) إلى استخدام مسدس سيدات بسبب تطور وسائل العنف، قام مدرب الرماية في فرقة مقاومة الإرهاب البلجيكية بتدريبي على استخدام مسدس ٩م (هيكلر وكوخ ٧م ١٤) في أوضاع مختلفة.. وقوفاً ورقوداً.. في الليل وفي النهار.. باليد اليمنى وباليد اليسرى... وبأنواع الذخائر كافة، للدفاع عن النفس. وكان التركيز الضروري في وضع الرماية يستنزف قواي البدنية تماما.

كان يتحتم عليّ أن أنجز، بالإضافة إلى التدريب، العمل الذهني فيما يختص بتصور جميع الحالات المحتملة لهجوم أتعرض له، وردود الفعل السليمة لها. وفي حالات الضرورة، يكون رد الفعل المؤكد لا شيء. وكلما تحسنت النتائج التي أحققها في الرماية وفي إصابتي للهدف، كان يساورني شك دائم في جدوى كل هذا الجهد الذي أبذله. فهل يعني هذا أنني قد أكون قدرياً بالمعنى السلبي للكلمة؟

لا يمكن للمرء أن يتحدث عن القدرية في العالم الإسلامي، دون أن يتطرق الحديث إلى ظاهرة الحسد، الذي لا يشك مسلم في وجوده. أما في الغرب، فيفضل المرء أن يتحدث كطبيب عن تأثيرات «نفسية»، وكـ«هيبي» عن «إشعاع خبيث»، وكعالم نفساني عن «تنبؤات تتحقق ذاتياً» بحظ عاثر.

إننا نصادف بطبيعة الحال حالات ملموسة للحسد، ومن الخطأ علمياً أن نتعجل فنستنتج من ذلك أن الحسد مجرد وهم. ومن الخطأ أيضاً أن نتصور أن

المرء لا يلاحظ الحسد في مواضع أخرى، لا لسبب إلا لأنه كفيف غير مبصر.

لقد شاهدت في تركيا، على سبيل المثال، طبقاً غاية في الجمال وهو يتحطم فجأة في المطبخ، في أثناء زيارة إحدى القريبات، دون أن يتعرض لأي تأثيرات خارجية. ولكننا لا نستبعد أن تكون هناك تأثيرات داخلية. فمن المحتمل أن يكون الطبق قد تحطم بفعل توترات داخلية في بنيته، أو بسبب ذبذبات زائدة. ولكن ألم تُبد هذه القريبة، المعروف عنها حسدها إعجابها الشديد بهذا الطبق الجميل؟! ربما يكون قد فاتنا آنذاك أن نقول «ما شاء الله» (بمعنى أن الله قادر على حفظه).

للأسف الشديد لم ينجح الإسلام بعد في فرض جوابه (رده) الصحيح على هذه المشكلة، وهو اللجوء إلى الله، في العالم الإسلامي. فما يزال كثير من المسلمين يلجؤون علانية إلى السحر بوصفه علاجاً ممكناً، بدلاً من قراءتهم للمعوذتين في القرآن، وبصفة خاصة سورة الفلق (السورة ١١٣):

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[1].

وما هو أسوأ من ذلك، أن بعض المسلمين يلجؤون إلى استخدام هذه السور في أعمال السحر، وفي عمل التعاويذ (الأحجبة)، حتى إن قول «ما شاء الله» المذكور في القرآن يستخدم على نحو مرتبط بالخرافات. ولا يستطيع المرء أن يتخيل إلى أي مدى تسعى بعض النساء المسلمات إلى أعمال السحر. في أسواق المدن المغربية، مثل فاس، يوجد كثير من المحلات التي تبيع فقط مستلزمات أعمال السحر: كالزيوت والعصائر، وأنواعه من البودرة، وسحليات مجففة،

(١) انظر: محمد رسول: سورتا الحرز. (المعوذتان) كولونيا (١٩٨٢).

وحتى عرائس تستخدم في أعمال سحر لإيذاء بعض الناس ولإشعال الحب في قلوب آخرين. وتشتهر قبائل الريف بممارسة هذا الفن الأسود، وإن لم تكن منفردة وحدها بذلك.

لم تكن زوجتي تستطيع، ونحن في المغرب، أن تمنع خدم المنزل من خلط بعض المواد وحرقها قبل وبعد الحفلات الموسيقية (كونشر تو الهارب) التي تعزف فيها زوجتي على الهارب. وكانوا يفعلون ذلك قبل الحفل لحماية يديها وآلتها الموسيقية من شر الحسد، وبعد الحفل لحمايتها ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. وكانوا يحرصون أشد الحرص على إخفاء هذه المواد عني.

إن من يريد التهكم على هذا السلوك، عليه أن يثبت أن الناس في الغرب لا ينزعون إلى اللجوء إلى أعمال السحر، بدءاً من قراءة الطالع والأبراج، لمواجهة مشكلات حياتهم.



نخلص مما تقدم إلى أنه لا يجوز للمسلم أن يكون قدرياً أو سلبياً، وإلى أنه ينبغي عليه أن يسعى جاهداً من أجل الخير في هذا العالم. وهذا السعي، هو أولى وأرقى معاني كلمة «جهاد» التي يهوى بعض أدعياء الاستشراق ترجمتها إلى «حرب مقدسة»!!

كانت هناك أيضاً حروب دائمة باسم الإسلام للدفاع عنه، تكتيكياً أو استراتيجياً. وإلى يومنا هذا، يستطيع رئيس دولة إسلامية أن يمني النفس بعمل الكثير لتلبية دعوة الجهاد. فعندما تتفاعل الأرواح على نحو آخر تزداد القدرة على التضحية، وخاصة أن الشهداء الذين يسقطون في الكفاح في سبيل الإسلام

مثواهم الجنة، ويعلم الجميع الإمكانية السياسية التي تكمن في هذه الحقيقة. ولقد حاول صدام حسين أن يستخدمها في حرب الخليج. في حين لا يدعو التلفزيون التركي من يلقى حتفه شهيداً إذا كان الأمر يتعلق بمن يقتل من أفراد حركة الانفصال الكردية، مدنياً كان أو عسكرياً.

إن أقل الناس قدرية، وأكثرهم نشاطاً في سلوكهم، هم أتباع ما يسمى بالحركات الإسلامية، مثل الجبهة الإسلامية للإنقاذ بالجزائر، الذين ينشطون من أجل التمكين السياسي لإسلام راديكالي متشدد في أوطانهم. وتسعى الغالبية العظمى من المسلمين من الشباب ومن المثقفين، ومن حملة الشهادات العلمية في العلوم الطبيعية، بحماسة شديدة إلى تطبيق ما تنص عليه الآية ١٠٤ من سورة آل عمران - السالف ذكرها - تطبيقاً صارماً.

لقد عايشت ذلك بنفسي في الجزائر في المدة من عام ١٩٨٧ إلى عام ١٩٩٠. ويبدأ الأمر غالباً بمحاولة أحد الأبناء - ليس بالضرورة الأكبر سناً - فرض تصوراته عن الأخلاق الإسلامية على أسرته، وإرغام شقيقاته على ارتداء الحجاب. ولذلك، نادراً ما توجد بالمدارس فتيات لا يرتدين ملابس إسلامية. وحتى هؤلاء الأخيرات ينصحهن آباؤهن وأمهاتهن بارتداء الحجاب، مجاراة للاتجاه العام السائد، حتى تزداد فرصهن في الزواج. وهكذا يتصاعد هذا الاتجاه في الشارع وفي المدارس.

ولقد شاهدت مرة في بوزاريه شاباً يبصق أمام امرأة سافرة وهو يردد «أعوذ بالله»، كما لو كانت شيطاناً. وكذلك، رفض الطلاب فجأة الإقامة مع الطالبات في مبنى سكني مشترك، حتى وإن فصلت بينهما طوابق المبنى. كما رفضوا أيضاً تناول الطعام معهن في مطعم الجامعة، دون فصل حاد بين الرجال والنساء.

ويأتي بعد ذلك، من منطلق الجهاد، بثّ الفضيلة في الحياة العامة. فالشاب المسلم يشعر في كل مكان كما لو كان ما يزال في عصر الجاهلية. ومن ثم، فإنهم يرون أن واجبهم هو تحويل ما يرونه مجتمعات الجاهلية الجديدة إلى مجتمعات إسلامية عبر حرب أهلية يرونها مشروعة، أو أن يهاجروا داخلياً كما حدث في عصر الرسول ﷺ.

ابتداء من عام ١٩٨٨، قام مسلمون حديثو العمر في الجزائر بفصل أسلاك هوائيات استقبال الإرسال التلفزيوني في الأبنية الكبيرة لمنع الناس من مشاهدة برامج وأفلام فاضحة. وهم يطلقون على هذه الهوائيات اسم الهوائيات الشيطانية. وقام آخرون بتحطيم قوارير الخمور في البارات، وبتمزيق لوحات فنية بمحال بيع التحف لتصويرها نساء غير محتشمات، إذ يرتدين ثياباً خفيفة.

كان هؤلاء الشباب يتسمون بالجدية والمثالية في تعاملهم مع الأمور. وكانوا يكافحون، في ظل ظروف تكتنفها مخاطر وتضحيات شخصية هائلة. من أجل عالم أفضل يقوم على مبادئ الإسلام، خال من الاستغلال، ومن الفساد، ومن الامتيازات، ومن البذخ والترف، ومن الدعارة والمخدرات. ولكنهم ارتكبوا خطأ وحيداً، إذ خالفوا أمراً أصيلاً وجوهرياً في الإسلام، ألا وهو عدم الإكراه في الدين، كما جاء في الآية ٢٥٦ من سورة البقرة: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. ومن ثم، فإنهم أحلوا النفاق العام محل القيم الأخلاقية العامة. ولقد وقعوا إلى جانب ذلك فيما وقع فيه بعض المتزمتين قبلهم، إذ وحّدوا في شخص واحد أشخاص المدّعي والقاضي ومنفذ الحكم، فسلكوا بذلك مسلكا ثيوقراطياً – فاشياً.

لقد تجاهلوا أنه في ظل كيان دولة منظم، يصير الفرد مسؤولاً فقط في حدود مسؤوليته الشخصية عن الدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر. فالوالدان مسؤولان عن ذلك في أسرتهما، والمدير في مؤسسته، ورئيس الجامعة في جامعته، ورئيس الدولة في دولته.

لا يمثل هؤلاء المسلمون الإصلاحيون الشبان خطراً على أوربا، وإنما على حكومات بلدانهم. لقد شاركت، بناء على دعوة من المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر، في مؤتمر عقد بالقاهرة في المدة من ١٩ إلى ٢١ من يناير عام ١٩٩٩٣، لمناقشة هذا الخطر على وجه التحديد. وكما هي العادة، كان المشاركون هم وزراء الشؤون الإسلامية ومفتي الديار في كل الدول الإسلامية تقريباً، أي من المؤسستين اللتين اغترب عنهما الشباب المسلم بقوة في الآونة الأخيرة. ولقد نسي المنظمون أن يدعوا إلى المؤتمر ممثلين لهذا الشباب، وخصوصاً متحدثين عن الإخوان المسلمين. وبذلك، صار المؤتمر جزءاً من المشكلة، بدلاً من أن يكون أداة للمساعدة في حلها.

وعلى الرغم من كل الانتقادات، فإنني أتمنى لبعض المجتمعات في الغرب شباباً قادراً على إحداث بعث أخلاقي (هل ينبغي أن أقول «تحول»؟) مماثل لما حدث في مجتمعات إسلامية، ومستعداً للتضحية في كفاح ضد حكم استبدادي فاسد.

الفصل الثامن

عن حب المال

ينطوي مثل تركي على ما يعني أن الصداقة والمال لا ينسجمان، مثلهما في ذلك مثل الماء والزيت. فما هي إذن العلاقة بين الإيمان والمال؟ هل ينسجمان؟ نعم.. فضريبة الثروة والمال (الزكاة) في الإسلام هي أحد أركانه الخمسة، ومن ثم فإنها عبادة مفروضة[1].

ولعل المرء يلاحظ الذكر المتكافئ، الوارد في الآية ٢٧٧ من سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. فكما أن الصلاة تقضي على غرور الإنسان، وكما أن الصوم يهذب النفس ويقاوم شهوات الإنسان، فإن إخراج الزكاة يقهر بخله وشحه، فضلاً عن أنه يكبح التفاوت الهائل بين الدخول المادية للناس. لذلك، تفرض الضريبة (الزكاة) بنسبة ٥ر ٢٪ على المال بعد مرور سنة.

ويندرج تحريم الربا في الإسلام تحت الوسائل التي تحقق ذات الهدف؛ إذ إنه يحول دون تراكم أو تكوين رؤوس مال دون جهد.

كثيراً ما يجد المرء أن الزكاة تترجم خطأ في كتابات المستشرقين على أنها الصدقة أو «ضريبة الصدقة» (وهو ما ينطوي على تناقض). فالصدقة يؤديها المسلم طواعية بإرادته الحرة تماماً، لأن الإسلام يحض على الإحسان. أما الزكاة فضريبة معلومة مفروضة، يحق للدولة المسلمة أن تتلقاها، بل وأن تجمعها حتى تستطيع أن تفي باحتياجات بعينها، فصّلها القرآن في الآية ٦٠ من سورة

(١) انظر: الزكاة: سلسلة مطبوعات المركز الإسلامي بميونخ، العدد ٦ ـ ميونخ (١٩٧٨).

التوبة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. فالدولة المسلمة، تتلقى أو تجمع الزكاة لإنفاقها على رعاية الفقراء والمساكين، وحديثي العهد بالإسلام، وعابري السبيل، والمدينين والمسجونين تنفيذاً لعقوبة، والإنفاق على أعما ل الإدارة والدفاع، ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي في العمل من أجل إعلاء شأن الإسلام والعمل على نشره.

الزكاة في الإسلام، الذي يرى نفسه ديناً ودولة، عنصر بناء حيوي. فحينما امتنعت بعض القبائل العربية عن أداء الزكاة، بعد وفاة الرسول ﷺ، حاربهم خليفته الأول أبو بكر على أنهم مرتدون.

ولكن ما هو إذن موقف المسلم في الغرب من الزكاة؟ هل يسقط عنه التكليف بأدائها، لأنه يؤدي ضرائب عن أجره ودخله وثروته إلى دولة غير مسلمة؟

بما أن الدولة الغربية لا توجه أي «ضريبة كنسية» لخدمة طوائفها الإسلامية، ومن ثم فإنها لا تحقق هدفاً مهماً من أهداف الزكاة في الإسلام، وهو إعلاء شأن الإسلام ونشره، لذلك، فلقد انتهيت إلى أن أؤدي زكاة إضافية إلى مؤسسات إسلامية أختارها، وبصفة خاصة في ألمانيا، بحيث تكون حريصة كل الحرص على أن تنفق المال في مصارفه المحددة.

وإلى جانب ذلك، فإنني أتنازل عن حقوقي بوصفي مؤلفاً لدور النشر الإسلامية، سواء في ألمانيا، أو الولايات المتحدة، أو الجزائر، أو المغرب، مساهمة مني في العمل من أجل إعلاء شأن الإسلام وانتشاره، أي إسهاماً مني في العمل ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

ويؤدي الكثيرون من العمال الأجانب المسلمين في ألمانيا الزكاة، وليس أدل على ذلك من وجود مئات المساجد والمراكز الثقافية الإسلامية بها. ويوجد بالمساجد أماكن لتلقي الزكاة التي تؤدى مرة واحدة في السَّنة. وعادة ما يكون المبلغ المجموع كبيراً بما يمكن من تخطيط الميزانية على نحو أفضل.

ويتلقى بعض المساجد في ألمانيا، بطبيعة الحال، «بترودولارات» (دولارات نفطية). وأيا كان مصدرها، سعودياً أو إيرانياً أو ليبياً، فإنها تترك تأثيراً خاصاً يرتبط بمصدرها.

ولقد كان من الممكن التغلب على كثير من المشكلات المالية، التي تواجه الطوائف أو المجموعات الإسلامية في ألمانيا، لو أنها اتبعت نظاماً كفئاً للضرائب، كذلك المطبق في حالة الضرائب الكنسية المسيحية واليهودية. ولكن ذلك قد يؤدي من الناحية الأخرى إلى بروز مشكلات سياسية أكبر منها، تحل محلها، من قبيل: الرقابة على الأموال وتوزيعها في مجتمع متعدد الثقافات.

من هنا، كان فخري واعتزازي بالمسلمين الأندلسيين الملتفين حول الأستاذ عبد الرحمن مدينه موليرا، الذين نجحوا، بفضل مساندة وتشجيع رجاء (روجيه) جارودي المتحمس دائماً، في عام ١٩٩٤، وبعد توقف دام ٨٠٠ عام، في بناء مسجد في قرطبة دون مساعدات مالية أجنبية، ويبعد موقع هذا المسجد مئة متر فقط عن موقع مسجد قرطبة القديم الكبير. ويتمتع هؤلاء المسلمون بحق الدعوة إلى الصلاة بأذان ينطلق من منارة المسجد. ليس هذا فحسب، بل إنه يرتبط أيضاً مع «جامعة ابن رشد الإسلامية بالأندلس»، التي افتتحت في نهاية أغسطس عام ١٩٩٤. ولعل استقلال مسلمي الأندلس خير نموذج يحتذي به المسلمون في ألمانيا.

ولكن ماذا يفعل المسلم لكي يحافظ على ثروته وينميها؟

يرتبط هذا السؤال أيضاً بمشكلة «البخل». ويقودنا على الفور إلى ذكر تحريم قرآني مزدوج، يحرم على المسلم في العالم الرأسمالي أيضاً أن يقامر أو يضارب بالمال أو أوراق اليانصيب لتحقيق أرباح بالمضاربة، كما يحرم عليه أيضاً الإقراض بفوائد، لأنه ينبغي عليه أن يكسب عيشه بعمله هو، وبما يتحمله هو أيضاً من مخاطر.

إن إشكالية سوق رأس المال المشار إليها إشكالية معقدة، وبصفة خاصة لأن الدول الغنية «الأشد إسلامية» في هذا العالم لا تستحيي أن تودع أموالاً طائلة في بنوك الغرب التي تتعامل بالربا، كما أنها ذاتها تسعى إلى عقد صفقات مصرفية على أسس ربوية.

لذلك، دارت في لقاء للمسلمين الناطقين بالألمانية - عقد في آخن في ديسمبر عام ١٩٨٦ - مناقشات جادة حول مفهوم الربا المحرم بنص الآية القرآنية ٢٧٥ من سورة البقرة، سعياً إلى فهمه. ولقد لخصت رأيي آنذاك في أن مفهوم الربا، الوارد في القرآن وفي أحاديث الرسول ﷺ، ينصب حسب أصله التاريخي على الفائدة الربوية التي تفرض استغلالاً لحاجة المقترض وللضائقة الاقتصادية التي يمر بها. ومن ثم، فإن من يقترض من المصرف الألماني لشراء سيارة ثانية، لا يتعرض لاستغلال من جانب المصرف. وأشرت أيضاً إلى أن الفوائد على المدخرات غالباً ما تعوّض فقط الخسارة الناجمة عن التضخم، وإلى أن المدخر يعوض ما يفقده من ربح (كان من المحتمل أن يحققه من استخدام آخر لرأسماله) بما يحصل عليه من فائدة على مدخراته.

ومع أنني لم أكن الوحيد الذي يتبنى هذا الرأي، فقد كان رد الفعل له سلبياً، إذ تمسك معظم الذين شاركوا في المناقشة بالمفهوم الأصولي للربا، الذي يرى أن تحريم الفائدة مجرد شكل خاص من التحريم الشامل للربا[1].

ماذا يفعل المسلم الألماني إذن بمدخراته؟ فعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلها الدكتور أيوب (أكسيل) من معهد الاقتصاد الدولي في كولونيا، فإنه لا يوجد في ألمانيا بعد مؤسسة مالية إسلامية. وهذا أمر لا يثير الدهشة على الإطلاق، عندما يتابع المرء الصعوبات التي ما تزال تواجه باكستان في سعيها إلى إقامة اقتصاد بلا فوائد. فكيف تجمع شركة رأس المال دون فائدة؟ كيف إذا كان ذلك سيقترن بمخاطر كبيرة لرأس المال؟ كيف يعمل تخصيص الموارد دون فائدة معياراً للربحية؟ كيف يمارس المصرف المركزي سياسة نقدية غير دورية في غياب الفائدة بعَدِّها أداة؟

إن الحل لا يمكن أن يكون في طلب مسلم ألماني من المصرف الذي يتعامل معه أن يفتح له حساباً ادخارياً بدون فوائد، لأن هذا طلب من شأنه أن يهدم النظام المصرفي بأكمله. وسيكون رد موظف الشباك المتوقع استناداً إلى خبرته هو «أولاً: إننا لم نفعل هذا على الإطلاق من قبل. وثانياً: إننا كنا نفعل دائماً شيئاً آخر. وثالثاً: إن هذا سيكون سابقة يستند إليها أي شخص».

إن محاولة إيجاد حل من هذا القبيل تعني ببساطة أنه من الخطأ محاولة أسلمة

(١) يتناول غاني غوس إشكالية اقتصاد بلا فوائد ربوية بشكل رائع في كتابه: «الفكر الاقتصادي في الإسلام»، شتوتجارت (١٩٨٦)، ص ٦١. وكذلك سيد نواب ناقفي في كتابه الصادر باللغة الإنجليزية: «الأخلاقيات والاقتصاديات»، لايكستر (١٩٨١). وكذلك عمر شابرا: «الإسلام والتطور الاقتصادي» إسلام آباد (١٩٩٣).

نظام اقتصادي عن طريق إلغاء الفائدة. فإلغاء الفائدة يمكن دائماً أن يكون مجرد جزء من عملية تغيير عميقة ناجحة متعددة الجوانب، لتقليص الرأسمالية نظاماً[1]، أولتعديلها حتى لا تعارض النظام الإسلامي.

إن المشكلة تظل قائمة حتى في حالة التوصل إلى نظام لحسابات ادخارية دون فوائد، لأن أصحاب مثل هذه الحسابات يساعدون المصرف في منح قروض بفوائد. ناهيك عن أن المصرف يجد صعوبة في التعامل مع عملاء مسلمين يفكرون تفكيراً غير اقتصادي. ويتبين ذلك من رسائل أتلقاها بانتظام من المصرف الذي أتعامل معه، تقول: «السيد المحترم دكتور هوفمان، يُظهر حسابك الجاري في الوقت الراهن رصيداً مرتفعاً. ولذلك، فإننا نسمح لأنفسنا أن نلفت انتباهكم لإمكانات جذابة لاستثماره...».

إن المسلم الألماني، الذي يريد أن يتجنب شبهة مخالفة التحريم القرآني للمضاربة وللربا، لا يشارك على أي حال في أرباح ناجمة عن استثمارات لرأس المال ذات فوائد محددة سلفاً في حدود قيم معينة، أو من أعمال تتسم بالمضاربة في السلع أو الأسهم أو العملات. ويبقى له أن يوظف أمواله بوصفها رأس مال منتج في استثمارات تحوطها المخاطرة، كأن يشارك في شركة تجارية، أو يستثمر في صناديق استثمار، أو في أسهم (مستثمراً لا مضارباً). ولن يترتب على ذلك انهيار سوق المال الألماني.

يندرج تحت المبدأ الإسلامي بمحاربة البخل، الدعوة إلى نحر الأضحية (الحيوانات) في عيد الأضحى، وفي مناسبات أخرى، تكفيراً عن بعض الذنوب

(١) لنظرة شاملة لمجمل إشكالية نظام اقتصادي إسلامي، انظر: خورشيد أحمد في: إبراهيم أبو رابي(ed) «عودة الروح الإسلامية»، إسلام آباد (١٩٩٥). و «استبعاد الربا من الاقتصاد»، إسلام آباد (١٩٩٤).

أو المخالفات، وغير ذلك. ويصف القرآن والسنَّة كيفية النحر، ويضيف القرآن إلى ذلك ما هو أهم: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾. (سورة الحج - الآية ٣٧).

شهدت لأول مرة، في عام ١٩٨٢ في إسطنبول، كيفية نحر الأضحية، حيث شاهدت شاة تذبح على رصيف أحد الشوارع، في مناسبة افتتاح محل جديد لبيع الأحذية. ولقد أحسست بعدم الارتياح، وأنا أشاهد هذا المشهد. وما أزال حتى اليوم أشعر بعدم الارتياح، عندما أشاهد حيواناً يذبح، على الرغم من أنني شاهدت ذلك عشرات المرات.

إن المناسبة الرئيسية التي تنحر فيها الشياه، هي عيد الأضحى الذي يمثل ذروة شهر ذي الحجة، على نحو ما ذكرت بقدر كبير من التفصيل في الفصل الأول من هذا الكتاب. وفي الرباط، كانت الأمة كلها تنتظر لتشاهد على شاشة التلفزيون الملك الحسن الثاني وهو يؤدي واجبه في نحر الأضحيّة باعتباره أول من يفعل ذلك من أفراد الأمة. وكنت كجميع السفراء المسلمين أؤدي صلاة العيد مع الملك الحسن الثاني بمسجد أهل الفحص، في المنطقة التي يقع بها القصر. وبعد الصلاة، كان الملك يقوم بنفسه بنحر كبشين أملحين، مع وضع منديل أبيض في طريق انبثاق الدم. وبعد ذلك، شاهدت في مسكننا طاهينا (الطباخ)، وهو ينحر كبشين محاطاً بأسرته الكبيرة. وكان قد اشترى أحد الكبشين بنفسه، في حين كان الكبش الآخر «كبشاً ملكياً»، إذ كان هدية من الملك.

ويجوز لي، حسب الشريعة، أن أنيب عني من ينحر الأضحيّة، ولكن لابد لي من أن أكون حاضراً عملية النحر لأنطق بنفسي «باسم الله». ولم يكن يمضي سوى

ساعات قليلة قبل أن نكون قد انتهينا من أكل نصيبنا من الأضحيّة، وهو الكبد مشوياً. أما بقية الأضحيّة، فكنا نهديها في قطع كبيرة إلى العاملين الكثيرين بمنزلنا.

في المغرب، يعد ميلاد طفل جديد من أكثر المناسبات التي تنحر فيها الأضاحي. فلقد جرت العادة هناك على أن يدعو المرء إلى حفل إفطار كبير، في وقت متأخر عن الإفطار المعتاد، يقام بعد مولد الطفل بمدة من ثمانية إلى أربعة عشر يوماً. وفي هذه المناسبة تنحر شاة على الطوى (خالية المعدة)، أمام كاميرات الفيديو، أضحيّة شكراً لله وحمداً له على إتمام الولادة السعيدة (ويمكن أن ذلك أيضاً بهدف درء الحسد عن المولود).

تعد أسواق الأغنام قبل وقت قصير من عيد الأضحى حدثاً متميزاً. فبينما كنا في طريقنا من سبتة إلى الرباط في مايو عام ١٩٩٤، اعترضتنا أمام بوابات تطوان آلاف من رؤوس الأغنام محاطة ببائعيها. ومع ذلك، كانت البهجة تعم الجميع. وكانت وسائل النقل متعددة وغريبة، أحضرت لنقل الأغنام، تسد الطريق. وكان من نتيجة ذلك، أننا استغرقنا من الزمن ساعة ونصف الساعة حتى استطعنا أن نجتاز هذه السوق، الشبيهة بخلية نحل، ونواصل طريقنا.

كان انتقالنا إلى مسكن آخر مجدد في إسطنبول مناسبة أخرى لأن نقدم أضحيّة، تعبيراً عن الشكر لله. وكان أنسب مكان لذلك، هو المؤسسات الخيرية بمسجد السلطان أيوب عند القرن الذهبي. فهناك يدفع ثمن الأضحيّة، ويحدد كيفية توزيع لحمها، ويختار الشاة التي يضحّيها، ويشهد عملية النحر، وتطبع على جبينه، باعتباره المُضحّي، قطرة من دم الأضحية.

يتجاهل الناس في الغرب، في حياتهم اليومية، الحقائق غير المبهجة في

حياتنا، كتلك المتعلقة بالميلاد والشيخوخة والمرض والموت. فلا ينبغي لشيء دام أن يعكر صفو حياتنا النفسية الهادئة. فالمرأة التي تعاني آلام المخاض، تدخل غرفة التوليد، ثم تخرج إلى زوارها في أبهى زينتها. وفي المستشفيات الحديثة، يتحول المرضى إلى نزلاء في فندق. ويُودَعُ المسنُّون في مأو (دُور) مخصصة لرعايتهم، ومن ثم تُبعَد كلمة «مسن» عن أن تقلقنا. وعندما يتعلق الأمر بالموت يجد المرء في أمريكا نفسه وقد غاب في «دار آخرة». . فيالها من سخرية!

أما فيما يختص بالحيوانات، التي كدت أنساها، فإنها تذبح على نحو متكرر، دون أن نرى أو نشم أو نسمع عملية ذبحها. ولكنها تأتينا كقطع للأكل في صورة صدور أو أوراك نظيفة معقمة مغلفة لنخرجها من جهاز التجميد (الديب فريزر) إلى الموقد مباشرة. . . باختصار شديد. . . بطريقة إنسانية.

إن نحر الحيوان بوصفه أضحية في واقع الأمر مسألة حياة وموت. فالحيوان يفقد حياته إن عاجلاً وإن آجلاً، كما نفقد نحن أيضًا حياتنا إن عاجلاً وإن آجلاً. ولكن الفرق بين الحالتين، يكمن فيما إذا كان الموت يحدث كأمر لا مفر منه، يعي المرء حتميته كجزء من إيمانه بالله، أو إنه يحدث نوعاً من موت ذليل.

ومع ذلك، دعونا نتذكر أنه لا ينال اللهَ دمُ الأضحية ولا لحمُها، وإنما يناله معنى الإجلال وتقوى الله وشكره، الذي تنطوي عليه الأضحية. والعبرة لمن يعتبر!!

الفصل التاسع

فتش عن المسلمة

ينطبق التعبير البلاغي «فتش عن المرأة» على العالم الإسلامي أيضاً. فإذا كان حقاً ما يقال في الغرب من أن وراء كل رجل ناجح امرأة، فإن وراء كل مسلم ناجح امرأة مسلمة.. ليست جارية، وإنما شريكة حياة محبوبة. ومن ثم: «فتش عن المسلمة»!

وقبل التطرق إلى تفاصيل هذا الـ «تقرير عن وضع المرأة في الإسلام»، أود أن أشير إلى بعض الأحكام العامة، وهي:

١ - تشبه النساء المسلمات أخواتهن الغربيات أكثر كثيراً مما يعتقد المرء في أوربا ففي كل من العالمين، تضطلع المرأة بأدوار الزوجة، والأم، والمحبوبة، والفنانة، والسياسية، والصحفية، والشاعرة، والطبيبة، والممرضة، والجدة، والشيخة، والساحرة.. وغير ذلك كثير.

٢ - تسعى الغالبية العظمى من النساء في الشرق، كما هي الحال في الغرب، إلى التكامل مع الرجال، وليس إلى محاكاتهم أو تقليدهم.

٣ - يختلف المثال (النموذج) الإسلامي عن الممارسة فيما يختص بتطبيق حقوق المرأة، على النحو الذي أورده القرآن، مثلما يختلف في أمور أخرى كثيرة. وهذه ظاهرة معروفة في حضارات أخرى، وبصفة خاصة، فيما يتعلق بالواقع الفعلي للمرأة.



نأتي بذلك إلى التفاصيل :[1].

ونبدأ بـ «عقد الزواج». فنادراً ما تجبر النساء في بلاد المسلمين على الزواج، وإن كان ذلك يحدث في بعض الأحيان. ومع ذلك، فكثيراً ما لا تتوافر لهن فرصة كافية لاختيار شركاء حياتهن، لأن التقاليد تحول دون ذلك، ولذا يتم الكثير من الزيجات حتى الآن عن طريق ترتيبات الأهل في جميع بلدان العالم الإسلامي، من باكستان مروراً بإسطنبول والمغرب إلى موريتانيا. في هذه الأجزاء من العالم، يسود اعتقاد بأن خبرة الأهل توفر ضمانة لزواج ناجح وسعيد أكثر مما يوفره الحب بين الشباب. ولقد ثبت بالفعل، أن الزيجات التي ترتب على هذا النحو ليست أقل استقراراً من الزيجات التي تتم عن طريق الحب. ولكن الاستقرار ليس دليلاً مؤكداً على زواج ناجح، إلا في حالة ما إذا كانت الزوجة مستقلة اقتصادياً عن زوجها، بحيث تستطيع أن تتركه إذا أرادت.

غالباً، ما يجري اكتشاف عروس المستقبل بوساطة حماة المستقبل. وليس هناك مكان أفضل لذلك من الحمام (الحمام التركي)، حيث لا يرتدي المرء ملابس على الإطلاق، ومن ثم، لا تستطيع فتاة شابة أن تخفي ما قد يكون بجسدها من عيوب، في حين تلتقي في هدوء ومودة بعدد كبير من الحموات المحتملات.

على أي حال، يحرص الوالدان، أو الأوصياء على أن يتم الزواج الإسلامي التقليدي على أساس «عقد زواج» يصاغ بدقة وعناية، على نحو يجعل من غير الممكن أن يتزوج الرجل زواجاً ثانياً، ويؤمن الزوجة مالياً عند حدوث طلاق بالنص على مؤخر صداق كبير. وثمة أسلوب، يتسم بالدهاء، لتحقيق الاستقرار للزواج، يتمثل في النص على أن يؤدى الصداق (المهر) كاملاً أو جزئياً في حالة

(١) عن حقوق المرأة في الإسلام، انظر: مراد هوفمان: «الإسلام كبديل» (٤١) ص ١٦٣ . ص ١٨٥ .

وقوع الطلاق. ومن ثم يصير الطلاق بالنسبة للزوج، كما هي الحال في القانون الألماني الجديد، مخاطرة مالية لا يستطيع أن يتحملها.

يؤدي ارتفاع المهر في مجتمع ما، كما هي الحال في السعودية، إلى اضطرار الشباب إلى البحث عن زوجات أجنبيات، وبصفة خاصة من مصر وتركيا. فلقد صارت النساء السعوديات بعيدات المنال، بالنسبة لكثيرين من الشباب، لأسباب مالية، وهذا المَخْرج غير متاح في الإمارات العربية المتحدة، حيث لا يسمح، بسبب الخوف الشديد من خطر غلبة السكان الأجانب، لابن البلد إلا بالزواج من ابنة بلده. وحتى يكون ذلك ممكناً من الناحية المالية، يمنح أمير (أبو ظبي) إعانة لكل زيجة من هذه الزيجات، بلغت في عام ١٩٩٣ خمسين ألف دولار.

وكانت مشكلة المغالاة في المهور قد ظهرت في عهد الخليفة الثاني (عمر بن الخطاب) وأراد عمر لذلك أن يضع حداً أقصى للمهر. ولكنه ما لبث أن تراجع عن عزمه، عندما جادلته امرأة في المسجد بأن القرآن يمنع استرداد ما أخذته المرأة مهراً.

والزواج في الإسلام ليس سراً من الأسرار، وإنما هو عقد. ولكن يفصل بين عقد القران وحفل الزفاف، في بعض الأحيان، عام أو عامان. ولقد دُعينا في المغرب إلى حضور حفل عقد قران، وبعده بعام كامل دُعينا إلى حضور حفل زفاف العروسين.

لقد تزوجت في إسطنبول عام ١٩٧٧ حسب الشريعة الإسلامية، مع تقديم شهادة «الأهلية للزواج» الألمانية، أساساً لتوثيق الزواج المدني، وفقاً للقوانين التركية. وكانت الطقوس شديدة البساطة، واقتصرت في الواقع على الصلوات. واستطعنا أن نتغلب على مشكلة المهر المرتفع، حيث إن زوجتي أصبحت، بموجب عقد القران، مستحقة لمعاش من إدارة المعاش في بون.

كانت حفلات الزفاف في العالم الإسلامي، وما تزال، تتسم بالبذخ الشديد، ولكنها تختلف في طقوسها من منطقة إلى أخرى. ومع ذلك، فهناك على أساس الحقوق العائلية الإسلامية خصائص مهمة مشتركة. مثال ذلك ما هو معتاد في كل مكان من احتفال كل من الرجال والنساء على حدة بليلة الحناء، ومن تأمين الرجل لعروسه في مواجهة الشيخوخة بإهدائها حليًا ومشغولات ذهبية عالية القيمة. (ومن المعروف، أن الزوجة، وفقاً للشريعة الإسلامية، تتمتع بذمة مالية مستقلة منذ ١٤٠٠ عام). وكثيراً ما خشيت في تركيا من أن تسقط العروس تحت وطأة ما تحمله ليلة زفافها من خواتم وسلاسل ذهبية وساعات مذهبة.

تشترك الأفراح من تركيا إلى المغرب في ذلك الاتجاه المتزايد نحو إشاعة الضوضاء باستخدام أجهزة صوت إليكترونية أكبر فأكبر. فمن الأمور المستحدثة، عندما يحتفل بالزفاف في أحد الفنادق الكبيرة بإسطنبول، إطلاق صاروخ ألعاب نارية عند بدء الاحتفال، على نحو يثير الذعر في المدينة كلها. وفي المغرب، بلغت هذه المساوئ مستوى غير مسبوق. فلقد صارت حفلات الزفاف هناك منذ ما يقرب من ١٥ عاماً عذاباً سمعياً للمشاركين فيها ولغير المشاركين على السواء، ممن يضع حظهم العاثر مساكنهم في محيط يبعد ٢ كيلو متر عن مكان الاحتفال بالزفاف.

والأمر يبدو كما لو أن الناس ترفع شعار «لا ينبغي لأحد أن ينام يوم عرس ابنتي»! ويبلغ ضجيج الاحتفال حداً يعجز المرء عنده عن سماع من يجلس إلى جواره حول منضدة واحدة.. بل إن المرء يظل يشعر في اليوم التالي كما لو كان نصف أصم! لذلك، فقد عقدت العزم بكل الجدية على أن أستخدم في حفل الزفاف التالي غطاء الأذن الذي كنت أستخدمه في أثناء تدريبي على الرماية.

من المعتاد في المغرب، أن تطلع العروس على ضيوفها في أثناء الاحتفال بسبعة أثواب متتالية، بما يناسب كلاً منها من حلي - على نحو ما تصف شهر زاد في الليلة الثانية والعشرين من ألف ليلة وليلة - ويشبه الثوب الأخير (للأسف) ثوب زفاف أوربي. أما الأثواب السابقة عليه، فأثواب رائعة الألوان، تمثل المناطق المختلفة للمملكة.

جرت العادة في المغرب على وجه الخصوص، كما هي الحال عند المسلمين الهنود، أن تحمل العروس، جالسة في قفص من أسلاك الفضة على أكتاف شيخات قويات يؤرجحنها يمنة ويسرة. في حين يدخل (العريس) إلى القاعة محاطاً بموسيقيين سمر البشرة من مراكش، يعلن عن وصوله بأصوات بآلات النفخ والإيقاع شديدة الارتفاع دون أجهزة صوت إليكترونية.

يجلس العروسان الليلة بطولها في (كوشة)، لا يتحدثان ولا ينظر بعضهما إلى بعض امتثالاً لما تفرضه التقاليد العريقة في ريف الأناضول حتى اليوم. أما في المدن التركية، فالأمر يختلف إلى حد ما، إذ يجلس العروسان في بادئ الأمر في مواجهة المدعوين، غير أنه يجوز لهما التحدث معاً، كما يجوز لهما الاختلاط مع المدعوين في أثناء الحفل.

شهدنا هذا البذخ الشديد نفسه، والطقوس ذاتها، والطعام ذاته، والمشروبات غير الكحولية نفسها، في حفلات زفاف عند علية القوم وعند بسطائهم على السواء. . . عند سائق سيارتي الحاج محمد جينيها في مدينة صالة، ومرشدنا الصغير غير الرسمي إدريس في فاس. . وفي حفلات زفاف بنات وزراء في الرباط. والاختلاف الوحيد بين أولئك وهؤلاء، هو أنه كلما كان الناس أشد

بساطة كان المضيف أكثر وداً وترحيباً بالضيوف، وكان الحفل أكثر بهجة .



ليس ثمة ما ينعش الخيال الجنسي عند مواطن أوربي أكثر من تصوراته الخاطئة عن الجنس في الإسلام، فإذا كان يظن أنه يعرف شيئاً واحداً عن الإسلام، فهو أن المسلمين - هؤلاء الشهوانيين - لهم الحق في أن يتخذوا «أربع زوجات». وهنا يسيل لعابه. لكن حتى هذه المعرفة البسيطة خاطئة، ولا تطابق الحقيقة.

وهي خطأ، لأن القرآن يشترط لممارسة هذه الإباحة شرطاً يكاد يكون من المستحيل الوفاء به، وهو تحقيق العدل بين الزوجات، بحسب نص الآية ١٢٩ من سورة النساء: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

وهي ليست حقيقة أيضاً، لأن الزواج بواحدة في واقع الأمر ليس أقل شيوعاً في العالم الإسلامي منه في الغرب. والزواج بامرأة واحدة أكثر استقراراً في العالم الإسلامي منه في المتوسط في أمريكا أو السويد أو ألمانيا، بحسب ما تبينه الإحصاءات.

وعلى الرغم من أنني تجولت كثيراً مدة طويلة في العالم الإسلامي - العربي، فإنني لا أستطيع أن أتذكر سوى حالات قليلة جداً لتعدد الزوجات. ولعل مما يثير الدهشة، أن رجل أعمال مصرياً يعيش في حي سُويسي بالرباط متزوج من أربع زوجات جميعهن ألمانيات، ويبدو عليهن جميعاً أنهن أسعد كثيراً من النساء في الغرب. ويمكن للمرء أيضاً أن يرى في إسطنبول في فصل الصيف عربياً أو آخر يصطحب زوجتين أو ثلاث زوجات، جاء معهن هرباً من حر شبه الجزيرة

العربية، ليقيموا في فندق طرابيه - البوسفور. ويستفيد من ذلك في المقام الأول تجار الساعات وتجار الحلي والمجوهرات، المنتشرون في السوق، إذ إنه ينبغي على مثل هذا الرجل متعدد الزوجات أن يهدي إليهن جميعاً الهدايا نفسها، أو ألا يهدي لأي منهن شيئاً، إذا أراد أن يحقق شرط العدل بينهن.

ولقد شاهدت في ديسمبر عام ١٩٩٣ في (أبو ظبي) واقعة مرتبطة بتعدد الزوجات، تشير إلى مدى مراعاة الإنصاف أو العدل الوارد في القرآن بخصوصه. وكان ذلك عندما رأيت في مطعم الأسماك على بحيرة فندق إنتركونتيننتال رجلاً إماراتياً شاباً بصحبة زوجاته الأربع الأصغر منه سناً، وهن جميعاً في العمر نفسه تقريباً ومتشابهات كثيراً، ومعهن أربعة أطفال في العمر نفسه تقريباً.

لا يفوتني أن أذكر أن أحد زملائي من سفراء إفريقيا السوداء، كان يصطحب معه زوجة في الرباط، في حين يترك زوجة أخرى له في وطنه، تماماً كما لو كان يعمل بمبدأ البحارة: «عروس في كل ميناء».

وينبغي أخيراً أن أذكر «ماريام جَميله»، وهي يهودية أمريكية مثقفة اعتنقت الإسلام. فلقد اختارت، بعد بحث، أن تكون واحدة من زوجات متعددات، في باكستان حيث تعيش الآن بوعي تام، مثلما عاشت «أمهات المؤمنين» زوجات الرسول ﷺ.

يتبين من خبراتي، التي قدمتها في قائمة صغيرة مفصلة، أن تعدد الزوجات بما يتفق وهدف القرآن لا يمثل مشكلة للإسلام بصفة عامة. وإذا جاز لي بوصفي مسلماً أن أراهن على شيء فإنني أراهن على أن تعدد الخليلات في العالم الغربي أكثر من تعدد الزوجات في العالم الإسلامي.



يعد الزواج الإسلامي شيئاً سيئاً وفقاً للتصور الغربي، حيث يتوهم كل امرئ هناك أن المسلمة تستعبد وتضرب. ولكنني أزعم، بقدر ما يتاح لي من المعرفة، أن غالبية النساء في العالم الإسلامي يحيين مع أزواجهن في علاقة مشاركة، تحقق لهن ذواتهن، حتى في بعدها الجنسي، (ونحمد الله على أن عملية ختان الإناث التي تشوه المرأة مجرد عادة من العادات المنتشرة في إفريقيا السوداء، وأنه لاعلاقة لها بالإسلام البتة).

صحيح أنه في معظم الزيجات الإسلامية، تسود نزعة «الأبوية»، حيث تؤخذ حماية المرأة مأخذ الجد من جانب زوجها وإخوتها على السواء، حتى إنه ينظر إليه من منظور تحرري على أنه تضييق لنطاق حريتها. ومن الواضح أن مفهوم شرف العائلة يلعب دوراً حاسماً في هذا الشأن. فالرغبة في حماية المرأة، وليس النزوع إلى امتلاكها، هي التي تغذي الموقف الذي نفسره خطأ على أنه الغيرة. فالظاهرة، إذا ما نظرنا إليها من قرب، لا علاقة لها بالغيرة، بل إنه على العكس من ذلك يسعى معظم الرجال المسلمين إلى إبعاد زوجاتهم عن مواقف حرجة، حتى لا يضطروا إلى العراك مع أحد قد يثرنه بما يرتدين من ثياب مثيرة.

وتأتي عذرية الفتاة في مقدمة ما يحرص الأب والإخوة في العالم الإسلامي على حمايته. وفي بعض الأنحاء، كما هي الحال في مناطق الأكراد في تركيا، تنبذ الفتاة «الساقطة» بسبب ما جلبته للأسرة من عار، بل إنها قد تقتل أيضاً. ويعني فقدان عذرية الفتاة، على أي حال، تضاؤل فرص زواجها زواجاً كريماً. ولا يندهش أحد من أن الجراحين، الذين يستطيعون إصلاح كل شيء بإبرة ماهرة، يربحون من هذا الوضع.

وفي بعض الأحيان، يمكن أن يصل العمل من أجل حماية المرأة إلى حدود

مبالغ فيها. ففي المغرب، على سبيل المثال، لا يسمح للمرأة - حتى وإن كانت تحمل جواز سفر خاصاً بها - أن تسافر إلى خارج البلاد، ما لم تقدم إلى السلطات المختصة في المطار تصريحًا لها بالسفر من زوجها.

تعود ظاهرة حماية الرجل للمرأة، حتى وإن لم تر هي أنها في حاجة إليها، بجذورها إلى جملة استهلالية في آية من آيات القرآن، فسرت منذ قرون من الزمن بما يفيد تفوق الرجل على المرأة، لأسباب تتعلق بالجينات أو ببنية الجسم، وهو ما كان له عواقب مأساوية على المرأة. هذه الآية هي الآية ٣٤ من سورة النساء، وهي في ترجمة ألمانية مهمة، وفيها نقلته أنا من الترجمة الفرنسية والترجمة الإنجليزية للقرآن إلى الألمانية، تبدأ على النحو التالي[١].

١ - «الرجال متفوقون على النساء». (م. سافاري M. savary).

٢- «للرجال أفضلية على النساء». (بلزا تيجاني Pelse Tidjani).

٣- «الرجال قادة النساء». (حميدو الله Hamidullan).

(١) لقد استعنت بترجمات القرآن التالية: محمد علي: «القرآن المقدس»، زيورخ (١٩٥٤). يوسف علي: «القرآن المقدس» (باللغة الإنجليزية)، الطبعة ١٢، برنتوود (١٩٨٩). محمد أسد: «رسالة القرآن» (باللغة الإنجليزية)، جبل طارق (١٩٨٠). جاك بيرك: «القرآن» (باللغة الفرنسية)، باريس (١٩٩٠). حمزة بوباكير «القرآن» (باللغة الفرنسية)، الطبعة الثالثة، باريس (١٩٨٥). لازاروس جولد شميت: «القرآن» (١٩٢٠) فيزبادن (١٩٩٣). محمد حميد الله: «القرآن المقدس» (باللغة الفرنسية)، الطبعة الثالثة عشرة، برنتوود (١٩٨٥). ماكس هنّنج: «القرآن»، ليبزج (١٩٠١). عادل خوري «القرآن»، جتّير سلوه (١٩٨٧). دينيس ماسون «القرآن» (باللغة الفرنسية) باريس (١٩٦٧). دينيس ماسون وصبحي الصالح: محاولة لتفسير القرآن» (باللغة الفرنسية)، القاهرة بيروت (١٩٨٠). صدوق مازغ «القرآن» (باللغة الفرنسية)، باريس (١٩٨٥). رودي باريت «القرآن»، شتوتجارت (١٩٧٩). محمد رسول: «القرآن الكريم»، الطبعة السابعة، كولونيا (١٩٩٥). مجموعة من المترجمين: «القرآن المقدس» (باللغة الفرنسية)، المدنية (١٧٨٣). م. سافاري: «القرآن» (باللغة الفرنسية» باريس (١٨٣٩).

٤ - «للرجال سلطة على النساء» . (بوباكيور ، وماسون ، Boubakeur & Masson وترجمة سودانية رسمية) .

٥ - «للرجال حق الرقابة على النساء» . (ماتسيه Mazigh) .

٦ - «يتقدم الرجال النساء في المسؤولية» . (رسول Rassoul) .

٧ - «للرجال منزلة أعلى من منزلة النساء» . (جولد سميث Goldschmidt) .

٨ - «الرجال أعلى من النساء» . (باريت Paret) .

٩ - «الرجال متفوقون على النساء» . (هيننج Henning) .

١٠ - «الرجال مسؤولون عن النساء» . (م . علي M.Ali) .

تؤدي كل هذه المعاني والتفسيرات في نهاية الأمر إلى نتيجة مفادها أن الرجل رئيس زوجته .

وحمداً لله ، أن النص العربي ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ لا يحمل المعنى المشار إليه ، ولا الدلالات التي سبق لي أن أوردتها . فهذه الكلمات الأربع تعني ، بموضوعية من دون انحياز للرجال ، أن الرجال مسؤولون عن رعاية النساء والقيام بشؤونهن . وهي تعني ذلك ، كما يتبين من بقية نص الآية ، لأن الرجل مسؤول عن صيانة زوجته ، باعتبار أنه قد يكون الأقوى جسدياً ومالياً . فإذا كانت هي الأقوى جسدياً أو مالياً لا يجوز له أن يفرض حمايته عليها .

هذه ليست الحالة الوحيدة التي يكيف فيها الرجال فهمهم للقرآن ، وفقاً لممارساتهم وسلوكهم في الواقع ، بدلاً من تكييفه لأحكام القرآن الودودة تجاه النساء والرفيقة بهن .

لَفَتَ عبد الله بتوريك ، رئيس جمعية المسلمين الألمان ، وفتحي عثمان عالم

الإسلاميات المصري (لوس أنجلوس)، الانتباه إلى أنني لست الوحيد الذي يدعو إلى تغيير الفهم الخاطئ لهذه الفقرة القرآنية المثيرة للجدل. ولقد بدأ المرء في العالم الأنجلو ساكسوني بالفعل في تغيير مفهومها على النحو التالي:

١- «ينبغي على الرجال أن يعنوا عناية كاملة بالنساء». (أسد Asad).

٢- «ينبغي على كل الرجال أن يدعموا ويسندوا النساء» (إرفينج Irving).

٣- «الرجال حماة وكفلاء النساء». (ي. علي Y.Ali).

٤- «الرجال يعولون النساء». (بيرك Berque).

٥- «الرجال وكلاء ومسؤولون عن النساء». (خوري Khoury).

إن علينا إذن أن نضع حداً لتصور أن الرجل يتمتع من حيث المبدأ بوضع متميز بالنسبة لوضع المرأة. ومع ذلك، تبقى هناك حالة واحدة لا غنى للمرأة فيها عن حماية رجل، وهي الحج. إذ ينبغي عليها في جميع الأحوال أن تكون مصحوبة بـ «مَحْرَم» زوجها، أو أي من الأشخاص الذكور «المُحَرَّم» عليها الزواج بهم. فليس من الضروري أن يصحبها زوجها فحسب، وإنما يمكن أن يصحبها والدها أو أحد أشقائها، طالما أنهم مسلمون.

وهذا أمر يسبب متاعب كثيرة للسلطات السعودية، لأنه يوجد في القرن العشرين ما كان من النادر أن يوجد في القرن السابع، وهو وجود مسلمات وحيدات (غير متزوجات)، لا يوجد بين أفراد أسرهن مسلم آخر غيرهن. ومن بين هؤلاء، مسلمات ألمانيات عرفن الطريق إلى الإسلام بمفردهن، ويسعين إلى أداء فريضة الحج سنة بعد أخرى، غير أنهن لا يستطعن بلوغ غايتهن بسبب عدم وجود محرم (تغاضت السفارة السعودية في بون مرة واحدة عن شرط مصاحبة محرم في حالة مسلمة حديثة الدخول في الإسلام، كانت أرملة عمرها ٨٠ عاماً).

وهناك بطبيعة الحال من يلجأ، في سبيل أداء فريضة الحج، إلى عقد قران حسب الشريعة الإسلامية، خروجاً من مشكلة المحرم، ولكنه قد لا يكون مسبوقاً بزواج رسمي، فيترتب على ذلك تعارض مع القانون، لا يلبث أن ينهي الزواج الوهمي (الشرعي) ما لم يسبقه زواج رسمي.

وعلى الرغم من هذه الحماية المقامة على المرأة، أو لعله بسببها، فإن حياة الأسر المسلمة ليست أقل هدوءاً ووداعة من حياة الأسر الألمانية. وكثيراً ما يكون للنساء، وبصفة خاصة لأم الزوج، الكلمة العليا (والكلمة الأخيرة). فظاهرة خضوع الرجال لزوجاتهم ظاهرة عالمية.

هناك بطبيعة الحال حالات اعتداء بالضرب على النساء، وبصفة خاصة من أزواج مخمورين، ولكنها لا تزيد على حالات ضرب الأزواج لزوجاتهم في أوربا، إن لم تكن أقل منها بسبب الاختلاف بين أوربا والعالم الإسلامي فيما يختص بمدى انتشار تناول الخمور.

فالعنف الذي يمارس ضد المرأة في الأسرة الإسلامية لا يرجع إذن إلى أصول في الشريعة الإسلامية، تماماً كما أن دُور إيواء النساء، اللائي يتعرضن للإيذاء البدني من جانب أزواجهن، ومعهن أطفالهن، لا تستند إلى أصول في الديانة المسيحية.

يؤسفني أنني اضطررت إلى هدم هذا الحكم السابق على الإسلام من جانب الأوربيين، وخصوصاً أنني أدرك مدى ما نشعر به من ارتياح عندما نستنكر أخلاق قوم آخرين. ولكن لماذا ينبغي أن يكون الإسلام هو كبش الفداء؟! أليس هناك غيره؟!

إذا نظرنا إلى تحقيق المرأة لذاتها في مجال العمل المهني، فسنرى أن الوضع في معظم البلدان الإسلامية يبعث على التفاؤل. فعملية محو الأمية بين الفتيات تتقدم بخطى واثقة وناجحة، وإن تكن بطيئة إلى حد ما بسبب ما تلقاه من معارضة من جانب بعض الأسر. وترتفع نسبة الأكاديميات في بلدان مثل تركيا، والمغرب، ولبنان وسوريا، ومصر بالمقارنة بنسبتهن في السعودية، واليمن وبلدان الخليج. وتتساوى أعداد الطبيبات، والمحاميات والصحفيات، والكاتبات، وأستاذات الجامعات في تركيا مع مثيلاتها في كل من مصر والمغرب. وتسمح هذه البلدان، ومعها أيضاً الإمارات العربية المتحدة، بانضمام الفتيات بها إلى قواتها المسلحة.

وتتولى المرأة في البلدان الإسلامية رئاسة الحكومة. فهناك تانسو تشيلر، وبناظير بوتو. وفي اعتقادي أنه ما يزال أمام ألمانيا المتحررة طريق طويل قبل أن تصل المرأة فيها إلى رئاسة الحكومة. ولكن تتشابه أوربا والعالم الإسلامي في الانخفاض الشديد في أعداد النائبات البرلمانيات. ويرجع ذلك إلى ضعف إقبال النساء على انتخاب نساء لعضوية البرلمان. ومن ثم، فإنهن يساعدن على استمرار توزيع الأدوار في هذا المجال على حاله (لم تدخل المرأة البرلمان في المغرب حتى عام ١٩٩٣ الذي انتخبت فيه امرأتان لعضويته). فيما عدا محكمة الأحداث، ما يزال شغل منصب القاضي مجالاً مغلقاً في وجه المرأة. وتقتصر على الرجال ممارسة النشاطات المتصلة بتنفيذ أحكام دينية، مثل النشاطات التي يمارسها الخليفة والإمام والمؤذن والقاضي. وهذا أمر لا تختلف فيه وجهة النظر الإسلامية عن كل من وجهة النظر الكاثوليكية والأرثوذوكسية، واليهودية. وليس ثمة أمل في أن يتغير هذا الوضع قريباً.

لا تقوم المرأة بدور في الحياة العامة، في البلاد الإسلامية كلها. ففي السعودية، لا يجوز للمرأة أن تقود سيارة، ولا أن تعمل مذيعة تلفزيونية، ناهيك عن أن طالبات الجامعة يتابعن أساتذتهن من خلال شاشة تلفزيونية، وتختلف هذه الطريقة في حجب المرأة عن الطريقة المتبعة للفصل بين الجنسين عقب انتهاء حفلات العشاء الرسمية المختلطة، على نحو ما يجري في العالم الإسلامي وفي بريطانيا. فعادة ما يتجه الرجال إلى صالون (يسمى في التركية زلملك)، في حين يتجه النساء إلى صالون آخر (حرملك). ولا يجري هذا الفصل بدوافع دينية، وإنما لأسباب عملية، إذ غالباً ما تكون الموضوعات التي يدور حولها حديث أحد الجنسين غير شائقة للجنس الآخر.

إنني لا أوافق بحال من الأحوال على معاملة الرجل لزوجته كما لو أنها طفلة، كما هي الحال عند البوظابتيين بالجزائر الذين يرون أن اهتمامات المرأة تنحصر في المطبخ، والأطفال، والمستشفى، والملابس، والمجوهرات. ولقد تناقشت في هذا الأمر مع مثقفين، ذوي ثقافة عالية، متسائلاً كيف يرضى الرجل بزوجة مثل الطفلة؟! وكانت الإجابة التي تلقيتها مذهلة، إذ قالوا إن المرء منا لا يقضي في نهاية الأمر أوقاتاً طويلة مع زوجته!

ومن ثم، فإنه يترتب على الاختلافات المذهبية، إلى جانب اختلاف المقومات الحضارية، اختلافات في ملبس المرأة المسلمة من بلد إسلامي إلى آخر، ومن جماعة مسلمة إلى أخرى. فملابس المرأة المسلمة تختلف في إندونيسيا عنها في باكستان، وفي الأناضول، وفي جنوبي الجزائر.

تستطيع العين المجردة أن تميز خطين فاصلين في العالم الإسلامي. يفصل الخط الأول منهما بين المرأة التي تغطي شعرها، والمرأة التي تكشف عنه. وبناء على طلب من الملك محمد الخامس، خلعت إحدى قريباته غطاء رأسها على نحو يكاد يكون استعراضياً.

ومنذ ذلك الحين، تكشف النساء في المغرب شعورهن في معظم الأحوال. وترتفع نسبة النساء اللائي يكشفن رؤوسهن في المدن الكبرى بالجزائر والأردن وسوريا وتركيا.

ويفصل الخط الثاني بين المرأة التي تغطي رأسها فقط، وتلك التي تغطي وجهها بالإضافة إلى رأسها. فما يزال المرء يصادف حتى الآن في بعض البلدان الإسلامية حجاب الوجه، فيراه بشكل فردي، وعلى نحو متراجع، في المغرب، وإسطنبول، ودبي، وغيرها. وليس لحجب الوجه من سند في القرآن. بل إنه من غير المسموح للمرأة أن تغطي وجهها في الحج.

بعد أن أدَّينا العمرة في عام ١٩٨٢، اضطرت زوجتي إلى حجب وجهها خلف أربع طبقات من نسيج شفاف. وعلى الرغم مما يترتب على ذلك من إعاقة لحركة السير، فإن زوجتي قد وجدته أمراً عملياً، حيث إنه يمكنها من الخروج في أي وقت دون أن تكون في حاجة إلى تصفيف شعرها، أو إلى وضع مساحيق على وجهها.

(لهذا السبب، يفضل بعض النساء في الغرب أيضاً تغطية الرأس بإشارب، ووضع نظارة شمسية داكنة على العينين).

إن من يرغب الآن في رؤية حجاب مبالغ فيه، عليه الذهاب إلى اليمن، حيث ما يزال بعض النساء يرتدين أقنعة مصنوعة من الجلد، أو إلى جنوبي الجزائر في ميزاب، حيث لا يظهر من المرأة سوى عين واحدة، وإذا رآها رجل أدارت وجهها نحو الحائط.

من الخطأ، أن يتصور بعضهم أن ارتداء الملابس الإسلامية المحتشمة، بما في ذلك ارتداء غطاء للرأس، أمر يفرضه على النساء أزواج غيورون. . . فمن ترتدي الحجاب، إنما ترتديه ابتغاء مرضاة الله وفي طاعته، ولكي يعرف عنها الاحتشام والوقار. والمسلمات الألمانيات خير دليل على ذلك. فالعديد منهن اهتدين إلى الإسلام وحدهنّ، ودون أن يكون في أسرهن رجل واحد مسلم. ولكنهن يتعرضن مع ذلك لمضايقات في الحياة العامة، إذ يتندر عليهن بعضهم بسبب ما يرتدين من ثياب، أو ينظر إليهن بعين ملؤها الشك.

وعلى الرغم مما تجلبه الملابس الإسلامية من مضايقات للمسلمات الألمانيات، فإن لها مزايا أو إيجابيات، إذ إنها ترشد إلى دينهن، فيتعرف عليهن من يريد أن يحاورهن حول الإسلام، وهو ما يرحبن به لتأكيد إيمانهن. ناهيك عن أن الكثيرات منهن يرتحن إلى حماية ملابسهن لهن من الظهور كسلعة في سوق الشهوات.

ولقد أبدت الغالبية من أخواتي المسلمات إعجابهن بكتابي: «الإسلام كبديل»، ولكن ساءهن فيه نقطة واحدة، عبرت فيها عن انحيازي للرأي القائل: إن غطاء الرأس يصبح ضرورياً فقط عندما يؤدي كشفه إلى إحداث إثارة جنسية (ص١٨٠). وفي يوليو عام ١٩٩٣، تلقيت دعوة من بعض المسلمات الألمانيات، في بيت الإسلام ليتسيلباخ، ليعبرن لي في جو يسوده الود والصداقة

عن خيبة أملهن بسبب ما أعلنته من انحياز للرأي المشار إليه . وعلى أي حال ، فإنني أتمنى ألا يجد القارئ صعوبة في أن يعترف بأن الإسلام أغنى وأعمق من مجرد غطاء رأس المرأة .



من الأمور التي لا يجوز أن توجد في العالم الإسلامي ، مسألة وجود أطفال غير شرعيين . ولا يمكن تسويغ وجود هؤلاء الأطفال باستهجان الإسلام تنظيم النسل ، واستخدام وسائل منع الحمل ؛ فهناك كثير من خطباء المساجد يؤيدون تنظيم النسل ، ويدعون المؤمنين إلى مراعاة واجبهم نحو المجتمع ، مع أخذ خطر الانفجار السكاني في العالم بعين الاعتبار . ولكن من المرجح ، أن كثيرين من المستمعين ، الذين ينظرون إلى الأطفال على أنهم ضمان وعنصر أمان لهم في شيخوختهم ، يحدّثون أنفسهم قائلين : دع الإمام يخطب ، ودعك منه . وهو على النقيض تماماً مما يحدث في الكنائس الكاثوليكية ، عندما يصب الكاهن جام غضبه على تنظيم النسل ، إذ يحدّث الكثيرون من المؤمنين أنفسهم قائلين : دع الكاهن يتحدث .

يمنع الإسلام التدخل لإنهاء حمل حدث بالفعل ، حتى لو كان الحمل سفاحاً . فالغالبية من علماء المسلمين ، ينظرون إلى الإجهاض على أنه جريمة ضد الحياة . . جريمة قتل لإنسان لا يستطيع الدفاع عن نفسه . وكان بعضهم قد اعتنق الرأي الذي يقول بالسماح بالإجهاض حتى نهاية الشهر الرابع ، أي حتى تبعث الروح في الجنين . ولكن هذا الرأي فقد حجيته تماماً ، وهو ما أعلنه بصراحة ووضوح تامّين المؤتمر الدولي للسكان والتنمية الذي عقد بالقاهرة في سبتمبر عام ١٩٩٤ .

لا يعطي الإسلام اسماً ولا حقوقاً للأطفال غير الشرعيين ، لأنهم غير متوقعين

بحسب مبادئه وقيمه. ولذلك، يجد الطفل غير الشرعي نفسه في موقف شديد السوء، ما لم يعالج والده الأمر ويعترف به، ويضمه إلى أسرته، بدلاً من التخلي عنه ونبذه.

وتعود مشكلة الأطفال غير الشرعيين في الإسلام إلى نهيه عن التبني، فليس من حق الوالدين، أن يتنازلا نهائياً عن نسب طفلهما إليهما. وليس من حق الأم لطفل غير شرعي، أن تتنازل نهائياً عن حقها في الأمومة، ومن ثم فإن أحداً لا يستطيع تبني طفل غير شرعي ولكنه يستطيع رعايته فقط، وهذه الرعاية أمر يمكن الرجوع عنه في أي وقت.

ومن وجهة نظر إسلامية، يتعرض الأطفال بالتبني لصدمة لا داعي لها، تسبب لهم جرحاً لا يندمل، عندما يكتشفون – وهو أمر لا مفر منه في يوم من الأيام – أنهم ليسوا أبناء شرعيين حقيقيين لمن يدعونهم والديهم. ناهيك عن أن التبني يضر بطرف ثالث، هو من له الحق في إرث المُتبنّي، إذ يأتي الابن بالتبني ليشاركه إرثه، دون الرجوع إليه، والحصول على موافقته وأخيراً، يُعَبِّر التبني عن تدخل غير طبيعي في شجرة عائلة، فضلاً عن أنه مظهر لتدخل في مشيئة الله وقدره.

لا يأخذ الأزواج الألمان والفرنسيون والإيطاليون الذين لا ينجبون أطفالاً، ذلك كله في الاعتبار، عندما يأتون إلى المغرب لتبني أحد الأطفال الأيتام. وإنما يتحولون لبضع ساعات إلى مسلمين بالاسم فقط، حتى يستطيعوا الحصول على طفل لتبنيه. ولا يجد القضاة، المسؤولون عن عملية الوصاية، حرجاً في تحويل عقد إسلامي ينص على رعاية الطفل إلى عقد تبنٍّ نافذ، مع علمهم بأن هذا العقد الأخير غير مقبول ولا يعمل به في موطن الطفل الأصلي. ويجري في هذه

العملية تجاهل القانون الإسلامي تماماً، بدعوى « مصلحة الطفل »! ويجري تبني طفل أجنبي في ألمانيا حسب القانون الألماني، استناداً إلى المادة (٢٣) من القانون BGB. ولا يشعر القضاة حيال ذلك بوازع من ضمير . . . توهُّماً منهم بأن صالح كل طفل يكمن في إنقاذه من الإسلام!!

لست أجد لهذا الموقف من تسمية تناسبه غير «إمبريالية ثقافية».



لا يقع الطلاق بسبب وجود علاقة لأحد الزوجين خارج إطار العلاقة الزوجية فقط، فأحياناً ما يكون سوء حظ الزوجة متمثلاً في عدم إنجابها أطفالاً بصفة عامة، أو عدم إنجابها أطفالاً ذكوراً بصفة خاصة، وهذا يعدّ سبباً كافياً لوقوع الطلاق. ويمكن أن يقع الطلاق من جانب واحد من دون سبب جوهري. ولا يمنع من حدوث ذلك ضرورة أن يُلْقَى يمين الطلاق ثلاث مرات متفرقات. ولقد رأيت مسلمات يشغلن وظائف مرموقة يعشن لهذا السبب في خوف دائم من أن يستيقظن يوماً ليجدن أنفسهن مطلقات، وربما لا يعلمن بطلاقهن إلا من خلال طرف ثالث (ولقد ألغى قانون الأسرة المغاربي لعام ١٩٩٣ إعلان المرأة بالطلاق من خلال طرف ثالث، لعدم وجود سند له في القرآن).

لم يقترب القانون الألماني التقدمي من هذه النقطة، وهي إمكانية إنهاء الزواج، أي الطلاق، من طرف واحد، وذلك دون أسباب قطعية. فوفقاً للمادة ١٥٦٥ من القانون BGB، يكفي أن يرفض أحد أطراف العلاقة الزوجية الفقرة ١٥٦٧، وإن امتدت مهلة إنهاء الزواج إلى ٣٦٥ يوماً.

ويستطيع الرجل إنهاء الزواج من جانبه وتسجيله فقط. أما إذا أرادت المرأة

الطلاق، فإنها تتقدم إلى المحكمة بطلب الطلاق، إذا لم يوافق الزوج على الطلاق من تلقاء نفسه، ولا تطلق نفسها لأسباب مالية. فالزوج الذي يطلّق زوجته يفقد كل حقوقه في استرداد المهر الذي يكون قد دفعه لها، بل ويؤدي إليها مؤخر الصداق. ومن ثم، إذا أعطيت المرأة حق تطليق نفسها دون الرجوع إلى قاض، فإن ذلك قد يؤدي إلى إغراء النساء بإقامة علاقات زواج بنية إنهائها بعد مدة لأغراض مالية.

التقيت رجلاً مسلماً من البوسنة في أحد لقاءات المسلمين الناطقين بالألمانية، فوجدته شديد التعاسة والاكتئاب، لأن زوجته الكرواتية تخلت عن إيمانها بالله، ومن ثم فعليه طلاقها. وتتعرض الزوجات الكتابيات لأزواج مسلمين إلى ضرر بالغ إذا طُلّقن، إذ لا حق لهنّ في إرث أزواجهن، ناهيك عن فقدانهن الحق في رعاية أطفالهن. ولا يدري أحدٌكم من الزوجات الألمانيات لأزواج مسلمين اعتنقن الإسلام لهذه الأسباب. ولقد تحول بعضهن إلى مسلمات حقيقيات بفضل الحياة في أسرة مسلمة، وما تتركه من آثار فيهن، في حين بقي بعضهن الآخر مسلمات بالاسم فقط.

لم أصادف حتى الآن حالة انتهى فيها زواج إسلامي بسبب الشذوذ الجنسي لأي من الزوج أو الزوجة، وإن كنت قد صادفت حالة امتنعت فيها امرأة ذات مكانة مرموقة عن الزواج لهذا السبب، ويستلفت الامتناع عن الزواج الأنظار، لأن الزواج واجب ديني على كل قادر عليه. ولقد نهى القرآن عن العلاقات الجنسية الشاذة، ومع ذلك فإن لهذه العلاقات وجوداً لا يستهان به في العالم الإسلامي. ولست مبالغاً إذا قلت إنه لا يوجد مكان آخر به ذلك القدر من التسامح حيال الشذوذ الجنسي الذي يوجد بالمغرب. وربما يفسر ذلك حضور كثير

من الفنانين الشواذ أو المخنثين الأمريكيين، أمثال تنسي ويليامز، وترومان كابوت، وويليام بوردز إلى طنجة والعيش فيها - عندما كانت ما تزال منطقة دولية - أو الذين قضوا بقية حياتهم فيها مثل شارلز وجين بولس. وتجذب طنجة حتى اليوم الكثير من السياح الشواذ جنسياً.

في ختام هذا الفصل، يثور السؤال حول تحرر المرأة. والإجابة عن هذا السؤال ليست بالأمر اليسير، وخاصة أن الظروف تختلف من بلد إلى آخر. لكن لا ينبغي أن ينخدع المرء بنماذج تقدم نفسها للعالم الغربي على أنها ممثلة للاتجاه النسائي في بلادها، من أمثال فاطمة مرنيس التي تحظى في الغرب بالترحيب، وبمكانة وقيمة كبيرتين، في حين أنها لا تعني في بلدها، المغرب، شيئاً، فالمرأة المسلمة ليست في حاجة إلى حركة تحرر. فهي، بالنظر إلى موقفها من الله، متساوية مع الرجل. . . عليها ما عليه من واجبات وفروض: الصلاة والصوم والزكاة والحج، ولها ما له من وعد في حياة ما بعد الموت. وإلى جانب ذلك، تتساوى المرأة المسلمة في حقيقة الأمر مع الرجل المسلم في الحقوق المدنية والإنسانية. وليس لزوجها على وجه الخصوص الحق في التصرف في أملاكها الخاصة. ولا تفقد المرأة المسلمة بعد زواجها اسم أسرتها لصالح اسم أسرة الزوج، وإنما تحتفظ به حتى نهاية عمرها. واحتفاظ المرأة المسلمة بهذا الحق على وجه الخصوص، يوقعها في مشكلة عندما تسافر إلى بلد أوربي، حيث يصعب على رجال الحدود فيه إدراك كيف أن طفلها الشرعي الذي بصحبتها يحمل اسماً غير اسمها.

إلى جانب ذلك، فهناك بعض الاختلافات بين المرأة المسلمة والرجل المسلم، لا تشعر حيالها بالتمييز ضدها، أو بظلم يقع عليها، لأنها اختلافات ترجع إلى معطيات معينة. فهي حين ترث أقل من أخيها، لا يكون واقعاً عليها ظلم، ولا

يكون ذلك خرقاً لمبدأ المساواة بينهما ، لأن هذا الأخ هو وحده المسؤول عن رعاية أسرته، في حين لا تتكفل هي بشيء من الإنفاق على أسرتها ، بل ولا بنفقتها الشخصية عندما تتزوج . وترضى المسلمة بأن تكون لها الكلمة العليا فيما يتعلق بشؤون الأطفال صغار السن، في حين يكون لزوجها الكلمة العليا فيما يختص بشؤون أطفالهما الأكبر سناً .

هكذا، يضيق نطاق تساؤلنا لنصل إلى السؤال الذي طرحناه في بادئ الأمر، وهو : هل تتساوى فرص عمل المرأة مع فرص عمل الرجل (في غير ما يتعلق بالأعمال الدينية)؟

وإجابتي عن هذا السؤال هي : لا أعلم . وأنا لا أستطيع أن أعلم، لأن غالبية المسلمات لا يبحثن عن سعادتهن في محاكاة الرجال . فهن، مثلهن في ذلك مثل كثيرات من الأوربيات، لا يرغبن في العمل سائقات شاحنات أو سيارات أجرة، أو قائدات طائرات أو شرطيات، وإنما يتمسكن بدورهن المحدد في الأسرة . ولا يرجع ذلك إلى غياب «الوعي السليم»، وإنما إلى اقتناعهن بأن النساء اللائي يقدمن أمثلة ونماذج للمرأة المتحررة في الغرب يشعرن بالندم، لأنهن تجاهلن الأسرة والأمومة، وما يعنيه ذلك من أنه قد فاتهن أن يحققن بالكامل حقيقة وجوهر المرأة .

مجمل القول، إنه ليس هناك الكثير مما يمكن قوله بصدد فرص العمل للمرأة المسلمة لأنها ترى أن مستقبلها يكمن في كونها امرأة توظف كل مقوماتها وخصائصها (ولا أقول أسلحتها) في تحقيق أهدافها، في ظل الاعتراف بوجود علاقة قطباها : المرأة والرجل .

ويبقى أنني عندما أحدث زوجتي عن نشاطات وإنجازات إحدى بطلات الاتجاه النسائي (المغالي في دعوتها إلى المساواة بين الرجل والمرأة) البارزات، فإن رد فعلها يجيء عبر سؤال ساخر مستفز هل هي جميلة؟!

الفصل العاشر

إنسانية باردة كالجليد

لماذا إسطنبول بالذات؟!

ألا يصل إلى هذه المدينة سنوياً نحو نصف مليون مهاجر من الأناضول، والبوسنة، وبلغاريا، ومقدونيا وألبانيا؟! إن هذا العدد يفوق ما استقبلته ألمانيا ١٩٩٢ من لاجئين سياسيين ومهاجرين. ومع ذلك، فإنه لا يتسبب في إحداث أزمة دستورية، أو أزمة وزارية في تركيا، ولا تندلع بسببه حرب أهلية في إسطنبول.

ألا تصل نسبة تلوث الهواء في هذه المدينة إلى ١٠٠٠ مجم من ثاني أكسيد الكربون في كل متر مكعب، حتى إنها تتسبب في التهاب العيون والرقاب؟!

ألم يحاول المرء مراراً أن يقنع المواطنين المتشككين في جدوى إدخال الغاز الطبيعي بدلاً من اللجوء إلى الجهات الحكومية؟

ماذا عن هجمات الانفصاليين الأكراد؟ وماذا عن التضخم المطرد؟ ألا يزداد التأييد الذي يحظى به الحزب الإسلامي يوماً بعد يوم؟!

ألا ينقطع التيار الكهربائي يومياً مدة من الزمن؟

ألا تنقطع المياه باستمرار؟

نعم.. إنها بالقطع مدينة غير محتملة.. ولكن ذلك كله لا يعني شيئاً بالنظر إلى نبضها بالحياة، وإلى جمالها الذي يخلب الألباب، بموقعها الساحر، وتراثها المعماري الجميل الممتد إلى ١٧٠٠ عام مضت، والذي لم يُشَوَّه بعد. إنه جمال لا

يباريها فيه أي من هونج كونج، وسان فرانسيسكو، وباريس، وكوبنهاجن، وروما، ولشبونة. ناهيك عن أنها كانت حاضرة الخلافة مدة ٤٠٠ عام من عام ١٥١٧ إلى عام ١٩٢٤.

وهي، إلى جانب ذلك كله، مدينة دافئة، حتى وإن وصلت درجة حرارة الجو فيها إلى ما دون الصفر، لأن سكانها متعاونون مترابطون، يشعرون دفئاً إنسانياً بالغاً. فالمرء يلقى الآخرين إما بحب وإما بعداء ولكن ليس بأدب جم فقط. والجيران إما أصدقاء وإما أعداء، إلا أنهم يبالون ببعضهم، و بعضهم يعرف بعضاً، خلافاً لما عليه الحال في ألمانيا، حيث لا يبالي الجيران ببعضهم، بل ولا يعرفون بعضهم. وفي إسطنبول لا يكتشف الناس وفاة أحدهم من خلال الرائحة المنبعثة من جثته.

الأتراك شعب محب للعلاقات الإنسانية، بدافع من إحساس بأن الجميع في حقيقة الأمر أسرة واحدة كبيرة. فالناس هنا يجلون علاقة الدم التي يعودون بها إلى آدم وحواء. ولقد استفدنا، أنا و زوجتي، من مفهوم الأسرة الواحدة الكبيرة المشار إليه، وبصفة خاصة، في المدة التي كانت زوجتي تعمل فيها بالأوركسترا السيمفوني لدار الأوبرا، عازفة لآلة «الهارب»، وإلى جانب ذلك تعمل بالتدريس في الكونسوفاتوار. في حين كنت أنا أشغل آنذاك منصباً دبلوماسياً في بلجراد. وكانت رحلة القطار، المار ببلغاريا، تستغرق نحو ٢٧ ساعة. وحينما كنت أبوح لها بقلقي من قضائها الليل بمفردها في القطار، كانت تجيبني مبتسمة: «إنك تنسى أن لي إخوة وأخوات في كل مكان». وكنت أعترض على ذلك قائلاً: إن هؤلاء الإخوة لا يسافرون بالدرجة الأولى.

كانت زوجتي على الرغم من ذلك، يتكرر معها دائماً ذات الموقف؛ يدخل

أحد العمال - عند مروره بمقصورتها - فينظر إليها قليلاً، ثم يقول لها: أختاه! إذا أردت طعاماً أو احتجت إلى أي شيء، فأنا بالمقصورة المجاورة . . . منتهى التعاون!

وإسطنبول أيضاً مدينة نابضة بالحياة. ففي الحي الذي نسكنه، لا يسمع المرء صوت المؤذن فقط، وإنما يسمع أيضاً العشرات من الأصوات القوية التي تنطلق بها حناجر البائعين. ولكل منهم لحنه المميز. والشراء هنا مصدر متعة لزوجتي. فهي لا تشعر هنا بأنها مجرد حرم سيادة السفير، وإنما تشعر كما لو أنها أميرة. فما من بائع يتركها تنتظر إلى أن يلبي طلبها، أو يتركها تحمل بنفسها ولو كيلو جرام من العنب إلى المنزل، حتى وإن اشترت شيئاً يومي السبت أو الأحد، (إذ يحمل عنها صبي صغير جميع مشترياتها، ويوصلها حتى باب المسكن مقابل بقشيش). وإذا ما صادفت الجزار وهو في طريق عودته إلى منزله، فإنه يعرض عليها بتلقائية شديدة أن يعود أدراجه إلى الحانوت ويفتحه إذا كانت ترغب في شراء شيء ما.

في يوم من أيام عام ١٩٨٠، رحنا نبحث دون جدوى عن أرز باكستاني (بَسْمَالي)، وهو ألذ أنواع الأرز على الإطلاق. وبعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر، اتصل بنا في بون أحد الأتراك المقيمين في كولونيا، ولم يكن معروفاً لنا، ليبلغنا أنه صديق لمالك الحانوت الذي نتعامل معه في إسطنبول، وأنه قد أحضر لنا كيلو جرامين من الأرز، فمتى يستطيع أن يحضرهما إلينا؟ أي تعاون هذا الذي نرى؟! بدلاً من البوابين مقطبي الجبين في باريس، يعمل في حراسة المنازل في تركيا نساء يجلسن أمام المنازل يتجاذبن أطراف الحديث، ويشاهدون الأطفال وهم يلهون على غرار ما يجري في قرية أنا ضولية . . . أي دفء إنساني هذا الذي يجري؟!

تستمتع زوجتي بعملية الشراء هنا، بسبب شفافية السوق أمامها، وقربه من مسكننا، فلا يكاد المرء يسير ٤ دقائق، حتى يجد أمامه سبعة من محلات تصفيف الشعر، وسبعة من محلات البقالة، وسبعة من محلات الأجهزة والأدوات الكهربائية، وستة مصارف، وأربعة محلات جزارة. ولا يستطيع أحد أن يغامر برفع الأسعار أو بعرض البضائع أو أن يتلاعب بالأسعار دون أن يفلت من العقاب. والفيصل هنا، هو جودة الخدمات المقدمة للمشتري.

ولقد شهدت بنفسي في ٢٢ من يوليه عام ١٩٨٠ دليلاً، كأبلغ ما يكون الدليل، على علاقة الإخاء التي تحكم نظام المنافسة هنا في المزاد المعلق في إسطنبول. فلقد وقفنا أمام واجهة عرض (فاترينة) أحد المحلات المعلقة، وقد بدا علينا إعجابنا الشديد بالمعروضات بها، وإذا بمالك المحل المجاور يأتي إلينا مثنياً على معروضات جاره المنافس له، بدلاً من أن يدعونا إلى محله هو.. أي فارق بين هذا السلوك، والسلوك أو المنهج الأمريكي في المنافسة، الذي يبيح بلوغ المنافسة حد العنف أو حتى القتل؟!

أصابتني الدهشة أيضاً عندما كنت عائداً يوم ٢ من أكتوبر عام ١٩٩٥ من المطار إلى منزلي، مستقلاً سيارة أجرة. فعندما دفعت إلى سائق السيارة بمقدار من النقود، يساوي ما يشير إليه مؤشر العداد، وكان يزيد قليلاً عما هو معتاد لهذه المسافة، وجدته يرد إليّ جزءاً من النقود قائلاً: إنه يشعر أن العداد لا يعمل بصورة سليمة.. أي إخاء هذا الذي يعبر عنه سلوك السائق؟!

ويسري مبدأ شفافية السوق حتى في المحال التي تتعامل في مستلزمات الزفاف. فهناك شارع متخصص في التعامل في هذه المستلزمات، يقع في أحد

الأحياء المتطرفة Begilar، تصطف به محال تصفيف الشعر وملابس الزفاف ومستلزماته الأخرى. وبه أيضاً مبان مكونة من عدة طوابق، بكل طابق منها قاعة احتفالات. وفي حالات كثيرة، يأخذ الاحتفال طابعاً جماعياً، ويجري في أكثر من قاعة. فالناس هنا لا ينعزلون، لا في الفرح، ولا في الحزن، (فمن الطبيعي هنا أن يوجد أفراد الأسرة والأصدقاء في منزل المتوفى مدة أربعين يوماً بعد وفاته للصلاة على روحه ولتقدم واجب العزاء لأسرته).

عرفنا طريقنا إلى سوق الزفاف الغريب المشار إليه، تلبية لدعوات لحضور حفلات زفاف بعض الأقارب الفقراء، الذين تربطنا بهم صلة قربى من بعيد. وكانت الدعوة توجه إلينا، لما تفرضه صلة القربى في العالم الإسلامي من التزامات. وكنا نلبي الدعوة، لأنه لا ترفض في العالم الإسلامي دعوة إلى حضور حفل زفاف، ولو كانت الرحلة إلى مكان الاحتفال تستغرق ساعة ونصف، وحتى إذا ما كان على المرء أن يصعد سبعة طوابق بصحبة حماة تبلغ من العمر ٨٠ عاماً.. فأي ترابط عائلي هذا الذي يربط الناس هنا؟!

لكل ما سلفت الإشارة إليه، لا بد للمرء من أن يدرك لماذا تقشعر أبداننا، أنا وزوجتي، من برودة العلاقات الإنسانية في ألمانيا، حتى لو كان الجو صيفاً شديد الحرارة. ويشاركنا آخرون هذا الشعور نفسه.

فقد أعرب المستشار هيلموت كول، في حديث له إلى التليفزيون الألماني يوم ١٦ من أكتوبر عام ١٩٩٤، عن مخاوفه وهمومه الشديدة، لأن الألمان صاروا اليوم أقل تعاوناً عن ذي قبل. وبعد عام من ذلك التاريخ، حذر المستشار هيلموت كلول؛ أثناء مؤتمر الحزب الديمقراطي المسيحي المنعقد في كارلسروهة

يوم ١٦ من أكتوبر عام ١٩٩٥ من «الجو البارد غير الإنساني على نحو لا يحتمل، والذي ينشأ عن كثرة وسائل الاتصال التي تمنع الناس من أن يتبادلوا الحوار في مواجهة بعضهم بعضاً».

والظاهرة معروفة. . فكل شيء يسير بصعوبة في صمت، على نحو نزيه وفعال، في المجالات كافة. . الإدارة والإنتاج، والمواصلات، ووسائل الاتصال، ورعاية المرضى، والفقراء. فنحن دولة يخضع فيها كل شيء للنظام، حتى تصنيف المخلفات.

وفي هذا المجتمع المبرمج، الخاضع لنظام (روتين) يتسم بالرتابة ومن ثم بالملل الشديد، لن يجد المرء سوى عنصر واحد لا يخضع لسيطرة أو تحكم كاملين، ومن ثم فإنه يمثل مصدر إزعاج. هذا العنصر هو الإنسان الذي لا بد من أن يقمع، ومن أن تتوافر إمكانات للاستغناء عنه، عن طريق برمجة كل شيء، وإخضاع كل شيء للتحكم الآلي عن طريق الكومبيوتر. ولذلك، فالويل كل الويل لمن يتورط من الأفراد «المزعجين» في خلاف مع الإدارة أو الشرطة أو القانون. . . ففي ألمانيا تخضع علاقة المواطن بالمسؤولين لأحكام القانون أكثر منها لاعتبارات العدل. وعلى الرغم من وجود ظروف مخففة للعقوبات، فإن خلاف الفرد مع النظام يتحول في الغالب إلى شكل من أشكال الصراع التي يحفل بها أدب كافكا. فالظروف المخففة للعقوبات، والتي يتضمنها القانون، ليست بديلاً للقلوب المتحجرة، ولقد صاغ قدماء الرومان هذه الظاهرة في قولهم: «إن المغالاة في العدل تتحول في بعض الأحيان إلى ظلم شديد».

إنني أبالغ في وصف عملية، تتصف بالأنانية المفرطة، وبالانعزالية الواضحة، تتسلل ببطء لتأخذ لها مكاناً في حياة المجتمع الألماني. فبينما تعني كلمة تركي

جمعاً من الناس يعيش الفرد بينهم، تعني كلمة ألماني فرداً يعيش وحيداً في عزلة عن الناس. فهنا يجري الفصل بين الجدود والأحفاد، وإيداع الأول داراً لرعاية المسنين. ولا يقف الأمر عند ذلك، بل إن الأمهات اللائي يجدن في أنفسهن القدرة على رعاية أطفالهن بمفردهن، ينظرن إلى والد الأطفال على أنه «شيء» لا ضرورة له، ويمكن الاستغناء عنه. فهل يدري أحد كيف سيواجه الشعب الألماني جيلاً من الأطفال حرم عمداً من الوالد والأسرة؟!

في العالم الإسلامي، كما في غيره، يحكم القانون الموظفين الذين يخشون المفتش، مثلهم في ذلك مثل أقرانهم في العالم أجمع. ومع ذلك، فهناك دائماً أمل في أن تحل مشكلة ما من منطلق إنساني، حتى وإن كان ذلك بمخالفة اللوائح. وهذا هو ما أعنيه، عندما أقول: إن «الفساد» أداة تخفف من قسوة القوانين في الشرق. وأسوق هنا مثالاً لذلك واقعة في أغسطس عام ١٩٩٤ :

فبعد الانتهاء من صلاة الجنازة في مسجد سليمية، توجهنا إلى المقابر لحضور عملية الدفن، ولكننا تأخرنا حتى انتهى الموعد المحدد لعبور الطريق السريع المؤدي إلى معبر البوسفور على الجانب الآسيوي من إسطنبول. وكان أن توقفنا عند الشرطة طالبين مساعدتها في تمكيننا من تغيير مسارنا، حتى نستطيع أن نلحق بموعد الدفن. ويعلم القارئ بطبيعة الحال ما حدث. وخلاصة القول إننا لحقنا بعملية الدفن في موعدها. وفي المقابل، ما الذي كان يمكن للمرء أن يفعله، لو أنه واجه موقفاً مماثلاً على طريق سريع في ألمانيا؟! وماذا كان يمكن أن يسمع من الشرطة، لو أنه طلب منها ما طلبناه من الشرطة في إسطنبول؟! غالب الظن أنه ما كان ليسمع شيئاً على الإطلاق، لأنه ما كان ليجرؤ على أن يطلب طلباً كالذي طلبناه!!

يبدو لي، بالقياس على ذلك، أن بعضاً من أنشطتنا وأعمالنا «الإنسانية» لا مضمون لها. ويبدو لي أيضاً أن بعضاً مما يوصف بأنه اهتمامات والتزامات إنسانية ليس إلا ثرثرة بلا مضمون. ذلك لأنني لا أستطيع أن أتخلص من الإحساس بأن كل هذا ليس أكثر من تلطيف وتخفيف إعلامي عن ضمائرنا المعذبة.

أفلم يكن رفع الحظر عن توريد السلاح إلى مسلمي البوسنة، ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم في الحرب، أكثر إنسانية من مجرد مساعدتهم على ألا يواجهوا العدو جياعاً؟ إننا نحميهم من أن يموتوا جوعاً، بدلاً من أن نحميهم من التطهير العرقي، ومن المذابح الجماعية.

هل أبالغ في ذلك؟! كل صورة ترسم باللونين الأبيض والأسود، إنما هي أشبه بالملصق. فالعالم لا ينقسم إلى أخيار وأشرار فحسب. فالاتجاه السائد الذي تعرضت له اتجاه حقيقي، وغير مبالغ فيه. وهو اتجاه يمثل من ناحية سبباً، ومن الناحية الأخرى، نتيجة لما وصفه أولريخ فيكارد في كتابه «ضياع القيم» (١٩٩٤).

إنني أود أن أتعرض بالحديث لظاهرة السلوك الإنساني للمسؤولين في الشرق، قبل أن يتهمني أحد بأنني أزيف صورة هذا السلوك «الإنساني»، الذي أعده مؤشراً لفساد منظم. فلقد رأيت، أكثر من مرة، مسؤولين في الشرق يتخطون اللوائح بدافع من الشفقة فقط، وليس بغرض الحصول على مقابل مادي. وإنه لمن القسوة بمكان، أن ينظر إلى قبول «البقشيش» باعتباره فساداً، في ظل تدني دخل المواطن إلى مستوى لا يكفي لإعاشته هو وأسرته. فالموظف الحكومي، الذي يتقاضى راتبًا شهرياً يتراوح بين ٢٥٠ ماركاً و٤٠٠ مارك يعلم أن

رئيسه يدرك - في صمت أنه يحسِّن دخله من خلال الحصول على شيء ما، لكي يستطيع أن يفي بالحاجات الضرورية لأسرته، وأن يوفر لها الحد الأدنى من مستوى المعيشة.

لن أحاول شرح هذا الأمر نظرياً، لأن قصة زواجي من «بولبين» تشرحه على نحو أفضل . . . كانت جميع ترتيبات وإجراءات الزواج تتم تحت ضغط شديد من عنصر الوقت. فلم يكن أمامنا من الوقت متسع يتيح لكل شيء أن يسير على نحو روتيني. فلقد كنت أعمل حينذاك في بلجراد. وكان من المقرر أن يعقد مؤتمر الأمن والتعاون في أوربا في بلجراد يوم الثلاثاء ٣ من مايو عام ١٩٧٧، بعد انتهاء أعماله في هلسنكي. وكُلِّفتُ بأن أكون نائباً لرئيس الوفد الألماني إلى هذا المؤتمر.

وكان لا بد، لإتمام زواجي، من الحصول على شهادة أهلية (صلاحية) للزواج من بون، وتبين لي أن حصولي على هذه الشهادة سيستغرق وقتاً طويلاً جداً، ويترتب عليه أن زواجنا لا يمكن أن يتم قبل يوم الإثنين ٢ من مايو، أي اليوم الذي يسبق بدء عقد المؤتمر.

وصلت إلى إسطنبول في عطلة نهاية الأسبوع، وكانت بولبين قد حصلت من السجل المدني في ميزانداز، بعد دفع المطلوب، على كل الأوراق الضرورية اللازمة لإتمام زواجنا يوم الإثنين، في موعد غايته الساعة الثانية عشر والربع ظهراً. وكان - وهنا تكمن المشكلة - من الضروري أن يتم قبل هذا الموعد ترجمة شهادة الأهلية للزواج من الألمانية إلى التركية، والتصديق على الترجمة من القنصلية الألمانية في إسطنبول، وتصديق حاكم إسطنبول. وإلى جانب ذلك، كان لابد من إجراء تحليل بشأن الأمراض التناسلية في المستشفى الألماني (حيث لا

تقبل الرشوة) والتصديق على شهادة المستشفى بنتائج التحليل من السلطات الصحية في إسطنبول. وكان لا بد من أن يتم ذلك كله في ثلاث ساعات!

تضاءلت فرص نجاحنا في إتمام كل ما سلف ذكره، عندما رأينا، يوم الأحد أول مايو، ميدان تقسيم وقد تحول إلى ساحة حرب من جراء المصادمات الدامية التي نشبت إثر تظاهرات سياسية. فما كان المرء ليرى في هذا الميدان سوى سيارات محترقة وبقع من دماء تلطخ أسفلت الشوارع، ونوافذ محطمة، وغير ذلك من الآثار التي تنجم عن مثل هذه المصادمات. وفي هذا الميدان، تقع مكاتب المسؤولين الذين كان علينا أن نقصدهم لاستخراج جميع الأوراق آنفة الذكر.

وكان ثمة شك في أن يذهب المسؤولون إلى مكاتبهم في اليوم التالي ليوم عاصف عصيب كذلك اليوم. ومع ذلك رحنا صباح يوم الإثنين نلهث وراء استكمال الأوراق الناقصة. ولقد عوملت في القنصلية الألمانية معاملة الزميل، حيث بدؤوا في اتخاذ الإجراءات المطلوبة قبل موعد بدء العمل الرسمي. ولكننا اضطررنا في مقر بلدية إسطنبول على الطرف الآخر من القرن الذهبي إلى أن ندفع خمسة من الموظفين إلى العمل بدفع المطلوب إليهم. وقام أولهم بإثبات أوراقنا في دفتر اليومية، وحصلنا من الثاني على دمغة ختمها الثالث، وراجع الرابع كل هذا. أما الموظف الخامس، الذي يقبع في طابق يعلو الطابق الذي يعمل فيه هؤلاء الأربعة بطابقين، فقام بالتوقيع اعتماداً لما قاموا به من إجراءات.

تسرب اليأس إلى نفوسنا بسبب إصرار المستشفى الألماني على أن يسلمنا نتائج الفحوص بعد ساعتين، وليس قبل ذلك. وفقدنا الأمل تماماً في إمكانية إتمام الزواج في الموعد المحدد، حتى إننا لم نجرؤ على تحديد موعد الزفاف في إعلان الزواج.

تسلمنا شهادة المستشفى في الساعة الحادية عشرة، وبدأنا على الفور سباقاً لاستكمال بقية الأوراق المطلوبة، فتوجهنا إلى مكتب الصحة التركي للتصديق على هذه الشهادة. وهناك كان علينا أن نلهث مرتين صعوداً إلى الطابق الخامس، حيث استطعنا بعد دفع المطلوب أن نحمل إحدى السكرتيرات على أن تترك العناية بأظفارها، وأن نقنع سكرتيراً أن يختم لنا الشهادة. وبسبب ضيق الوقت، تحتم علينا أن ننتقل من مكتب الصحة إلى مكتب السجل المدني بسيارة أجرة، على الرغم من أن المسافة بينهما لا تزيد على ٧٠٠ متر.

وعندما وقفت أمام موظف السجل المدني ، ذلك الرجل الذي بيده كل شيء، كنا منهكي القوى، وقد ابتلت ثيابنا من العرق. وكان من المفترض أن يتعاطف معنا بالنظر إلى وضعنا، وبسبب توصيات كثير من الأصدقاء. ولكنه، عندما راح يتصفح الأوراق، توقف أكثر من مرة أمام تناقضات ومخالفات. فنحن لم نراع، في أكثر من حالة، المدة التي ينبغي أن تفصل بين إجراء وإجراء آخر، كما لم يتوفر الإعلان عن رغبة الطرفين في الزواج. وإلى جانب ذلك، تغيب عن مراسم الزواج المترجم الذي تنص اللوائح على وجوده في حالة زواج الأجانب.

بدأت الدموع تترقرق في عيني زوجة المستقبل. اعتقدت أنا، بغباء الرجال، أننا قد أخفقنا في بلوغ غايتنا اليوم. ولم يخطر ببالي على الإطلاق أن هذه الدموع هي دموع الفرح، إذ كان الموظف قد أخبرها بالفعل بأن المراسم يجرى إتمامها الآن وعلى الفور، ثم أردف قائلا: «لو أنكما وقفتما أمام غيري، لكان عليكما أن تنتظرا لمدة ستة شهور أخرى»!!

وهكذا تزوجنا ونحن نرتدي «الجينز والبلوفر»، وشهدت سكرتيرات السجل المدني على عقد قراننا. وكنت أجيب عن أسئلة الموظف بالإيجاب أو النفي (نعم

أولا) ، بفضل اتباع إشارات سبق الاتفاق عليها بيننا ، أنا وزوجتي ، وليس بفضل فهمي لما يقول . وانقضى ما تبقى من اليوم بعد ذلك بسرعة شديدة . فذهبت زوجتي إلى مصفف الشعر ، في حين تولّت أخواتها دعوة الضيوف إلى حفل استقبال صغير .

وكانت ليلة الزفاف قصيرة ، إذ كان عليّ أن أتوجه إلى المطار في الساعة الخامسة صباحاً ، حيث أقلعت طائرة الـJAT التي أستقلها في تمام الساعة السابعة والربع أيضاً ، بسبب فرق في التوقيت مقداره ساعة واحدة بين تركيا ويوغسلافيا . واستطعت بذلك أن أصل بسيارتي البورش الصغيرة إلى مقر المؤتمر في نوفي بيوجراد في الساعة الثامنة والربع ، لأشترك في محادثات الوفد الألماني ، التي كان من المقرر أن تجري في الموعد الذي وصلت فيه ، قبل بدء المؤتمر . وفي نهاية المباحثات ، سأل السفير د . فيشر عما إذا كانت هناك إضافات تحت بند «ما يستجد من أعمال» ، فأجبته : نعم . . لقد تزوجت أمس في إسطنبول!

يستطيع المرء أن يستنتج من هذه القصة أن الشرق مهيأ لانتشار الرشوة على نحو غير قابل للعلاج . . ألم أعترف بأننا ما كنا لنتزوج لولا ما دفعنا من بقشيش كثير؟! ومع ذلك ، فهذه القصة تكشف عن بعد آخر مختلف . . إنها تبرز الصفة الإنسانية التي يتمتع بها في الشرق حتى البيروقراطية ذاتها ، كما تبرز أيضاً ذلك الدفء الذي يتعامل به الناس بعضهم مع بعض . وأيّاً ما كان الأمر ، فإننا نأمل ألا تضل ألمانيا الطريق إلى هذا الدفء على نحو قاطع لا رجعة فيه . وأعتقد أن الإسلام يستطيع أن يسهم بدوره لتصحيح السبيل .

الفصل الحادي عشر

الإسلام في ألمانيا .. إسلام ألماني؟

أقيم في برلين في المدة بين ٢٨ من مايو – ٢٧ من أغسطس عام ١٩٨٩ معرض بعنوان «أوربا والشرق ٨٠٠ – ١٩٠٠». ولقد أبرز هذا المعرض وأكد حقيقة التأثير العربي الإسلامي في جميع فروع الفنون في الغرب، بما فيها فن العمارة، والرسم، والحرف الفنية، والموسيقى، وأصول اللياقة، وقواعد السلوك، واللغة، والزي السائد[1] ومع ذلك، كان التأثير الديني للإسلام في أوربا ضئيلاً جداً في تلك المدة، وبصفة خاصة في ألمانيا التي لم تتعرض – على العكس من إسبانيا وفرنسا والنمسا – لاحتلال إسلامي أو لحصار عسكري. فلم يصل العرب في عام ٧٣٢ إلى أ بعد من Tours Potieers، كما أخفق العثمانيون أكثر من مرة في عامي ١٥٢٩، ١٦٨٣ في دخول فينا.

من الثابت، أنه كانت هناك اتصالات دبلوماسية بين شارلمان الأكبر والخليفة هارون الرشيد ببغداد. ومع ذلك، فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن علاقات ثنائية حقيقية بين ألمانيا والعالم الإسلامي، إلا ابتداء من عام ١٧٣١. ففي هذا العام، جند فريدريك فيلهيلم ملك بروسيا عشرين من الجنود الأتراك لأجل حراسته الشخصية. ومن أجل هؤلاء الجنود، أقيم في بوتسدام عام ١٧٣٢ أول مسجد في ألمانيا. وفي عهد خليفته فريدريك الأكبر، ازداد عدد الجنود المسلمين في الجيش البروسي، حتى بلغ نحو ألف جندي، معظمهم من التتار الفارين، ومن الألبان، ومن البوسنة.. وأصبحت هناك بذلك حاجة ملحة إلى وجود إمام (واعظ) لهم. وإلى هذه المدة، أي نحو منتصف القرن الثامن عشر، يرجع تاريخ

(١) لقد أصدرت دار نشر برتلسمان دليلاً ملوناً، يجدر بكل معنيّ أن يقتنيه. جُتير سلوه (١٩٨٩).

وجود أقدم مقابر للمسلمين بألمانيا، وتقع هذه المقابر عند برلين[1].

توثقت العلاقات بين العالم الإسلامي وألمانيا في القرن التاسع عشر. ففي المدة ١٨٣٥ - ١٨٣٩ أدى القائد هيلموت فون مولكه خدمات جليلة للسلطان العثماني، في حين اعتنق د. إدوارد شتش، وهو مستشار مدني، الإسلام، وحمل اسم محمد أمين باشا، وصار فيما بعد حاكماً لإقليم مصر الجنوبي، حيث قام بأعمال متميزة. كذلك، صار الكاثوليكي كارل ديتروات، من براندنبرج، بعد اعتناقه الإسلام، قائداً برتبة فيلد مارشال في القوات التركية باسم محمد علي. أما القيصر فيلهيم الثاني، فقد أحرز قصب السبق، وأصاب الهدف فيما يختص بالعلاقات الإسلامية - الألمانية من خلال ما بذله من جهود للظهور بوصفه محامياً للعالم الإسلامي (في مواجهة إنجلترا وفرنسا وروسيا). فلقد تركت رحلاته إلى إسطنبول في عام ١٨٩٥، وإلى دمشق والقدس في عام ١٨٩٨، وإلى طنجة في عام ١٩٠٥ بصماتها وآثارها الطيبة في هذه البلاد.

لم يكن من قبيل المصادفة أن تحارب تركيا إلى جانب دول المحور (الوسط) في الحرب العالمية الأولى؛ فلقد عمل إنفر باشا، المحرك الرئيسي للشباب التركي مدة من الوقت ملحقاً عسكرياً لتركيا في برلين. وكان من الضروري أن يقام مسجد آخر بالقرب من برلين لأسرى الحرب المسلمين، الذين كانوا يبلغون ١٥ ألف أسير معظمهم من روسيا وشمالي إفريقيا والسنغال. ولقد أقيم هذا المسجد، الذي افتتح في حضور السفير التركي عام ١٩١٥، عند زوسن، ويعرف بمسجد فوند سدورف.

(١) عن النشأة الأولى للجماعة الإسلامية في ألمانيا، انظر: كتاب م. س. عبد الله (هربرت كرافنكل): «تاريخ الإسلام في ألمانيا»، جراتس (١٩٨١). و «هلال وسط نسر بروسيا»، ألتنبرج (١٩٨٤). و«موجز لتاريخ الأقلية الإسلامية بألمانيا»، ألتنبرج (١٩٨٧).

ليس هناك مجال للحديث عن جماعة إسلامية من أصل ألماني قبل عام ١٩٢٢ ، حيث التفت هذه الجماعة منذ ذلك التاريخ حول الهندي مولاي صدر الدين ، الذي تمكن في عام ١٩٢٥ من استلام مسجد القبة في برلين - فيلمر سدروف .

كان الأمر في أثناء الحرب العالمية الثانية مختلفاً ، إذ اتخذت مشكلة رعاية ٦٠ ألفاً من أسرى الحرب المسلمين من الاتحاد السوفيتي والبوسنة بعداً مختلفاً ، من حيث الحجم والشكل ، عما كانت عليه الحال في أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . فلقد أدت تحريضات المفتي أمين الحسيني ، الذي كان قد اتخذ برلين مقراً له منذ عام ١٩٤١ ، إلى رغبة الكثيرين من الأسرى المسلمين في محاربة القوى الاستعمارية والإتحاد السوفيتي ، ومن ثم فقد انضموا إلى قوات الرايخ الألماني [١] . ولم تكتف القوات المسلحة الألمانية والقوات الخاصة بالسماح بإنشاء «معهد إسلامي» في برلين فحسب ، بل لم يتركوا أيضاً فرصة تفلت منهم لاستخدام التتار والتركمان والبوسنيين والألبان لتحقيق أغراضهم . وفي سبيل ذلك ، أنشأت القوات المسلحة في عام ١٩٤٤ مدرسة عسكرية خاصة ، لتخريج رجال دين مسلمين على وجه الخصوص .

كانت الوحدات المسلمة ترتدي الزي العسكري الألماني ، مع شارة كتف بألوان العلم الفلسطيني ، وبشعار «أرض عربية حرة» مكتوب باللغتين : العربية والألمانية . (ومرة أخرى ، تصور ألمانيا نفسها على أنها «حامية» العالم الإسلامي) . ولقد انتهت هذه المغامرة بكثير من المسلمين إلى نهاية مأساوية ، في عام ١٩٤٥ . ولكن مسلماً ألمانياً ، هو محمود هايتمان ، استطاع على أي حال أن يعيد المفتي الحسيني إلى القدس مرة أخرى .

(١) كلاوس جنزيكه : «مفتي القدس أمين الحسيني والاشتراكيون القوميون» . فرانكفورت ، (١٩٨٨) .

احتلت الدراسات الإسلامية الألمانية مكانة مرموقة بين دراسات الاستشراق منذ القرن العشرين، إلى جانب تمتعها بسمعة طيبة، ما تزال تحتفظ بها إلى اليوم، في العالم الإسلامي. ويعود ذلك إلى اتباع العلماء الألمان للمنهج الوضعي الذي كان يمثل روح وجوهر العلم في ذاك القرن. وهو ما يشكل نقيضاً تاماً لسلوك لورنس العرب، الذي كان عميلاً لقوات الاحتلال. وتظل محاولات ثيودور نولدكه (المتوفى في عام ١٩٣٠)، لإثبات وتحقيق كل آية من آيات القرآن والتأريخ لها، مثالاً حياً على جدية البحث العلمي، وقيمة باقية من قيمه حتى بالنسبة لعلماء المسلمين. وكذلك أفنى الأستاذ Rudi Paret من تينيجن حياته في دراسة القرآن، وتوصل بدراسته إلى إثبات أنه خلف ووريث صالح، في القرن العشرين، لهذا الاتجاه العلمي المتأصل.

كان الألمان في تلك الأثناء، قد دخلوا في «حوارات علمية» مع القرآن. وتعود أولى ترجمات القرآن إلى الألمانية إلى عام ١٦١٦، حيث ترجمها سالومون شفايجر(١)، ونشرت في نورنبرج تحت عنوان: قرآن الأتراك.. دينهم وخرافاتهم. ومن الممكن أن يتصور المرء كيف كانت هذه الترجمة، إذا ما علم أن النص الذي نقلت منه لم يكن القرآن باللغة العربية، وإنما كان منقولاً عن ترجمة إيطالية منقولة بدورها عن ترجمة لاتينية سابقة لها.

(١) نشرت قائمة تشمل الترجمات المختلفة للقرآن، وفق ترتيب أبجدي، على الصفحات من ٢١٣ - ٢٣٥ من ببليوجرافيا العالم لترجمات معاني القرآن المقدس، المطبوعة في الأعوام منذ ١٥١٥ حتى ١٩٨٠. وهذه الببليوجرافيا أصدرها معهد الأبحاث الدولي للتاريخ - الفن والثقافة الإسلامية القائم بيلديز - إسطنبول.

كما تتضمن مقدمة محمد حميد الله (انظر هامش رقم (١) ص ١٣٧) قائمة مرتبة زمنياً لترجمات القرآن.

ولقد تم تدارك هذا الخطأ وتصحيحه - منهجياً على الأقل - في عام ١٧٧٢، حين قام دافيد فريدريش ميجرلين David Friedrich Megerlin بترجمة القرآن من اللغة العربية، ونشر الترجمة بعنوان «الكتاب المقدس للأتراك». وهذه الترجمة هي التي قربت الشاعر جوته من الإسلام، بعد أن دفعه هيردر إلى قراءتها، حتى إن بعضهم يتصور إلى الآن أنه تحول إلى الإسلام في صمت تام. ومن المعروف عن جوته، أنه كان يعتقد في الله أنه علة أولى لكل شيء. ولقد ترك جوته في عمله الشعري (الديوان الغربي - الشرقي) ملاحظة تفيد أن «الشاعر لا يستبعد هو نفسه أن يكون مسلماً»[1]. ولك أن تتخيل مدى سعادة جوته، لو كان قدر له أن يقرأ المحاولة، الوحيدة من نوعها حتى الآن، التي قام بها الشاعر المستشرق فريدريك روكيرت Friedrich Ruckert من ترجمة القرآن إلى شعر ألماني[2]. ومنذ ذلك التاريخ، ظهرت نحو ٢٠ ترجمة ألمانية للقرآن، منها ست ترجمات متداولة الآن في المكتبات، من بينها ترجمتان فقط لكتّاب مسلمين[3].

تتضاءل كل الاتصالات الألمانية - الإسلامية السابقة، وتكاد تفقد بريقها ورونقها وأهميتها، بل ربما يكون عليها أن تتوارى، بالقياس إلى الاتصالات الجارية في الوقت الحاضر، من حيث نوعها وكثافتها. فالمرء لا يلتقي اليوم

---

(١) انظر السلسلة المكونة من ١٩ جزءاً التي تحمل عنوان «الإسلام وجوته»، بقلم أحمد فون دنفر، والمنشورة في جريدة الإسلام، ميونخ (١٩٩٠)، عدد ١ - ١٩٩٤، وعدد ٤ ص ٢٨ لعام ١٩٩٠، ففي عمل جوته «الشعر والحقيقة» يقول: «ماكنت لأعد محمداً محتالاً أبداً».

لقد سبقنا جوته حتى في هذا. انظر أعمال جوته (دار نشر إنزل)، فرانكفورت (١٩٩٣). المجلد ٥، ص ٥٦٩.

(٢) فريدريك روكيرت «القرآن»، فرانكفورت (١٨٨٨)، إعادة طبع هلدسهايم (١٩٨٠).

(٣) محمد رسول (انظر هامش رقم (١) ص ١٣٧)، والترجمة الجماعية التي قامت بها دار نشر بافاريا SRD بميونخ في ٥ أجزاء (١٩٩٦).

بالإسلام في ألمانيا من قبيل الصادفة من حين إلى آخر، على نحو ما حدث لجوته عام ١٨١٤ في صورة جنود روس من باشكريستان، وإنما يكاد يلتقي به في كل خطوة يخطوها. فاليوم، يعيش بيننا نحو مليوني مسلم. والوضع نفسه يجده المرء في إنجلترا، وفي فرنسا، وفي بلجيكا، وفي هولندا. ويجري اليوم بناء مساجد هائلة في كل مكان في باريس، ولندن، وروما، وفيينا، وزغرب، وقرطبة، وحتى في مانهايم وفورتهايم.

تعتنق الإسلام اليوم أعداد متزايدة من الأوربيين في جميع بلدان أوربا. وأصبح اعتناق الإسلام يمثل في الآونة الأخيرة ظاهرة، بعد أن كان من قبل حالات فردية، كما في حالة محمد أسد (ليوبولد فايس)، أو الصوفي فريزوف شون. واليوم يجتذب الإسلام شخصيات من كل المجالات، فتعتنقه وتتحول إليه. ففي مجال موسيقى البوب: يوسف إسلام (كات ستيفنس (Catstevens)، وفي مجال الرقص: موريس بيجار، وفي مجال الرياضة محمد علي كلاي (كاسيوس كلاي)، وفي مجال السياسة: رجاء (روجيه) جارودي. وفي ألمانيا اعتنق الإسلام ٥٠ ألفاً من السكان من أصول ألمانية.

يطرح هذا التطور مجموعة من الأسئلة، هي:

- إلى أي من الطبقات، ينتمي هؤلاء الذين تحولوا إلى الدين الإسلامي؟
- ما دوافعهم؟
- ما صورة تنظيمهم؟
- ما موقف الحكومة من الاعتراف بهم؟
- ما المشكلات التي تواجههم فيما يختص بالمدارس، والطعام، والعطلات، والصوم، وبناء المساجد، ومراسم الدفن؟

- هل يستطيع المرء أن يعيش مسلماً في ألمانيا، ويمارس حياته بشكل طبيعي؟
- سأحاول الإجابة عن هذه التساؤلات في السطور التالية:

يتوافر حتى الآن مرجعان من الأسباب والطرائق التي تؤدي بالأوربيين إلى اعتناق الإسلام. أحد هذين المرجعين ألماني، أما الآخر فهو دولي.

فلقد قامت الكاتبتان: فاطيما شرقاوي Fatima Cherqaoui وليزابث روشيه Lis-abeth Rocher بتوجيه سؤال إلى عديد من المسلمين الأوربيين والأمريكيين - من خلال نموذج ثابت - عن الطرائق التي أدت بهم إلى اعتناق الإسلام. ومن بين الألمان الذين وجه إليهم هذا السؤال:

Eva El Shavassy' Mohammad Hobohm' Arifa Gaspari

وضمنت الكاتبتان تحليلهما للإجابات التي تلقتها عن سؤالهما كتاباً أنيقاً ذكياً هو "D'une foi L' autre" أي «من دين إلى آخر»[1].

أما الكتاب الثاني، وعنوانه «ألمان هداهم الله»، الذي أشرف على إعداده محمد أحمد رسول، فما هو إلا جمع مادة، وصف شخصي للتحول إلى الإسلام. ومن بين من وصفوا تجربتهم هذه Hassan Ndayisenga ' Frank Ab-dullah و Bubenheim Fatima Heeren (Grimm.)[2].

وبالرجوع إلى الكتابين، تبين عدم وجود طرائق بعينها تدفع الإنسان وتؤدي به إلى الإسلام، وإنما هناك دروب شخصية عديدة لا حصر لها تدفع إليه.

وبالرجوع إلى كلمات Rocher' Cherqaoui، يتبين أن المسلمين الأوربيين يلبون

(١) سيل. باريس (١٩٨٦).

(٢) دار نشر المكتبة الإسلامية، كولونيا (١٩٨٢).

اليوم نداءً داخلياً، كما حدث مع أسلافهم العظام، أمثال الشيخ رينيه جينو Rene Guenon (١٨٨٦ - ١٩٥١)، ومحمد أسد (١٩٠٠ - ١٩٩٢) الذي فسر اعتناقه الدين الإسلامي بأنه نتاج عملية نضج.

ويمكننا، بالرغم من ذلك، تقسيم الألمان الذين اعتنقوا الإسلام إلى أربع مجموعات سأسميها بغرض التيسير: «ألمان أجانب»، و «أزواج»و «أعضاء جماعات الخضر»، و« علماء الإسلام».

أعني «بالألمان الأجانب» ألماناً يعملون في تونس أو في أي بلد إسلامي آخر. وهؤلاء وجدوا طريقهم إلى الإسلام من خلال إقامتهم في هذه البلدان. وتضم هذه المجموعة مهندسين وفنيين وعمال صيانة وتركيب وخبراء في مختلف المجالات والتخصصات، وهم هؤلاء الذين تدفع بهم الـ (GTZ) هيئة التعاون الفني الألمانية إلى مختلف أرجاء العالم. ويشاركهم هذه الحال أعضاء السلك الدبلوماسي العاملون في سفاراتنا بالخارج والملحقون العسكريون.

والمجموعة الثانية، وهي «الأزواج» تضم الألمان الذين أحبوا مسلمات، ولم يكن يجوز لهم الزواج منهن إلا بعد إسلامهم. ولقد قبل بعضهم اعتناق الإسلام ليظفر بزوجته فقط لا غير. ولكن من يمد لله إصبعاً، فسيأخذ الله بيده إلى الطريق المستقيم.

أما المجموعة الثالثة، فغالباً ما تضم شباباً يعترض على انحرافات المجتمع الصناعي الحديث، ويريد أن يهرب من هذا المجتمع، ويبحث بالتالي عن مخرج أيديولوجي. فهؤلاء يبحثون عن مجتمع عالمي أكثر عدلاً، تسوده أخلاق رفيعة.. مجتمع يخلو من تقسيمات وتدرجات هرمية معقدة... مجتمع يبعث

وينشر الدفء الإنساني . . مجتمع يوفر للإنسان السند، ويمنح الحياة معنى عميقاً . . . تلك الحياة التي فقدت قيمها وأهميتها . وينحاز «الخضر» ممن اعتنقوا الإسلام إلى الجماعة الإسلامية بألمانيا، ويميلون إليها، لأنهم يجدون فيها البيئة الدولية - خاصة مع أناس من العالم الثالث - التي يقدرونها كثيراً .

تمر رحلة الوصول إلى الإسلام أحياناً عبر طرق ودروب غير مباشرة . . . ليس هذا فحسب، بل وعبر طرق تثير الدهشة والعجب . فالانضمام لعضوية جماعة اشتراكية، أو مغازلة البوذية، تعد إحدى الخطوات المعتادة، بل التقليدية، التي تصل بهؤلاء الناس عاجلاً أو آجلاً إلى المحطة النهائية . . إلى الإسلام .

والمجموعة الرابعة والأخيرة، وهي «علماء الإسلام» المتخصصون في الدراسات الإسلامية، تتكون من طلبة نحو ١٩ جامعة ألمانية، تضم كل واحدة منها قسماً للدراسات الإسلامية .

هؤلاء الطلبة يقدمون على دراسة الاستشراق لانجذابهم وشعورهم بميل للمنطقة العربية - الإسلامية . وما تلبث الدراسة أن تصبح أكثر من مجرد مواد تدرس، أو تصبح تلبية لنداء داخلي .

يستيقظ كثير من المسلمين الجدد ذات يوم، ليجدوا أنفسهم وقد اعتنقوا هذا الدين . . الإسلام .

وقد علقت المسلمة الفرنسية، إيفا ميروفيتش، التي تحظى بمكانة مرموقة، على هذه العمل، ووصفتها بقولها : «لا يعتنق المرء الإسلام، بل يتخذ ديناً يضم جميع الأديان الأخرى» . [١]

(١) نقلاً عن ليزابث روشيه، وفاطيما شرقاوي : «من عقيدة لأخرى»، باريس (١٩٨٦) ص ٢٠ .

ويبدو على مظهر معظم المسلمين الألمان، أنهم اعتنقوا هذا الدين من خلال صلة أو علاقة ربطتهم ببلد عربي أو بتركيا أو بباكستان، حيث يتكون لدى بعضهم إعجاب بل انبهار بالشرق، يظهر من خلال ملبسه. فقسم منهم يرتدي الجلباب الواسع، رغبة منه في التشبه والاقتداء بالرسول ﷺ حتى في المظهر الخارجي. ويغالي قسم آخر في هذا الأمر، فيرتدي عمامة.

ولقد لاحظ أحمد شميده أن بعضاً يتعامل مع اللغة الألمانية بشكل يمثل ظاهرة «تطفل حضاري»، فيقحم عليها الكثير من الكلمات العربية[1].

وإني أتفهم بطبيعة الحال رغبة المسلم حديث الإسلام في أن يظهر للعالم حوله، خصوصاً العالم المختلف عنه في الاعتقاد، أن تغييراً ما قد أصابه أو لحق به. ويرغب أيضاً في أن يتعرف عليه المسلمون الآخرون كأخ لهم في جماعتهم. ولكنني أرى أنه من غير المجدي أن يسلك الألماني، الذي يعيش في وسط أوربا في القرن العشرين مسلك عرب منطقة الحجاز في القرن السابع، سواء أكان ذلك في ملبسهم، أم في مأكلهم، أم في غيرهما، لأنه بذلك يصبح «غريباً داخل وطنه» (عبيد الله بوريك). وهذا النهج، يحول الإسلام إلى ثقافة فرعية، بل إلى أحد أشكال الفولكلور الديني. وهذا يصيب الإسلام بلا شك بأضرار بالغة.

يحيا المسلم هنا دائماً مهدداً بأن يلقى معاملة العمال الأجانب. وبالتالي، يتعرض للتفرقة والتمييز في المعاملة. ويدفعه هذا إلى الانزلاق إلى حياة الجيتو. وهذا الوضع لا يليق البتة بالإسلام. فربما يحيا الإسلام ديناً سرّيًا في الخفاء، في ظل نظام ديكتاتوري، ولكن ليس في ظل نظام ديمقراطي.

---

(١) أحمد فون دنفر: (ed) «الإسلام هنا واليوم»، كولونيا (١٩٨١) ص ٧٣.

وتشكل هذه الإشكالية موضوعاً لمناقشات عارمة ومستمرة بين المسلمين الألمان. والسؤال الذي يطرح نفسه دائماً: ما وطن المسلم الألماني؟ هل يجب عليه أن يهاجر من أرض لا تعرف الله، إلى أرض يعبد فيها الله، كما فعل الرسول ﷺ عام ٦٢٠م؟ ولكن إذا كانت ألمانيا وطنه - وهي كذلك فعلاً - ألا يستطيع أن يبدو ألمانياً في ملبسه دون الشعور بالذنب؟ (وإذا أطلق لحيته سنّة عن الرسول يكون ذلك أفضل).

ولقد أثرى عبد الله بوريك Abdulla Borek المناقشة بالورقة التي قدمها في اللقاء الثاني والأربعين للمسلمين المتحدثين بالألمانية، في ليتزلباخ، يوم ٨من يونية عام ١٩٩١[1] وكان عنوانها: «في وضع المسلمين الألمان». ولقد أطلق تحذيراً - وبحق - من أن يصير الإسلام، ذلك الدين العالمي، بمعتقديه المليار ديناً للثقافة والسياسة التركيتين (ومن ثم نكون كمن يغذي الفكرة السابقة، التي تبناها يوماً ما مترجما القرآن ميزلين وشفايجر في القرنين الرابع عشر والثامن عشر، حينما عدّا القرآن «كتاب الأتراك المقدس»). ويعتقد بوريك بضرورة أن يحمل مسلمون ألمان شعلة الإسلام في ألمانيا، حتى لا يستمر النظر إليه بوصفه «ديناً أجنبياً»، ويذكر بحقيقة أن الإسلام قد تزاوج على مر التاريخ مع مختلف الحضارات: العربية، والفارسية، والهندية، والإندونيسية، والتركية وحضارة البربر. فلماذا لا يكون لدينا «إسلام ذو ملامح أوربية»؟

ولقد أثارت هذه المحاضرة جدلاً كبيراً بصدد نقطتين وردتا فيها. إنني أتفق مع بوريك Borek في مدخله النظري ومنطلقات أفكاره. فلماذا لا يكتسب الإسلام صبغة أوربية، من خلال تداخله وجدله مع الحضارة الأوربية، طالما أنه لن يتحول

(١) نشر النص كاملاً في جريدة: «الإسلام» ميونيخ، (١٩٩١) العدد ٢.

إلى إسلام أوربي إصلاحي؟! أي طالما أن وحدة الإيمان والدين لن تمس؟ فمسلمو أمريكا وأوربا لديهم الكثير ليضيفوه للإسلام، ويثروا به هذا الدين، لأنهم لا يخفون فضولهم وشكوكهم. فهم لا يضخون إلى الإسلام دماءً جديدة فحسب، بل ينظرون إليه بعيون جديدة أيضاً. ونظراً لعدم تعرضهم للتربية التي تُخضع المرء للسلطة الدينية المنتشرة في البلاد الإسلامية، فإنني أراهم بلا شك مهيئين - إن لم يكن علمياً، فعلى الأقل نفسياً - لا لطرق أبواب الاجتهاد التي ظلت مغلقة مدة طويلة فحسب، بل لا جتيازها أيضاً.

وإنني أصل إلى هذه النتيجة دون أن أدعي - كما فعل غيري - أن الإسلام الحقيقي لا يوجد الآن فيما يسمى بالعالم الإسلامي، وإنما يوجد في أوربا والولايات المتحدة. ولقد عبر المسلم الفرنسي جون كارتيجني John Cartigny عن هذا الرأي، بمقولة قصيرة تحمل قدراً غير ضئيل من الاستفزاز، هي: «الإسلام الحقيقي تجده في المنفى». وتنطلق وجهة النظر الصوفية الأوربية هذه من حقيقة مفادها أن الإسلام ليس شأناً فردياً فحسب، بل لابد أيضاً من أن يعاود المرء دائماً الرجوع إلى الإسلام، «ومن أن يعاود اعتناق الإسلام».

ولكن، مما يدفع المرء إلى التفكير، أن يصرح لي رجل يتسم تفكيره بالواقعية الشديدة، مثل محمد أسد، في أخريات حياته، بشكه في أنه - إذا ما عاد إلى شبابه - سيجد طريقه إلى اعتناق الإسلام في العالم الإسلامي اليوم. ولقد عبر في مرارة شديدة عن الرأي، الذي تردد أخيراً بشكل لافت للنظر، والقائل بأن الشرق يعج بأعداد غفيرة من المسلمين، ولكن بالقليل جداً من الإسلام، وأن بالغرب الكثير من الإسلام، ولكن بالقليل جداً من المسلمين.

وبالنظر إلى هذا الموقف، أتوقع أن تؤتي حركة الإحياء الديني، التي بدأت في القرن التاسع عشر ثمارها في القرن الحادي والعشرين، من خلال تعاون علماء

أوربيين وأمريكيين مع علماء عرب مستنيرين لا تنقصهم الجرأة والشجاعة، وبصفة خاصة من المصريين، إلى جانب علماء باكستانيين وماليزيين. ولقد هاجر بالفعل الكثير من هؤلاء من أوطانهم، واستقروا في الغرب... في لندن، وواشنطن، ولوس أنجيلوس، لأنهم يجدون هنا وهناك فقط العوامل والشروط الضرورية لنجاح العمل، دون أن يتعرضوا لرقابة ما أو خطر يهدد حياتهم.

إننا، إذا أردنا تقدم الإسلام بوصفه بديلاً حيوياً وحديثاً في عصرنا هذا، فعلينا - لتحقيق هذا الهدف - أن نجري عملية إصلاح هائلة، تتلخص في عدة نقاط:

١ - مراجعة الأحاديث النبوية، وتنقيتها مما ألصق بها من دون وجه حق، وهذا ما فعله عباقرة المحدِّثين في وقتهم، مثل: مالك والبخاري ومسلم.
٢ - فصل الشريعة - وهي جوهر حق الله غير القابل للتغيير - عن أعمال الفقهاء.
٣- توضيح وتحديد العلاقة بين القرآن والسنّة.
٤ - فصل العناصر الثقافية والحضارية للتقاليد والعادات الإسلامية، عن جوهر الإسلام.

وهذه مهام، يصاب المرء بدوار شديد إذا ما فكر فيها مجتمعة[١]. ومع ذلك،

(١) أما ما يجب إنجازه، فتدلنا عليه قراءة الكتب الآتية: حسين أمين: «كتاب المسلمين» ١٦٨. (باللغة الفرنسية)، باريس، (بناءً على الطبعة العربية الصادرة عام ١٩٨٣). طه جابر: «القرآن والسنّة - عنصر الزمان والمكان»، هرندن (١٩٩١) (باللغة الإنجليزية). محمد أسد: «الدولة والحكومة في الإسلام» (باللغة الإنجليزية)، جبل طارق (١٩٦١). و«قانوننا هذا»، جبل طارق (١٩٨٧). محمد كاربال «المنح الدراسية الغربية والصحوة الإسلامية في العالم العربي»، المنشورة في المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية»، هرندن، الجزء ١٠، العدد ١، ربيع عام ١٩٩٣. عمران أحسن خان نيازي: «نظريات في الشرع الإسلامي - منهج الاجتهاد» إسلام آباد (١٩٩٤). عبد الحميد أبو سليمان: «نحو نظرية إسلامية عن العلاقات الدولية»، الطبعة الثانية، هرندن (١٩٩٣) وإسهامي الخاص: «إسلام عام ألفين»، القاهرة (١٩٩٥)، متوافر باللغة العربية فقط.

فإنني أجد اقتراح بوريك الثاني مثيراً للمشكلات. فهو يقترح أن ينظم المسلمون من أصل ألماني أنفسهم في مجموعة ذات مصالح خاصة، تتمتع بتنظيم خاص، يعبر عن مصالحها في شكل «مجلس مركزي للمسلمين الألمان».

فأنا أرى أن هذا الاقتراح يتنافى تماماً مع مبدأ إسلامي أساسي وأصيل، هو عدم التفرقة بين المسلمين وفق أجناسهم، وألسنتهم، وقومياتهم. ونظراً لأن ٩٧٪ من المسلمين في ألمانيا من غير الألمان - وهو ما يشكل إزعاجاً شديداً من الناحية التنظيمية - فإن المسؤولين يستخدمون هذه النسبة - بترحاب شديد - لرفض قيام أي تنظيم على هذه الصورة المقترحة.

وبطبيعة الحال، فإن من الخطر إسقاط العداء للأجانب على الإسلام، كما أن شق وحدة الصف، وإشاعة الفرقة بين الأمة إلى ألمان وأجانب، لهو عمل قاتل وغير مثمر. فهل من المعقول أن نطلب من الأتراك الذين يشكلون أكثر من ٨٠٪ من المسلمين في ألمانيا، ويتحملون القسم الأعظم من تمويل الأنشطة الخاصة بالمسلمين بها، أن يمثلهم عامة الألمان؟!

إن على المسلمين الألمان أن يعملوا على الإعلاء من شأن الإسلام، وعلى الحصول على اعتراف به، متعاونين في ذلك مع إخوانهم وأخواتهم من الأجانب.

تقودنا هذه المناقشة إلى خلفيتها الحزينة، أي الانقسام المزعج الذي يعاني منه مسلمو ألمانيا. فالعمال الأجانب، ينظمون أنفسهم بطبيعة الحال وفق معايير قومية، إذ إن من الصعب أن يشعر المرء بأنه غريب. وإلى جانب ذلك، تقوم بعض الدول، التي تخشى الهجرة المضادة بتمويل الاتحادات الوطنية لمهاجريها.

ولكن مما يؤسف له، أن هذه التنظيمات تشهد انقسامات عرقية، وسياسية، ودينية. فالمرء ليس تركياً فحسب، بل هو أيضاً إما سني، وإما علوي. . . إما تركي من أصل كردي، وإما تركي من أصل شركسي. . إما صوفي، وإما متشدد.

وكل هذا في جانب، والأسئلة التالية في جانب آخر: ما موقفك من مصطفى كمال أتاتورك؟ ما موقفك من حزب «الرفاه الإسلامي»، ومن منظمة «رؤية العالم القومية: أوروبا» التابعة لـ (IMGT) في كولونيا؟

ولهذا السبب، نشأت في أواسط الثمانينيات في برلين مظلة تجمع تحتها ٢٧ جماعة إسلامية. وأبلغ مثال تلحظه العين المجردة على الانقسامات داخل نسيج العمال الأجانب، هو تجاور مسجدين تركيين، أحدهما تموله الوحدة التركية الإسلامية (DITIB)، وهي مكتب خارجي لوزارة الأوقاف التركية، ولا يتردد عليه كثير من المصلين. أما المسجد الآخر، فيرعاه العمال الأجانب من الأتراك، أو على وجه الدقة (IMGT)، وهذا المسجد غالبًا ما يمتلئ عن آخره بالمصلين والرواد.

ويكمن السبب الرئيسي لهذه المأساة التنظيمية، في أن جميع الانقسامات التي يعاني منها العالم الإسلامي تنتقل مع المهاجرين إلى ألمانيا. فالخلافات بين أتباع المذهب السني وأتباع المذهب الشيعي، أو بين المتشددين والمتصوفة، والخلافات المشتعلة بين الحكومات، وبين الحكومات والمعارضات تجد طريقها إلى الأراضي الألمانية.

هل ترغب في رؤية مسجد للشيعة؟ إنك لست في حاجة إلى الذهاب إلى النجف. . فالطريق إلى هامبورج يفي بالغرض. هل ترغب في عقد مقارنة بين متصوفة طريقة النقشبندية السنّية، وطريقة بكتاظي (الملفقة من مدعي المسيحية

ومدعي الشيعية)؟ . . لا تسافر إلى الأناضول، فألمانيا تفي بالغرض. هل تريد إجراء حوار مع العلويين المميزين بمعاطفهم الخفيفة؟ . . هيا، لنقم بذلك هنا في الحال. هل ترغب في مقابلة ممثلين لمنظمة المؤتمر الإسلامي (OIC) - طائفة الأحمدية الباكستانية سابقاً؟ . يكفيك لتحقيق ذلك أن تقوم بزيارة قصيرة إلى فرانكفورت.

ينشأ المسلمون على فكرة أن التنوع - التعدد في الإسلام - تراث فيتبعونه. ولكن حتى هذا التراث يأخذ أحياناً أشكالاً مبالغاً فيها تصل إلى حد المغالاة. ولا تبدو صورة المسلمين من أصل ألماني أفضل من ذلك. فالمرء منا يعتقد أننا جميعاً فطرنا على الانعزال وإعلاء قيمة الفرد، ولكن أياً كانت قيمة وثراء إسهامات الأفراد؛ فإن الجماعة والفعل المشترك يُعدان من أهم مقومات الحياة الإسلامية.

من الجائز أن يقوم السكرتير العام لمنظمة المسلمين الألمان بأعمال مفيدة، وأن يؤدي القائم على أعمال أرشيف الإسلام[1] أعمالاً جليلة للإسلام من خلف مكتبه في Soest، ولكن المشاركة في حياة الجماعة تأخذ صورة أخرى، وتكتسب كذلك قيمة عظمى.

غير أنه لا يجوز بطبيعة الحال أن نأخذ على الشيعة الألمان إدارتهم لمركز خاص بهم، وإصدارهم صحيفة ناطقة بلسانهم في هامبورج[2]. ومن الطبيعي كذلك

---

(١) عنوان المعهد المركزي إسلام - أرشيف ألمانيا سويست ٥٩٤٩٤ ش بريد رقم ١٦. ت ١٤١١٦ (٠٢٩٢١). وتصدر عن هذه الدار «المجلة المسلمة» المدير: م. س. عبد الله.

(٢) عنوان المركز الإسلامي (الشيعي) وجامع الكبير التابع له ش: شونه أوسنريشت ٣٦، هامبورج ٢٢٠٨٥. ت: ٤٧٨٠٤١ (٠٤٠). ويدير المركز د. علي عماري. وتصدر عنه جريدة «الفجر» ت (٢٢١٢٢٠).

أن يكون للمتصوفة مركز ودار نشر خاصة بهم[١]، على الرغم من أن دورهم محدود جداً إذا ما قورن بالدور الذي يقوم به المتصوفة في بلد الجوار فرنسا، حيث يتبع معظم معتنقي الإسلام نهج ابن عربي (ولد في مرسية ١١٦٥، وتوفي بدمشق عام ١٢٤٠) الملقب بـ«الشيخ الأكبر». (تعود بدايات هذه الظاهرة إلى رينيه جينون الذي عرف فيما بعد بالشيخ عبد الواحد يحيى شيخ الطريقة الشاذلية). ويتحرك المتصوفة الفرنسيون المحدثون من أمثال Michel Chodkiewicz Eva Vitray Charles Andre Gtelis Meyerovitch مثل معلمهم ابن عربي في منطقة الحدود التأملية بين الغنوصية الضاربة بجذورها في أعماق الفلسفة الإغريقية (أي معرفة الله) ومذهب وحدة الوجود.

وتختلف الصورة كلية إذا ما انتقلنا إلى ألمانيا. فبفضل التأثيرات التركية، غالباً ما يتبع المتصوفة مذهب دراويش النقشبندية المتشددين، الذين ترجع نشأتهم إلى منطقة وسط آسيا. ولذلك، فليس من قبيل المصادفة أن تكتب المتصوفة الألمانية Michaela Mihibran Ozelsel أكثر الكتب علمية وعقلانية عن التصوف الإسلامي[٢].

---

(١) المقصود هنا: جماعة الطرق الصوفية بألمانيا، التي أسسها الألماني حسن عبد الفتاح في زالتسها وزن بشمالي ألمانيا، ويصدر عنها مجلة «صوفي».

أما دار نشر تربان (يعني الحمامة «مترجم») في بوندورف في منطقة الغابة السوداء، فتتبع طريقة النقشبندي. انظر تعاليم الصوفي ناظم عدل الحقاني التي صدرت عن هذه الدار، في كتاب يحمل عنوان: «درب رفقاء الطريق»، بوندورف (١٩٩١).

العنوان ش شول رقم ١٥ بوندورف ٧٩٨٤٨ت: ٩٤١٥(٠٧٦٥٣).

(٢) انظر ميشائله أتسلمزل: «٤٠ يوماً - تقرير عن تجربتي وسط جماعة دراويش تقليدية» ميونخ الطبعة الثانية (١٩٩٥).

إننا نعتقد أن هناك ٨ أو ٩ مجلات إسلامية تصدر في ألمانيا، من بينها «المجلة المسلمة» التي صدرت عام ١٩٢٤ في حجمها الصغير، وكذلك المجلة النسائية الإسلامية «هدى» التي تصدر في مدينة بريمن، و «الجريدة الإسلامية» التي تصدر في مدينة فايمار.

وعلى الجانب الآخر، هناك إصدارات متفرقة، يتخطى توزيعها منطقة طباعتها، مثل: «الإسلام»، و «الإسلام الآن». وهذه الإصدارات تطبع في ميونخ وتعد أكثر المطبوعات الإسلامية انتشاراً وأكثرها حيوية، وأعظمها أهمية في ألمانيا[١].

أما وجود دور نشر، مثل «المكتبة الإسلامية» köln Dünnwald[٢] و «S.K.D - بافاريا»[٣] بميونخ، فهو أبلغ دليل على وجود دور نشر يدير كلاً منها رجل واحد، وتعاني من ضآلة رأس المال والتخلف التكنولوجي، بدلاً من وجود دار نشر إسلامية كبرى حديثة، قادرة على تحقيق إنجازات كبيرة.

وثمة سلبية أخرى للعمل الفردي، تتمثل في اللجوء إلى بعض «الخداع المهذب»، أو «الكذب الدبلوماسي». فلك أن تتخيل وضعك متحدثاً عن القسم الألماني بالمؤتمر الإسلامي العالمي (الذي فقد أهميته)، أو رابطة المسلمين الألمان.[٤] فلقد كانت المنظمتان وما تزالان حتى الآن ذواتي نفع كبير، ولكنهما

---

(١) «الإسلام»، شارع فالنر رقم ١ - ٥ ميونخ ٨٠٩٣٩. ت: ٦٢/ ٣٢٥٠٦١(٠٨٩).

(٢) دار نشر المكتبة الإسلامية، ص.ب ٨٣٠١٣٥. كولونيا ٥١٠٣٤. ت: ٦٠٣١١١ (٠٢٢١). مدير الدار: م.ا. رسول.

(٣) دار نشر S R D، بافاريا: ص.ب: ٤٣١٠٢٩. ميونخ ٨٠٦٤٠. ت ٣٩٢٠٨٨ (٠٨٩) مدير الدار: د.أ. خفاجي.

(٤) رابطة المسلمين الألمان. ص.ب. ٢٠٢٢١٧. هامبورج ٢٠٢١٥. مدير الأعمال: عبد الله بوريك Abdullah Borek.

أقرب إلى دائرة أصدقاء صغيرة ذات اسم كبير، وبالتالي فقدتا الكثير من فاعليتهما.

أما مبادرة محيي الدين لودن، التي قام بها عام ١٩٨٩، لإنشاء حزب إسلامي[1] على مستوى ألمانيا كلها، فقد ماتت في مهدها ولم تر النور. ولقد كانت في حقيقة الأمر أكبر بكثير مما يتحمله واقع الحياة في ألمانيا، حيث يوجد ٥٠ ألف مسلم فقط يتمتعون بحق الانتخاب. ففي مقاطعة Nararhein Westgalen، حيث يتركز غالبية المسلمين الألمان (١٤ ألفاً تقريباً)، يكون حزب كهذا بلا فاعلية أو فائدة تذكر.

إذا أراد المسلمون في ألمانيا أن ينالوا الاعتراف بهم، فإن عليهم إقناع الناس بأن يأخذوهم مأخذ الجد. وإذا رغب المسلمون في تحقيق هذا، وجب عليهم في المقام الأول أن يحذروا من أدنى شبهات الدجل والاحتيال والنفاق في عملهم.

أما أهدافهم السياسية، فلا يمكن تحقيقها - في المستقبل القريب - إلا من خلال الأحزاب السياسية الموجودة بالفعل على الخريطة السياسية الألمانية، حتى وإن لم يتفقوا مع كل ما تتضمنه برامجها السياسية، وأن يتم مع ذلك العمل بشكل ثابت على أن يكون هناك تفهم للإسلام، وعلى الاعتراف به، والعمل على نشره. وتقوم جماعة من النساء والرجال بالعمل بجد ونشاط على تحقيق هذه الأهداف من أمثال:

Ahmad von Denffer, Muhammad Siddiq,Harun Behr Fatima Grimm, Dr Mehmet, Amina Erbakan Hobhom, Muhammad Aman Hofohm, Hassan

(١) قام أ. د. محيي الدين لودن، عام ١٩٨٩، بتوجيه الدعوة للعمل في هذه المنظمة في جريدة «الإسلام»، العدد ١، والتي تصدر في ميونخ. ولكن دعوته ذهبت أدراج الريح.

وكـذلك بعض المؤسسات Haache, Abdulkarim grimm,Dr. Ayubhköhler مثل : «بيت الإسلام» في VC Odenwald ونزل دار السلام التابع له ، والذي يتمتع بإدارة إسلامية والعديد من المراكز الإسلامية الأخرى المنتشرة في ألمانيا من آخن شمالاً إلى ميونيخ جنوباً ، ومن كارلسروهة إلى برلين[1] .

ويتسم مناخ العمل في هذه المؤسسات والمراكز بالإصرار والعزم على إعلاء كلمة الله ، وذلك دون مزايدات أو صراع . فهي تعقد مؤتمراً تلو الآخر ، وتقيم معسكرات للشباب ، وتنظم أسابيع إعلامية بشكل مكثف ، إلى جانب تنظيم رحلة حج تلو الأخرى . وفي كل ذلك ، يجري العمل بإيمان عميق ، وتفان منقطع النظير ، ولا ينقصه الإخلاص ولا الأمانة والأخوة ، ويطلق على هذا الأسلوب من أساليب العمل : العمل من القاعدة ، أي رعاية جذور الشجرة بصبر وتأن ، بدلاً من الرغبة في جني ثمارها حتى من قبل أن تنمو .

إنني أشيد بنشاط الجماعة الإسلامية بميونخ ، التي تتأثر كثيراً في عملها بالكاريزما التي تتمتع بها شخصية أحمد فون دنفر . وليس من قبيل المصادفة ، أن تقام أولى دور الحضانة الإسلامية وأول مدرسة ابتدائية إسلامية في ألمانيا بميونخ . وتضم المدينة ، بالإضافة إلى ذلك ، أول مركز للخدمة العامة بصيغتها الإسلامية ، كما تتخذ منها هيئة تحرير مجلة «الإسلام» مقراً لها . وهي إلى جانب ذلك ، تضم المركز الرئيس للكشافة الإسلامية[2] ، والمركز الرئيس لمنظمة المعونة والإغاثة :

---

(١) بيت/ دار الإسلام : ش شبلر رقم ٤٦ . ليتزلباخ ٦٤٦٥٠ ، ت : ١٣٤٨ (٠٦١٦٥) . المدير : محمد صديق .

(٢) تكونت عام ١٩٨٨ ، ويقوم تيلمان شايله برعايتها ، وترفع شعار : «الله أكبر - على استعداد دائم» . وشعارهم يحوطه هلال ونجمة خماسية .

«المسلمون يتعاونون». كل هذه المؤسسات في ميونخ، أو بالقرب منها[1].

لم يكن من قبيل المصادفة إذن أن يكون للمركز الإسلامي بميونخ، وكذلك للجماعة الإسلامية في جنوبي ألمانيا، الحق بل السلطة - في أثناء مسألة سلمان رشدي - في إدانة واستنكار التهديد بالقتل، الذي أطلقته السلطات الإيرانية الشيعية، ضد الكاتب المجدف سلمان رشدي. ولقد قامت الجماعة باتخاذ الموقف اللائق، والرد قولاً وفعلاً على هذا الأمر[2].

وفيما يختص بالأشكال التنظيمية للمسلمين في ألمانيا، تمثل (TDM) «لقاءات المسلمين الناطقين بالألمانية»، التي أخذت شكل المؤسسة، تطوراً إيجابياً، ليس فقط من المنظور التنظيمي، بل وأيضاً بما تحققه بالفعل من أهداف.

ولا يمكن ذكر هذه اللقاءات، دون الإشارة إلى الإسهامات القيمة لكل من أحمد فون دنفر ومحمد صديق. وتعقد هذه اللقاءات سنوياً منذ عام ١٩٧٦، ثم صارت تعقد من منذ عام ١٩٨١ ثلاث مرات في العام الواحد. ولقد كثر عقد هذه اللقاءات، حتى إنه تعقد الآن - بالإضافة إلى اللقاءات المركزية - عدة لقاءات محلية في العام الواحد.

---

(١) هذه المؤسسة، تتعاون مع المؤسسة المماثلة لها في لندن: معونة المسلم. ولقد قامت المؤسسة بتوفير المواد الغذائية والأدوية للاجئين من البوسنة والسودان. العنوان: ص ب ١٦٠٧، جسارشنج ٨٥٧٤٠. ت: ٣٢٦١٩٨١ (٠٨٩). رقم حساب لتلقي المعونات: بوستجيرو أمت فرانكفورت، رقم حساب ٦٠٤ - ٦٥٦٩ (BLZ ٥٠٠١٠٠٦٠).

(٢) أعلن أحمد فون دنفر وقتها، أن فتوى الخوميني غير ملزمة لأي فرد، وأن حكم الخوميني يستند إلى خطأ قانوني، حيث إن تهمة الردة لا يجب أن تتساوى مع الخيانة العظمى. ولقد ذكر في رسالة عامة قوله: «نحن لا نرحب بتهديد القتل الصادر عن إيران». انظر مجلة: الإسلام، ميونخ (١٩٨٩)، عدد: ١ (واحد)، ص٩، ص ١٩.

هذه اللقاءات مُدت فيها، منذ وقت مبكر، الجسور بين المسلمين ووضعت هذه اللقاءات نصب عينيها محاولة إيجاد حلول للمشكلات الملحة التي تواجه المسلمين في ألمانيا، مثل: الدروس الدينية بالمدارس، ومراجعة الكتب المدرسية وإعادة النظر فيها، وإقامة مظلة تضم مسلمي ألمانيا كافة(١).

ولقد كنت أشارك في المدة من (١٩٨٠- ١٩٨٧) في اللقاءات الشتوية بمسجد بلال في مدينة آخن. ولقد عادت هذه اللقاءات عليّ بمكاسب طائلة، خصوصاً تلك اللقاءات التي تعقد في عطلة نهاية الأسبوع، ولا يعود ذلك إلى المحاضرات مجموعات العمل ومعارض الكتب فقط، بل وأيضاً إلى لقائي بمسلمين جدد، وكذلك لمتعة الأحاديث المتجددة والشائقة، والتي نتجاذب أطرافها حين تضمّنا مائدة طعام واحدة، حيث كان كل منا يضيف للآخر شيئاً جديداً.

وتمتاز هذه اللقاءات بالتنويع، لأن معظم المشاركين فيها مسلمون أجانب، ينتهزون هذه الفرصة لارتداء أزيائهم الوطنية. وتستطيع أيضاً أن تتبين من هيئة بعض المسلمين الألمان ما إذا كان الذين عاونوهم في التعرف على الإسلام عرباً، أو أتراكاً، أو باكستانيين(٢)، حيث يتأثرون بهم حتى في ملبسهم.

كانت هذه اللقاءات تضم، بالإضافة إلى المسلمين، ملاحظين ومراقبين من المكتب الاتحادي لحماية الدستور. وكان هؤلاء يستمتعون بهذه اللقاءات، ويجدون فيها قدراً غير قليل من السعادة.

يواجه المسلم في ألمانيا دائماً خطر الدخول في صراع مع العالم المحيط به،

(١) انظر أحمد فون دنفر (ED): الإسلام هنا واليوم. أوراق من لقاءات المسلمين المتحدثين بالألمانية ١-١٢ (١٩٧٦- ١٩٨١) كولونيا: (١٩٨١).

(٢) أحمد فون دنفر. انظر المرجع السابق.

والصدام مع من يقاسمونه الحياة في هذا البلد. فهو يسبح ضد التيار السائد، ويحيا وفق منظومة قيم مغايرة لمنظومة القيم التي يتبناها السواد الأعظم من مواطني هذا البلد. ومن مظاهر هذه المشكلات، عدم السماح للعامل بأداء الصلاة في مكان عمله وفي أثناء مواعيد العمل، وعدم توافر مواد غذائية يحل للمسلم تناولها بمحالٍّ بيع الطعام، وصعوبة الحصول على لحوم ذبحت وفق الشريعة الإسلامية لتناولها بالمنزل.

أما النصيب الأوفر من هذه المشكلات، والقدر الأكبر من الأضرار الناجمة عنها، فينالهما الأطفال. فالفتيات، يتعرضن للسخرية، بسبب ارتدائهن الحجاب، أو لامتناعهن عن دروس السباحة المشتركة مع الفتيان، أو لرفضهن ارتداء ملابس بحر مكونة من قطعتين، وهو الأمر الذي يعرضهن للمساءلة أمام محكمة القضاء الإداري، ومن دواعي سروري، أن محكمة القضاء الإداري بميونخ، أقرت في عام ١٩٩٠ أنه فيما يخص دروس السباحة المختلطة، فإن حق التربية الذي يتمتع به الوالدان يمكن أن يحد من واجبات وتكاليف التربية التي تتمتع بها الحكومة، وبصفة خاصة إذا ما استند الوالدان إلى أسباب دينية. هذه الواقعة، تلتها حادثة أخرى عام ١٩٩١، حيث أعفت محكمة القضاء الإداري في مدينة بريمن تلميذة تركية من حضور دروس الألعاب الرياضية المشتركة للسبب ذاته - أسباب دينية - أما أكثر ما أسعدني، فهو قرار المحكمة بأن تفسير القرآن شأن يخص الوالدين، وليس المسؤولين أو المحكمة، أي إنه ليس من حق أحد من غير المسلمين أن يفرض على الوالدين التركيين تفسيراً للقرآن.

يعاني الأطفال المسلمون أكثر ما يعانون في أثناء دروس التاريخ، بسبب التشويه والافتراءات التي يتعرض لها الإسلام وتاريخه على صفحات كتبهم

المدرسية. ولقد تكونت في اللقاء الخامس للمسلمين الألمان عام ١٩٧٧ مجموعة عمل لتصحيح هذا الوضع. وتحمل هذا المجموعة اسم «كتاب مدرسي» وانبثق عنها في كولونيا مشروع بحثي عن الإسلام في الكتب المدرسية في ألمانيا الاتحادية. ويقوم عبد الجواد الفلاتوري بدفع هذا المشروع وتدعيمه، ويشاركه في هذا بعض الشخصيات غير المسلمة مثل: Udo Tworuschka, Peter Hans Oalking

ولقد قامت هذه المجموعة بتحليل نحو ٦٠٠ كتاب مدرسي مصرح بها في المدة ما بين ١٩٧٩، ١٩٨٦، في مواد التاريخ، والجغرافيا، والمذهبين الكاثوليكي والبروتستانتي[١]. وجاءت النتائج لتثير إزعاجاً كبيراً ومخاوف هائلة، إذ أعادت إلى أذهاننا مدى قدرة الفرد على ارتكاب جرائم مروعة وهو جالس خلف مكتبه، ومن خلال ممارسات بيروقراطية وإصدار أوامر، دون أن تمس يده إحدى ضحاياه (نسبة إلى إيهمان وتسببه في قتل أعداد كبيرة من اليهود، من خلال إصداره قرارات بعينها، وذلك دون أن يمس إنساناً واحداً بيديه). فهل نستطيع، بعد مراجعة الكتب، أن نستبعد من مضمونها ومحتوياتها ما ينطوي على تصوير سلبي للإسلام، يُعدّ أحد دوافع العنف ضد المسلمين، أو أحد أسباب كراهية الألمان المستمرة للإسلام، والتي ترتب عليها محاولة إحراق المركز الإسلامي بميونخ عام ١٩٩٤؟

قام فلاتوري، استناداً إلى هذا التحليل، بنشر عدة اقتراحات محددة، بغرض تحقيق تناول الإسلام وتاريخه تناولاً موضوعياً في كتبنا المدرسية[٢].

(١) انظر: دراسات في الأبحاث الدولية للكتب المدرسية، مجلد ٥٣: «الإسلام في الكتب المدرسية في جمهورية ألمانيا الاتحادية». هانز فوكنج ومجموعة من الباحثين: «تحليل لكتب الدين الكاثوليكية وتناول للإسلام»، براونشفايج (١٩٨٨).

(٢) عبد الجواد فلاتوري (ED): «الإسلام والتدريس بالمدارس. مساهمات للتربية المتداخلة الحضارات في أوروبا». براونشفايج (٩١٩١).

وعلى الرغم من هذه المحاولات، فإن معاناة نحو ٥٠٠ ألف طفل مسلم في المدارس الألمانية ما تزال مستمرة، وذلك لأن تدريس مادة الدين الإسلامي بالمدارس الحكومية لم يصبح بعد أمراً طبيعياً مسلماً به، وذلك على الرغم مما أعلنه وزير التعليم Krollmann بمقاطعة هيسن في عام ١٩٨٤ من أن مساواة الإسلام بالكنائس المسيحية أمر دستوري[1].

وتدعي بعض البلدان الاتحادية أن تدريس مادة الدين الإسلامي بالمدارس، يتطلب الاعتراف أولاً بالدين الإسلامي ديناً لجماعة ما، متمتعة بالحقوق العامة.

وتعرب بلدان أخرى مثل Nordrhein Westfalen عن استعدادها لتدريس الدين الإسلامي، ولكن وفق منهج تحدده هي. وتقوم بلدان أخرى بتوفير فصول خاصة بالمدارس، لتدريس الدين الإسلامي. ولقد سمحت مقاطعة بايرن، في أول بادرة من نوعها، بإنشاء مدرسة خاصة للمسلمين تدعمها المقاطعة.

أما صيام العمال والأطفال خلال شهر رمضان، فيقابل بشيء غير قليل من التوجس وعدم الترحيب. ويسعد الأطفال أيما سعادة، إذا ما أعفوا يوماً واحداً من المدرسة في أثناء عيد الفطر.

أما مسألة المساجد وبنائها، فتثير الحزن في النفس، لما يتم من وضع العراقيل كافة في سبيل تحقيق ذلك، سواء تم ذلك بطرائق مشروعة أو غير مشروعة، ويتم هذا في حين تتعاون الجماعات الإسلامية لبناء الجوامع.

تتشابه البوسنة إلى حد كبير مع منطقة جبال الألب، بمقاطعة بايرون، من حيث طبيعة كل منهما. ولكن في حين تنسجم مئذنة جامع مع طبيعة البوسنة، فإنها

(١) جريدة فرانكفورتر ألجمانيه بدءاً من ٢١/ ٥/ ١٩٨٤.

على ما يبدو تتنافر بل تشوه طبيعة بايرن المسيحية. فأهل المقاطعة، يرون في مرأى مدخنة مصنع ينبعث منها الدخان بكثافة قيمة جمالية أكبر وأرقى من مرأى مئذنة.

وغالباً ما يضطر المرء لخوض غمار حرب في المحاكم، للحصول على تصريح البناء. ولقد شن أحد مواطني مدينة Kehl عام ١٩٨٩ حرباً صليبية شعواء لوقف بناء جامع، حتى إن حربه هذه وصلت آخر الأمر إلى المحكمة الإدارية الاتحادية. وقد طالب هذا المواطن المحكمة بحمايته من الإزعاج الذي يصيبه ليلاً، عندما يرتفع صوت الأذان ليدعو لصلاة الفجر. ولكن لسوء حظه، فإن الحي الذي يقطنه يعج بأماكن تنبعث منها الضوضاء، وبه كذلك كنيسة تدق أجراسها.

أما الشيء المخزي، فهو عملية المساومة بشأن ارتفاع المئذنة. حتى إذا ما أخذت تصريحاً لبناء جامع، فلا يجب أن يتعدى ارتفاع المئذنة ارتفاع برج الكنيسة المجاور. ويعد نجاح المسلمين في مدينة Pforzheim في بناء مئذنة يصل ارتفاعها إلى ٢٦ متراً إحدى معجزات التسامح. أما إخوانهم في Bobingen، فقد أرغموا على الحد من ارتفاع المئذنة، والوصول به من ٢٦ متراً إلى ١٢ متراً، وما زالت قضيتهم محل خلاف ومتداولة في المحاكم. أما في مدينة آخن، حيث يواجه المسلمون صعوبات هائلة لتوسيع الجامع الذي ضاق برواده، في هذه المدينة لا يحاول حزب الخضر إخفاء أسبابه الحقيقية، أو حتى التعبير عنها بشكل دبلوماسي، في وضع العراقيل أمام المسلمين لتحقيق هذا الغرض. وأسبابهم تلك إنما هي أسباب سياسية بحتة[١]. وهم بذلك إنما يحرمون في واقع الأمر ٢٠

---

(١) المركز الإسلامي بآخن (مسجد بلال)، ش بروفسير بيرليه رقم ٢٠، ت ٨٢٠٣٣٠٣٤ (٠٢٤١). المدير: العطار. المسؤول عن الحوار والمجال العام: أيمن مازيك.

مقاومة الخضر لبناء مسجد جديد، انظر: مجلد «دي تسايت» عدد ٤٢، تاريخ ١٢/ ١٠/ ١٩٩٠.

ألف مسلم يعيشون في آخن وما حولها من ممارسة حرياتهم الدينية، بالمعنى العميق والدقيق للكلمة، وهذا بمنزلة إعلان الحرب على الإسلام.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يتعداه إلى صور أخرى من التعسف. فبعض المصالح، تسمح ببناء مئذنة، ولكن مع الالتزام والتعهد بعدم استخدامها في غرضها الأساسي، أي لرفع الأذان!! ويكون هذا الشرط مقبولاً، إذا ما منعت هذه المصالح دق نواقيس الكنائس، ولكنهم بالطبع لا يفعلون، لأن الكنائس تتمتع بحماية يكفلها لها «الحق العرفي»، وكأن مادة الدستور التي تنص على المساواة لا قيمة لها مقارنة «بالحق العرفي».

ولقد لجأ مسلمو إسبانيا إلى هذه الحجة القانونية، ونجحوا من خلالها في رفع الأذان مرة أخرى في قرطبة عام ١٩٩٤، بعد انقطاع دام خمسة قرون.

وأتساءل أحياناً متهكماً: هل تصبح الجوامع في ألمانيا محتملة، إذا ما دقت الناقوس إيذاناً بموعد الصلاة بدلاً من رفع الأذان؟!![1] أو أن ينطلق المؤذن مردداً «بِم بَم – بِم بَم» بدلاً من «الله أكبر»؟!!

وإنه لمن المثير للتفكير وللدهشة في آن واحد، أن يضطر المسلمون إلى اللجوء للقضاء، حتى يحصلوا على حقوقهم، ويتمكنوا من ممارسة حرياتهم. ويدل هذا بطبيعة الحال على أننا نحيا في دولة يحكمها الدستور، لكنها لا تعمل في حقيقة الأمر بروح هذا الدستور!

وربما يعتقد المرء أن مشكلات المسلم في ألمانيا، التي يواجهها في حياته، قد تنتهي بوفاته، ولكن هيهات!! فإجراءات الدفن وفق الشريعة الإسلامية تلقى

(١) الأصل في هذه الفكرة رسم كاريكاتير هولندي.

اعتراضات هائلة، وتُقاوم بشدة!! فالمسلم يرغب في أن يدفن راقدًا على جنبه الأيمن، موليًا وجهه شطر مكة. ولكن هذا الشرط لا توفره إلا مقابر محدودة جداً. ويجب أن يدفن المسلم في ثلاثة أكفان بيضاء، ولا يتم وضعه في نعش. والمدافن الألمانية لا تجيز ذلك بطبيعة الحال. (وهم يطيلون بذلك في المدة الزمنية، وهذا يزيد من احتمال التعفن)(١).

ولا ينتهي الأمر عند حد الوفاة. بل يتعداه إلى مسألة الميراث. فالمسلمون يتمسكون بقوانين الميراث المنصوص عليها في القرآن، والتي تنظم وتحدد جميع الموضوعات المتعلقة بالإرث في أدق تفصيلاتها، مثلها مثل القوانين المدنية، إن لم تتفوق عليها في الدقة والعدل. ولذلك لا يجد المسلم في ألمانيا مخرجاً إلا توزيع ثروته في حياته على المستحقين من الورثة وفق النص القرآني. أما إذا اعترض أحد الورثة، ولم يقبل بهذا، فإن محاولة المسلم تطبيق شريعته تلقى الإخفاق.

ويعتقد بعضهم أن جانباً من المشكلات التي استعرضتها، قد تخفف وطأتها، وتجد لها طريقاً للحل، إذا ما توفر لمسلمي ألمانيا جهة واحدة تمثلهم، وتكون شريك حوار مع المسؤولين الألمان والبرلمان. وهذه القضية موضع نقاش منذ اللقاء الثاني للمسلمين الناطقين بالألمانية، والذي انعقد يومي ٨-٩ من أكتوبر عام ١٩٧٦ بميونيخ. وطرح السؤال التالي نفسه: هل تتم خدمة الإسلام والعمل على رفعة شأنه في هذا البلد عن طريق تشجيعه وتنميته، سالكين الطريق من «القمة هبوطاً» أو من «السفح صعوداً»؟

وتمثلت إجابتي دائماً في تصريح بأن الطريقتين لا تمثلان خيارين، بل هما

(١) تكفين المتوفى، ووضعه في نعش، ودفنه في تابوت، يطيل من عملية تحلل الجثة، وتصل بها إلى سبع لعشر سنوات. انظر أحمد الخليفة: «الدفن في الإسلام»، مجلة «الإسلام»، عدد ٣ ميونيخ (١٩٨٩).

عمليتان متزامنتان تكملان بعضهما. ونصل بذلك إلى نتيجة مفادها: لابد من المحاولة في الاتجاهين.

ويشير مفهوم من «القمة – هبوطاً»، في المقام الأول، إلى المجهودات التي تبذل حتى ينال الإسلام اعترافا حكومياً، حتى تتاح لممثليه إمكانات العمل على نشره في الحياة العامة في ألمانيا، وبشكل علني يتمتع بحماية الحكومة.. تلك الإمكانات التي تتمتع بها كل من الكنيسة الكاثوليكية، والكنيسة البروتستانتية، وكنيسة الإصلاح، وكذلك الجماعات اليهودية. ومن البديهي، أن تنعكس آثار مثل هذا الاعتراف على مجالات عدة، هي على سبيل المثال وليس الحصر: المدرسة، الدخل المالي، ضريبة الكنائس، تنظيم الأعياد، التعامل مع وسائل الإعلام، وغيرها من المجالات.

ولقد أدرت مؤتمراً حول شروط وفروض تحقيق هذا الاعتراف. وقد عقد هذا المؤتمر في «بيت الإسلام» بـ Lutzelbach في يومي ٧ – ٨ من مارس عام ١٩٨٧. وقد ارتكز هذا المؤتمر على مذكرة كنت قد نشرتها من قبل، موضوعها تأسيس «جماعة إسلامية». ولقد أوضحت للمشاركين أن المادة الرابعة من الدستور تشكل نقطة الانطلاق والبداية التي يستند إليها اعتراف قانوني وشامل بالإسلام في ألمانيا الاتحادية، وذلك لأنه بناءً على هذه المادة، فإن الدستور يكفل لكل جماعة دينية مبدأ «ممارسة الدين بدون إزعاج». أما تفسير هذا، فنجده في المادة الخاصة بالدين، الواردة في دستور فايمار، والذي انتقل عبر المادة ١٤٠ إلى الدستور الحالي.

ولقد نبهت إلى وجود نقطة أساسية في المادة ١٣٧، والتي تنص على أن

المسؤولين في كل مقاطعة لهم الحق في منح أي جماعة دينية مشكلة ومنظمة وفق قانون الاتحادات وضع الهيئة المتمتعة بالحق العلني .

ويتطلب هذا ، وفق المادة ١٣٧ ، ضرورة أن تثبت الجماعة الدينية « من خلال دستورها وعدد أعضائها إمكانية استمرارها» .

ولقد اتفقت الآراء على وجود عدد وفير من المسلمين في ألمانيا ، ولكنهم غير «دستوريين» ، بمعنى أنهم ليسوا أعضاء في منظمة إسلامية واسعة تضمهم جميعاً . ولذلك ، فإننا نرى أن نولي أهمية قصوى لتأسيس جماعة إسلامية في ألمانيا ، بل نجعل لهذا الهدف الأولوية المطلقة .

ولكننا نتوقع مع ذلك ، وحتى بعد تحقيق هذا الشرط ، أي بعد أن يتم تنظيم المسلمين في شكل «دستوري» ، أن تواجهنا عقبات وعراقيل أخرى ، لمنع قيام تنظيم إسلامي وسيكون شرط «ضمان الاستمرار» العقبة التي سيضعونها في طريقنا ، وستتمثل حجتهم في أن العمالة الأجنبية تشكل الغالبية العظمى من مسلمي ألمانيا ، وهؤلاء تمنح لهم تصاريح إقامة محدودة المدة . وهم يتبعون مبدأ يرفعونه : «ألمانيا ليست بلداً أو موطناً للمهاجرين» .

ولقد بدأ المسلمون ، بالرغم من ذلك ، في العمل على توفير الشروط اللازمة لاعتراف كامل بالإسلام ، وذلك من خلال تحقيق شكل تنظيمي أفضل للتجمعات المسلمة ، الموجودة حالياً في ألمانيا . ولقد أدرك المسلمون - في حرج بالغ - في السنوات الأخيرة عدم وجود منظمة تمثلهم[(١)] .

ولقد حاول ابني ألكسندر - وهو غير مسلم - أن يصوغ في عدة نقاط ما يمكن أن يحققه «اتحاد المسلمين» من إنجازات هائلة :

---

(١) فولفجانج جنتر لرش : FAZ تاريخ ١/ ١٢/ ١٩٩٤ .

١ - تمثيل المسلمين في المجالات الخارجية كافة .
٢- انتخاب الإمام الأكبر للمسلمين في ألمانيا .
٣- العمل على الاعتراف بالإسلام، هيئة ، أو جميعة دينية .
٤ - إدارة مكتبة مركزية ، وأرشيف للرجوع إليه لأغراض وثائقية .
٥ - إصدار مرجع للمسلمين في ألمانيا .
٦ - تنظيم لقاءات ، ومعارض ، ورحلات حج ، وغيرها من الرحلات الجماعية .
٧- إصدار نشرة تتضمن إعلانات ، بما فيها إعلانات زواج .
٨- تشجيع بناء المساجد .
٩ - توزيع منح دراسية لغير القادرين من الطلبة المسلمين .

ووضع مشروع مثالي كهذا ، ربما يتطلب فعلاً شاباً عمره ٢٣ عاماً ، كما كان ابني عندما صاغ هذه النقاط .

ولكن ، تكون اليوتوبيا ذات فائدة هائلة إذا ما استطاعت أن تمهد الطريق لرؤية ما . ولقد أدت محاولات وضع خطة عمل إلى تعاون بين المسلمين في ألمانيا . . تعاون يتخطى الحدود المحلية ، ويضم جميع مسلمي ألمانيا . ولقد تحقق ذلك عام ١٩٨٨ ، ونتج عنه تكوين «مجموعة عمل دائمة للجمعيات الإسلامية في ألمانيا» ، بتاريخ ٣/ ١٢/ ١٩٨٨م ، في مدينة كولونيا . وتمثل هذه المجموعة مظلة للجمعيات الإسلامية في ألمانيا ، وقد لجأت إلى استخدام العنوان البريدي لاتحاد المراكز الثقافية الإسلامية .

وانبثق عن مجموعة العمل هذه ، «المجلس المركزي لمسلمي ألمانيا»(ZMD) والذي يعود تاريخ تأسيسه إلى ٢٧/ ١١/ ١٩٩٤م في مدينة كولونيا . ويرأس هذا

المجلس الطبيب السعودي/ الألماني نديم إلياس [1]. ولقد رحبت جريدة فرانكفورتر ألجمانية Frankfurter Allgemeine ترحيباً حاراً بهذا المجلس.

ويعد المجلس نفسه بطبيعة الحال. قياساً على وضع وواجبات المجلس المركزي ليهود ألمانيا - شريك حوار، وجهة تخطاب مع الدولة الألمانية، والإدارات وجماعات المجتمع المختلفة.

وتستند هذه المطالب إلى أن هذا المجلس المركزي قد ضم عند تكوينه ١٥ منظمة مركزية، تشمل نحو ١٢٠٠ جمعية إسلامية.. أي إن المجلس يمثل منذ البداية نحو ٧٠٪ من مسلمي ألمانيا.

ولا يضم هذا المجلس المركزي مجموعات يديرها ألمان فقط، مثل جمعية مسلمي بون، أو «بيت الإسلام»، بل وأيضاً منظمات يرأسها أجانب، مثل: «اتحاد الطلبة المسلمين»، و «المجتمع الإسلامي» في ألمانيا، و« اتحاد المراكز الألبانية». ولا يثير عدم انضمام جمعية المشاركة التركية ومجلسها الإسلامي إلى هذا المجلس المركزي أي دهشة، ويعود ذلك إلى ارتباطهما الوثيق بوضع الإسلام وتطوره في دولة تركيا [2].

أما المنظمة المنافسة لهذا المجلس، وهي (DITIB)، فهي منظمة تابعة للحكومة التركية وهي تواجه - بصفتها غرس الحكومة التركية في الخارج - المشكلة التالية: لا يحق لها الانضمام لعضوية أي اتحاد مدني.

(١) المجلس المركزي لمسلمي ألمانيا. فوجلزانجر، رقم ٢٩٠. كولونيا ٥٠٨٢٥ت/ فاكس: ٩١٢٠١٩ (٠٦١٦٥).

(٢) طبقاً للبيانات الرسمية، يتم في تركيا بناء جامع جديد كل ٦ ساعات، وذلك بالجهود الأهلية. وكثير من هذا الأموال المستخدمة في بناء المساجد مصدره الأتراك الذين يعيشون في ألمانيا.

ولقد حقق هذا المجلس المركزي ما ينشده لنفسه من مكانة رفيعة، حينما عبر عن موقفه المبني على النهج الإسلامي أمام لجنة الصحة بالمجلس النيابي الألماني يوم ٢٨/ ٦/ ١٩٩٥م، وذلك في إطار مناقشة اللجنة لمسألة زرع الأعضاء، والموت بالسكتة الدماغية (موت المخ).

ولقد أعلن د. نديم إلياس أنه يعارض التباطؤ في إقرار الموت، عندما تتوقف الوظائف الحيوية، وينتهي نشاط المخ بشكل قاطع، لأن ذلك يتعارض مع كرامة الإنسان ورُقيِّه، سواء في الحياة أو الموت. وقد أيد عمليات زرع الأعضاء، إذا ما تمثلت هذه العملية للأطباء وسيلة العلاج الوحيدة المتاحة أمامهم، وأن يتوافر لها فرصة نجاح كبيرة. ويشترط موافقة المتطوع، والتأكد من عدم إلحاق أي ضرر به. وفي حالة استئصال أحد أعضاء متوفى، فيشترط موافقة ذويه.

ولذلك، فليس من المثير للدهشة أن يرى الرئيس الألماني في شخص رئيس المجلس شريك حوار رفيع المستوى. ولقد عبر الرئيس رومان هرتزوج عن هذا في ١١/ ١٢/ ١٩٩٥م، عندما استقبل ممثلي المسلمين في ألمانيا، في قصر Bel-levue. ومن الجدير بالذكر أنه أول رئيس يبادر بمثل هذا اللقاء.

وتظل مسألة انفراد المجلس بتمثيل الإسلام في ألمانيا، في السنوات القادمة، غير محسومة، لأنها ستعتمد أساساً على النجاح في تجاوز بعض الخلافات داخل الجماعة الإسلامية. وربما نستطيع التوصل إلى اتفاق، إذا ما أخذنا في الاعتبار شهادتي كل من الأشعري (توفي ٩٣٥) والغزالي (توفي ١١١١)[١].

ونحن بصدد تكوين إجماع ديني، لا بد لنا أن نتوقف عند عدة قضايا ملحة،

(١) انظر: أرنولد هوتنجر: الله اليوم. زيوريخ (١٩٨٠).

ونصوغ الموقف الإسلامي منها، مثل: سياسات السوق ذات الأبعاد الاجتماعية، وحقوق المرأة، ومفهوم الديمقراطية . . . ولابد أن يأتي موقفنا في شكل يخدم عملية الاعتراف بالإسلام.

ولكن الاعتراف قريباً بالإسلام أمر يحيط به الكثير من الشكوك، حيث يتطلب الأمر وقتاً طويلاً حتى تتعامل غالبية الألمان بروح يسودها الود مع الحقيقة البينة والمتمثلة في الإسلام . . هذا الإسلام الذي أصبح ظاهرة ألمانية حيوية ومتنوعة، ويمكن بالطبع التعايش معها في سلام، وخصوصاً أن تمني زوالها لن يفيد كثيراً. ولكن ما زال الدرب طويلاً وشاقاً، حتى نصل إلى تلك النقطة، أي حتى يلقى الإسلام استحسانا وقبولاً لدى الشعب الألماني.

ولقد تنبأ جوته بهذا، حين قال ما معناه: التسامح خلق يجب أن نتخطاه ونجتازه، فهو يصل بنا إلى الاعتراف. أما مجرد التقبل، فهو أمر مهين[1].

ولكننا لم نصل لشيء من هذا بعد. ولذلك، فإنني أؤيد أحمد فون دنفر، حين قال قبل عدة سنوات: «نحن لا نؤخذ على محمل الجد، ونحن نستمتع في ثقافتنا الفرعية بحرية المجنون»[2] هذا هو وضعنا، هذا فقط، وليس أفضل منه.

وإنني لأخشى أن يكون هذا التسامح المحدود قد تضاءل، خاصة بعد مسألة سلمان رشدي، وحرب الخليج الثانية، التي أدت إلى شكوك حول مدى تمسك المسلمين بالدستور، واحترام حقوق الإنسان، وقدرتهم على ممارسة الديمقراطية. وبهذا، توضع عراقيل جديدة في سبيل الاعتراف بالإسلام. ويأتي الفصل الأخير ليتعرض لهذا الأمر.

---

(١) جوته: مبادئ وتأملات. رقم ١٢١.

(٢) أحمد فون دنفر – انظر ٧٦ ص ٦٩.

الفصل الثاني عشر

العدو: الإسلام

لقد بينت الصفحات السابقة بما لا يدع مجالاً للشك، أن المرء حديث الإسلام تطرأ عليه تغيرات عديدة لا تشمل داخله فحسب، بل أيضاً تنعكس هذه التغيرات على علاقته بمجتمعه وموقفه منه. ويشير هذا إلى عملية جدلية تؤدي أحياناً في حالات فردية إلى الهجرة.

ويعتمد رد فعل الأسرة والأصدقاء والجيران وزملاء العمل تجاه مقولة «الحمد لله، إني مسلم»، على مستواهم الثقافي، وطبيعتهم ودرجة تدينهم. (ويأتي إصدار بعض الكنائس الإنجيلية في منطقة الرورر لأجندة توضيح أعياد اليهود والنصارى والمسلمين لعام ١٩٩٦ دليلاً على تأثير درجة تمسك الفرد بدينه، سلباً أو إيجابياً، في تقبله للآخرين).

ولم يمثل - لي شخصياً - اعتناقي الإسلام مشكلات بين أسرتي وأصدقائي أو زملائي. فلم أتعرض للمعاملة على أنني مخرف يمر بأزمة منتصف العمر، بل على النقيض. فبعد اطلاعهم على أول كتاباتي الإسلامية، التي نشرت، مثل: «الطريق الفلسفي إلى الإسلام» و «دور الفلسفة الإسلامية»،[1] انفتح مجال حوار ومناقشة واسع النطاق حول موضوعات، مثل: الله في الإسلام ومقارنته بمفهوم الثالوث في المسيحية. ولكن قليلاً منهم من يتذكر أن يهنئني بحلول شهر رمضان الكريم، أو عيد الأضحى، بدلاً من التهنئة بأعياد الميلاد.

ولقد كان تقبل أمر إسلامي شاقاً وعسيراً على أمي، هذه المرأة شديدة التمسك

(١) دار نشر المكتبة الإسلامية. كولونيا (١٩٨٤).

بالمبادئ الكاثوليكية، لأنها شعرت بمسؤولية أمام الله من جراء اعتناقي الإسلام، تلك «الزلة». ولقد حاولت، في رسالة أرسلتها لها، أن أوضح الأمر قائلاً: يرى المسلم أن المسيح أحد الرسل اليهود، وهو أعظمهم، المعجزة التي ولدتها العذراء، ولذلك فالفارق بين الديانتين المسيحية والإسلام - كيفما يختار المرء - ضئيل جداً أو عظيم جداً. ولقد اختارت أمي أن تراه عظيماً جداً[1].

لم أتعرض كذلك في عملي لأي مضايقات، ولم يلحق بي أذى، بسبب اعتناقي الإسلام. لقد قلدني رئيس ألمانيا، د. كارل كارستن، في فبراير عام ١٩٨٤م - أي بعد ٣ سنوات ونصف سنة من اعتناقي الإسلام - وسام الاستحقاق. كما قامت وزارة الخارجية بتوزيع كتابي «يوميات ألماني مسلم»[2] على سفاراتها في البلدان الإسلامية، ليكون بمنزلة الدليل والمرشد لأعضائها. كما تناول Wolfgang Günther Lerch الكتاب بالمناقشة في جريدة فرانكفورتر ألجمانيه، في العدد الصادر بتاريخ ١٣ من فبراير عام ١٩٨٦م، في مقال يحمل عنوان: «ألماني مسلم - مذكرات دبلوماسي حول تحوله من ديانة إلى أخرى».

ولم يثر ذلك أي زوابع، مثله مثل تحقيق مصور من عدة صفحات تناول شخصي وزوجتي، ونشر بتاريخ ١٧ من فبراير عام ١٩٩١م في مجلة بيلد. ولم يجادل أحد حتى تلك اللحظة في الفائدة التي تعود على ألمانيا إذ يمثلها مسلم في بلد إسلامي. كما كانت علاقتي بممثلي الكنائس مرضية جداً، بل تشكل لي مصدراً للسعادة، فكثير منهم يدرك أن المسيحيين والمسلمين على حد سواء

(١) عن مشكلات المسلمين الجدد مع عائلاتهم، انظر مراد هوفمان: «كيف أخبر أمي» في مجلة «الإسلام» ميونخ (١٩٨٥) العدد ٥.

(٢) دار نشر المكتبة الإسلامية، كولونيا (١٩٨٥) الطبعة الثانية (١٩٩١).

يستقلون الزورق ذاته في عالم يجنح أكثر فأكثر إلى المادية والجهالة . ولقد وجدت من بعض أعضاء الكنيسة إعجاباً يشوبه بعض الحقد، بدلاً من الإعراض عني الذي توقعه الكثيرون . ولقد أعلن ممثل على مستوى رفيع للكنيسة الإنجيلية في ألمانيا، في أثناء الاحتفال الذي أقيم بمناسبة اليوبيل العشرين لإنشاء جامع ميونيخ أنه يشعر بسعادة بالغة وراحة بين المسلمين، لأنهم يتحدثون عن الله بشكل طبيعي غير قابل للشك، هذا ما لا يجده للأسف الشديد في بعض الدوائر الإنجيلية .

وهذا هو الجو الذي ساد ملتقى الحوار المسيحي - الإسلامي، الذي انعقد في هانوفر في المدة بين ١٣ - ١٥ من نوفمبر عام ١٩٩٥م . ولقد شاركت الكنيسة الإنجيلية، والأكاديمية الملكية الأردنية لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة أهل البيت)، في ذلك الحوار . ولقد شاركتُ في هذا الحوار البناء، عضواً ضمن الوفد الأردني .

ولقد أثمرت هذه الحوارات حتى الآن نجاحاً ملحوظاً في مجال العلاقات الإنسانية، وليس على مستوى المناقشات الدينية[1] .

وإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية قد أعلنت في ختام المجلس الملي الثاني بالفاتيكان عام ١٩٦٥م، أنها تتخلى عن تفردها وحدها «بخلاص الأرواح من الذنوب»، وأنها تعترف بالإسلام طريقاً للخلاص، إلا أنها، أي روما ، لم تتقدم إلى الخطوة المنطقية التي تتبع هذا الاعتراف، وهي الاعتراف بمحمد قائداً لهذا

---

(١) يمكن للمهتم بإشكالية هذا الحوار ومداه، أن يرجع إلى : موريس بورمانس، وكتابه : «دروب وسبل للحوار المسيحي - المسلم» . وإسماعيل راجي الفاروقي: «ثلاثية الإيمان الإبراهيمي» هرندون الولايات المتحدة، الطبعة الثالثة (١٩٩١) . وميشيل ليلونج : «إذا ما كان الرب أراد . .»، باريس (١٩٨٦)، ومراد هوفمان : «عن الحوار المسيحي المسلم»، في «الإسلام»، ميونخ (١٩٨٦)، العدد ٦ . وباول شفارتسناو : «علم القرآن للمسيحيين»، شتوتجارت (١٩٨٢) .

الطريق ومرشداً له، وبالقرآن وحياً إلهياً. وجاء عدم اعترافها ذلك، بالرغم من المجهودات العظيمة التي يبذلها عالم الدين هانز نكونج بمدينة Tübingen، لتحقيق تقدم بهذا الصدد.

وعلى الجانب الآخر، تبين لي أن مثل هذه الحوارات المسيحية - الإسلامية يمكن أن تكون في بعض الأحيان غير مثمرة أو مجدية، بل قد تكون بالأحرى محبطة، ويمكنها أن تأتي بنتائج عكسية. ولقد كنت شاهداً على شيء من هذا القبيل يوم ١٩ من نوفمبر عام ١٩٨٨م بالجزائر، وذلك من خلال محاضرة ألقاها العالم كونج. فبعد أن استعرض بحرص ودقة رؤيته للمسيحية وللإسلام، جاء السؤال الأول سريعاً جداً: «إذا كنت تؤمن بما سمعناه الآن، فلماذا تظل حتى هذه اللحظة مسيحياً؟!». وجاءت إجابة كونج في صورة كتيب كان قد أعده، ويحمل عنوان: (لماذا أظل مسيحياً؟)[1].

واتخذت الندوة فيما بعد مساراً خاطئاً، فلا شيء يجهض الحوار بين الأديان أكثر من محاولة استحواذ طرف على الطرف الآخر.

وتلوح في الأفق إمكانات تقارب، حتى على المستوى الفقهي. ويعود ذلك إلى أن علماء الدين المسيحيين في الكنيستين يعيدون النظر والتفكير في مفهوم طبيعة وماهية المسيح كما رآها المسيحيون الأوائل، أي اليهود المسيحيون، وبعدهم المسيحيون الأريسيون، وكان Adolf Von Harnack (المتوفى عام ١٩٣٠) قد لفت الأنظار إلى أن حواريي المسيح لم يؤلهوه، أي إن شهادة الإيمان بالمسيح إلهاً،

(١) باريس (١٩٨٨). وكانت النسخة الألمانية قد نشرت قبل ذلك عام ١٩٨٥، في زيورخ، تحت عنوان: «ما الذي تتمسك به؟».

والمنسوبة إلى الحواريين، لم تصدر عنهم، ولاتعكس حقيقة إيمانهم وجوهر عقيدتهم.

ولقد استمر هذا الاتجاه الناقد والفاحص للمصادر، والذي يتخذ من نصوص العهد الجديد موضوع بحث ودراسة، منذ القرن التاسع. بل إن هذا الاتجاه زعزع اليقين في أكثر معتقدات المسيحيين رسوخاً، حيث أثبت أن الموضع الوحيد، الذي يشير إلى فكرة الثالوث الواردة في خطاب يوحنا الأول - الإصحاح الخامس الآية السابعة - تزوير يعود تاريخه إلى عام ٣٨٠ تقريباً بعد المسيح!!

أما الأمر الأكثر إزعاجاً في الأوساط المسيحية فهو متابعة سياق ومجريات المجلس الملي الموحد الأول، والمنعقد في نيقية عام ٣٢٥ ميلادياً، حيث تمكنت أقلية من المسيحيين في هذا المجمع من القطع بأن المسيح لم يخلق بل وُلد، وأنه يتساوى في ماهيته مع الرب، وهذه القلة قد فرضت رأيها على الحاضرين[١]. أما الأمر المثير للإزعاج حقاً، فهو أن الداعي لعقد هذا المجمع ورئيسه، كان الإمبراطور الوثني قسطنطين. ولقد اقترح الإمبراطور هذه الصيغة الدينية الحاسمة. وفرضها لأغراض سياسية، ألا وهي حفظ السلام الداخلي بالبلاد.

ويمكننا في مجال القول أن نقر بوجود مجهودات عظيمة، ويبذلها علماء الدين بالكنيستين المسيحيتين للوصول إلى ما قبل مجمع نيقية، والوقوف على حقيقة الأمر خصوصاً ماهية المسيح الذي يرون فيه إنساناً اختاره الله فقط لا غير، كما ينادي بذلك كل من Paul Schwarzenau , Hans Kung, Karl Rahmer, Rudolf Bultmann John Hick . وهذا الرأي، يتوافق تماماً مع ما جاء في القرآن بشأن المسيح: ﴿مَا الْمَسِيحُ

---

(١) لم يتمكن سوى خمسة أحبار من أتباع المسيحية الغربية الأريسية من الحضور.

ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ . (سورة المائدة : آية ٧٥) .

وهناك Matthew Fox ، الذي يرى المسيح« رؤية روحانية عالمية» . ويتحدث عالم الدين الإنجيلي Schwarzenau عن دخولنا فجأة «عصر ما بعد المسيحية» ، المصاحب «لعناصر دين عالمي» .

وإذا تمكن هذا الاتجاه من فرض نفسه ، فلن تقف أي عوائق فقهية في طريق التعاون المسيحي – الإسلامي .

أما بالنسبة للادينيين ، فلم تواجهني أي مشكلات معهم ، بعد اعتناقي الإسلام . فلقد اقتنع هؤلاء الناس في أعماقهم بأن الدين مسألة شخصية ، ومن أدق خصوصيات المرء ، وأعتقد أن موقف التسامح هذا على قدر هائل من اللامبالاة . ولقد واجهت موقفاً شبيهاً – بشكل مثير للضحك – يوم الرابع من يونيو عام ١٩٦٠ . توجهت في هذا اليوم إلى كنيسة إنجليلية صغيرة (تدعو إلى رفض فكرة الثالوث) بجامعة هارفارد ، لإتمام مراسم زواجي الأول .

لم يوجه لنا رجل الدين أي أسئلة عن ديانتنا ، بل أراد فقط أن يعلم أننا لسنا شواذ جنسياً .

ولكن هناك ظاهرة أخرى تلحظها بسهولة . فالعالم الغربي لا يقدم المسلمين مشيراً إلى ديانتهم ، حتى لا يثار شك حول ذكائهم ! ! ولقد صادفت تلك المواقف كثيراً ، في أثناء رحلاتي لإلقاء محاضرات بصفتي مدير قسم المعلومات بحلف شمالي الأطلنطي ، سواء كانت هذه الرحلات داخل الولايات المتحدة أو أوربا . ودائماً ما يتم إغفال ذكر إسلامي عند استعراض سيرة حياتي .

وتلحظ، بالإضافة إلى ذلك، عدم ذكر أو حتى التعرض لتأثيرات الإسلام وإسهاماته في التطور الثقافي للحضارة الغربية. ويسود هذا الاتجاه معظم كتب تاريخ الفلسفة. ولا يمثل الجهل بالإسلام حتى الآن ثغرة في ثقافة الفرد ومعلوماته!

ولكن للأسف، لم تكن جميع ردود الفعل إزاء اعتناقي الإسلام بريشة ومسالمة، كالتي وردت في السطور السابقة. ويعود ذلك إلى فزع يسكن قلوب الألمان، ورعب متمكن من أعماق الشعب الألماني من كل ما هو إسلامي. هذا الفزع التاريخي، يصل إلى درجة غير المعقول، وسرعان ما يتحول وبسهولة شديدة إلى عداء سافر.

ويتغذى هذا الفزع على ذكريات جماعية مشتركة، يتقاسمها الألمان، بل تتوارثها الأجيال عن المنازعات الحربية المريرة بين العالمين المسيحي والإسلامي في العصور الوسطى. لم تغب أبداً عن ذاكرة الألمان - حتى بشكل غير واع - حقيقة وجود المسلمين عدة قرون في إسبانيا وصقلية والمجر.

ولعبت الحروب الصليبية، بطبيعة الحال، دوراً أساسياً في إذكاء هذا الفزع وروح العداء تجاه الإسلام والمسلمين. فلقد أصابت هذه الحروب - برغم نجاحها العسكري - الأوربيين بصدمة ثقافية هائلة ومروعة، لأنهم تيقنوا أن هؤلاء «الكفرة» الحقراء، الذين يقطنون بلاد الشام، أصحاب حضارة كبرى مزدهرة، بل إنها تتفوق على الحضارة المسيحية - الأوربية في مختلف الأوجه والمجالات.

ولقد أدرك بعض الأوربيين، في ذلك الوقت، حقيقة أثارت حرجهم، بل أزعجتهم، حقيقة مفادها أن الغرب هو غروب صباح أشرق في بلاد الشرق.

وتأتي صحوة الإسلام، وعودة الحياة والروح إليه التي شهدها في العقود

القليلة الماضية، لتضيف أسباباً جديدة لفزع الغرب من الإسلام، وخصوصاً أن هذه الصحوة تتعارض تماماً مع تكهنات المحللين المتخصصين في دراسة الشرق.

عندما نشرت في عام ١٩٠١ للمرة الأولى ترجمة القرآن بقلم Max Henning[1] (ظهرت منها عشرات الطبعات الجديدة)، كتب المترجم في مقدمتها «إن الإسلام على ما يبدو قد استنفد دوره السياسي». وكانت هذه العبارة في ذلك الوقت تحمل الكثير من الصحة، نظراً لوقوع العالم الإسلامي بنسبة تصل إلى ١٠٠٪ تحت وطأة الاستعمار الأوربي.

وكان دارسو الإسلام، إبان مدة الاستعمار وحتى خمسينيات هذا القرن، على يقين تام من موت وفناء موضوع بحثهم، حتى إنهم انطلقوا يبحثون عن الإسلام قبل زواله وأفول نجمه، ليتمكنوا من وصفه وتصويره، مثلهم كمثل علماء الأنثروبولوجيا، وعلماء النبات. فلقد كان واضحاً بما لا يدع مجالاً للشك، أن ديانة السكان الأصليين البدائية ستذوب أمام شمس الحداثة الغربية.

أما الصدمة الكبرى، والأمر المثير لاستفزاز دولة الغرب وحكوماته، فهو ذلك التطور في مسيرة الإسلام وصحوته، والذي بلغ قمته عندما ألحقت دولة شيعية، هي إيران، إهانات بالغة ومتتالية لأميركا، بدأت منذ عام ١٩٧٩. وأن هذه الدولة تصمد لكل ردود فعل الولايات المتحدة وعقوباتها. وعلى الجانب الآخر، أجبر المجاهدون الأفغان الجيش السوفيتي، وهو جيش قوة عظمى، على الانسحاب من أراضيه.

ويعد الكثير من الغربيين صمود الإسلام، ورفضه الانسحاب من مسرح

(١) قد يكون هذا اسماً مستعاراً لأوجوست مللر (أستاذ الاستشراق).

الأحداث خروجاً عن سياق الزمن والتاريخ، بل إنه يمثل إهانة بالغة للغرب، خاصة بعد انتصار النظام «الرأسمالي» على غريمه الشيوعي. ومنذ ذلك الوقت يلحظ الكثيرون انتشار ظاهرة محددة يشخصونها، تحت مسمى أعراض مرض زهو انتصار ثقافي إمبريالي غربي.

وأبلغ بيان لهذا الوضع، هو كتاب (ظهر أول الأمر في شكل مقال) «نهاية التاريخ» لكاتبه فرانسيس فوكوياما[1]. وقد كان فوكوياما يشغل في ذلك الوقت منصب رئيس قسم التخطيط بوزارة الخارجية الأمريكية. ونلحظ هذا التوجه في نظريات برنارد لويس، صمويل هانتبختون Samuel P.Huntington, Bernard Lewis حول «صدام الحضارات»[2]. ويرى هذا الإرث الفكري الأصولي للحداثة والمنتشر كذلك فيما بعد الحداثة، أن الحضارة الغربية (أو على وجه الدقة أسلوب الحياة الأمريكية) أفضل النماذج التي يمكن أن تصل إليها الإنسانية. وتعمل الحضارة الغربية على تشكيل منظومة القيم المسيطرة على مجريات الأمور، بل مستقبل الإنسانية كله.

فالغرب بفلسفته الحياتية، ونظامه الاقتصادي والسياسي، وفرضياته العلمية، وتكنولوجياته، ومفهومه عن حق الشعوب، وغيرها من معطيات الفكر والحياة، يمثل نموذجاً إلزامياً لما يسمى بالعالم الثالث وشعوبه. وتجد الأخيرة هذه نفسها أمام خيارين إما أن تتغرب بلا أدنى قيود (يطلق المسلمون على هذه العملية مصطلح كوكلة، وهو مشتق من كوكاكولا). وإما أن تتهمش إلى فقدانها لأي قيمة، وأن تنسحب في آخر الأمر من التاريخ.

---

(١) فرانسيس فوكوياما «نهاية التاريخ والرجل الأخير». نيويورك (١٩٩٣). ولقد نشرت المقالة عام ١٩٩١.

(٢) س. م هانتبختون «صدام الحضارات»، في «شؤون خارجية»، المجلد ٧٢، العدد ٣، صيف ١٩٩٣، نشر قبلها مقال «جذور الغضب الإسلامي» لكاتبه برنارد لويس («الأطلنطي» ٢٦٦، العدد ٣، سبتمبر عام ١٩٩٠)، والذي تناول فيه الصراع بين الحضارتين (الغربية والإسلامية (مترجم)).

ويتفق المحللون السابق ذكرهم على وجود حضارة واحدة فقط - بالإضافة إلى الحضارة الكنفوشيوسية - ترغب، بل وتعمل على التنصل والانسلاخ عن هيمنة الثقافية الغربية على العالم، بل وتتصدى لمحاولتها القضاء على خصوصية الأقاليم المختلفة. . تلك الحضارة هي الحضارة الإسلامية. فمن الواضح أن الإسلام يجرؤ على طرح نفسه بديلاً للحضارة الغربية(١). ولذلك يتنبأ كل من Huntigton, Lewis بوقوع صدام بين الحضارتين الغربية والإسلامية. وقد دفع هذا السبب ذاته السكرتير العام لحلف شمالي الأطلنطي في ذلك الوقت، كلايس، إلى مطالبة المخططين العسكريين للحلف بالتأهب لصراع محتمل ومتوقع وقوعه بين الشمال والجنوب.



وتنطلق مجدداً صيحة «الأتراك قادمون»، لتعيد إلى الذاكرة الأوربية الصدمة التي حلت بفيينا بل أوربا كلها عندما طرق الأتراك أبواب العاصمة النمساوية. ويظهر العدو الجديد متمثلاً في الإسلام والمسلمين.

كما تتأثر العقلية الغربية من ناحية أخرى حتى يومنا هذا، بما لحق بشخص محمد في العصور الوسطى من تصويره بصورة سيئة. ولقد تعرض محمد لقذف وسب مريرين في ذلك الوقت، في أوربا حيث نُعتَ بالدجال، والمخادع، والمحتال، والشهواني. ويبلغ هذا السب ذروته بنعته بكلب الجحيم. ويسميه رشدي في روايته ماهوند (المقطع الثاني هوند يعني بالألمانية كلباً). وتقول أنا

(١) جاء كتابي «الإسلام كبديل» ديدريشسي ميونخ (١٩٩٢) (رداً غير مباشر على كتاب فوكوياما المذكور في ٩٧، وقد ظهرت منه عدة ترجمات. طبعته الإنجليزية: «الإسلام: البديل» ريدنج، المملكة المتحدة (١٩٩٣). وطبعته العربية: «الإسلام كبديل» ميونخ/ الكويت (١٩٩٣).

ماري شيميل بهذا الصدد: «أثارت شخصية محمد أكثر من أي شخصية تاريخية أخرى مشاعر الخوف والكراهية والاحتقار في العالم المسيحي. وحين يلعنه دانتي في عمله «الكوميديا الإلهية»، ويضعه في أعمق بؤرة في الجحيم، فإنه بذلك إنما يعبر عن مشاعر عدد لا يحصى من مسيحيي العصور الوسطى[1].

وفي واقع الأمر، فإن رسول الإسلام، الذي يحظى باحترام مليار إنسان، لا يتمتع حتى الآن في الغرب بأي حماية قانونية. فالإساءة إليه وتشويه صورته لا يقعان تحت طائلة القانون، بل إنهما من الأمور المقبولة سياسياً.

ويشعر المسلم بآثار النظرة السلبية المتعمقة في نفوس الغربيين، بل يتأكد منها يومياً، عندما يرى «الكيل بمكيالين» في أي مشكلة يكون المسلمون طرفاً فيها.

وإنه لمن أشد الأمور عجباً تسامح الغرب تجاه «السوبر ماركت الديني»، والذي يباع فيه كل شيء لكل من شاء:

أتباع مذهب الأنثروبوسفيا لمؤسسه: Rudolf Steiner. بوذيون من أمثال: - Hare Krishaa - Jünger. وأتباع مذهب التكهنية الهندي، مثل Carlos Cas-teneda. وعابدو آلهة أنثوية، مثل Christa Mulack[2]. وعابدو الشيطان Ri-chardgere، وهم أتباع بعض العبادات والطقوس التي تؤله الشيطان.

عندما أعلن النجم السينمائي ريتشارد جير اعتناقه للبوذية، لم تثر أي تعليقات سلبية، ولم يتعرض لأي قذف أو مضايقات. فكل شيء مسموح به، إلا أن تكون مسلماً. هذا إذا أردت أن تنأى بنفسك عن المضايقات والمشكلات.

---

(١) أنا ماري شيميل «ومحمد رسوله» الطبعة الثالثة. ميونخ (١٩٩٥)، ص٧.

(٢) - «على درب الآلهة» مارل (١٩٩٢).

تتحدث وسائل الإعلام، من وقت إلى آخر، بشكل لائق وفي احترام بالغ عن طقوس اليهودية المتشددة، خصوصاً طائفة Lubewitscher، ويتابعون بحرص طقوس الفصل بين الجنسين، تدابير الزيجات، وتصفيفات شعرهم ذات المغزى الديني، وملابسهم، وغطاء الرأس، وآداب الطعام، والنحر ورفض تناول لحم الخنزير. ولكن لا يتهمهم أحد بانتهاك حقوق المرأة، أو أن هذه الطقوس رجعية أو متعصبة. ولكن هذه هي الصفات التي تلصق بالمسلمين، إذا ما سلكوا هذا المسلك نفسه.

ويظهر أكثر ما يظهر بوضوح نهج «الكيل بمكيالين» في التقارير الإخبارية التي تبثها وسائل الإعلام، والتي تتناول الإرهاب. فلم يتحدث أحد أبداً عن هتلر الكاثوليكي، أو ستالين المسيحي الأرثوذكسي. كما تتجنب وسائل الإعلام وصف زعيم الصرب كارادتش بالمسيحي. ولكن في اللحظة التي يمسك فيها عربي بسلاح في يده، يشار إليه بصفته الإرهابي المسلم، حتى وإن كان هذا العربي مسيحياً فلسطينياً، أو بعثياً لا يؤمن بالله.

لم يخطر ببال أحد أن يصف الأسلحة الذرية التي أسقطت على نجازاكي وهيروشيما بـ«القنبلة المسيحية». ولكن إذا ما تناثرت شائعات أو حامت شكوك حول قيام دولة إسلامية بصنع أسلحة ذرية، يكثر الحديث فوراً عن «القنبلة الإسلامية». كما أنني ألحظ أن صفة «متعصب» حجزت سابقاً للمسلمين. فالقذافي، وخوميني، وصدام حسين متعصبون، أما ميلوشفيتش فلا. الهجمات المسلحة في كتالونيا وإقليم الباسك وأيرلندا الشمالية، لا يقوم بها «باسكيون متعصبون»، أو «كاثوليك متعصبون»، بل أعضاء جماعة ETA وجماعة RAI..

ولقد تطور هذا السلوك، حتى إنه اتخذ شكلاً عبثياً. فالمسلم يصنف متعصباً إذا لم يصدر منه أي سلوك يؤخذ عليه سوى الصلاة والصيام. أما إذا كان ملتحيًا، فتلصق به فوراً صفة متهم، ويلقى صعوبات هائلة من موظفي الجوازات. (هذه اللحية ذاتها كانت تعد تقدمية، نسبة إلى شي جيفارا).

أما أكثر الأمور خطورة، فهو التصوير الخاطئ والتشويه الذي تعرض له الإسلام في بعض وسائل الإعلام خلال الخمسة عشر عاماً الماضية، وإضرام نار الخوف من هذا الدين وأتباعه. ولقد استهدف المسلمون من كتابات بأقلام: Gerhard Peter Scholl - Latour و Gerhard Konzelmann (التحدي الإسلامي عام ١٩٨١)، Rolf Stolz, Bassam Tibi : (الملا على ضفاف الراين. الزحف الإسلامي نحو أوربا. ميونخ عام ١٩٩٤). وبالإضافة إلى ذلك مجموعة من المقالات في المجلات وفي برامج تليفزيونية.

فالناس تعلق بأذهانهم برامج حديثة مثل: «إرهاب باسم الله» (١٨/ ٩/ ١٩٩٤ على قناة RTL)، و «حرب مقدمة باسم الله» (١٥/ ٩/ ١٩٩٤ على قناة ARD بافاريا ٣) [١].

ولقد مكنت هذه الكتابات مجلة Bunte من التساؤل في العدد الصادر بتاريخ ١٩/ ١/ ١٩٩٥ عما «إذا ما كان مركز التهديد قد انتقل من موسكو إلى مكة». ولقد كانت المجلة على ثقة تامة من عدم جرأة أحد من القراء على نفي ذلك أو معارضته.

(١) قام محمد أمان هربرت هوبوم بتحليل تحيز وسائل الإعلام الألمانية بشكل رائع في: الإسلام والمسلمون في وسائل الإعلام والدوائر الحكومية في ألمانيا. إسهامات قدمت في المؤتمر السنوي للأكاديمية الملكية الأردنية بعمان (١٩٩٤).

أما أكثر أنواع الهجوم خطورة على السلام الديني والتعايش السلمي بين الأديان في ألمانيا، فيقوده بسام طيبي - الدمشقي الأصل - أستاذ العلوم السياسية (في مدينة Gottingen) . ولقد كان بسام يوماً ما يعتنق الفكر الماركسي، أما اليوم، فهو ما يمكن أن نطلق عليه : «إسلامي الثقافة» . وبسام طيبي شديد الانبهار «بمشروع الحداثة الأوربي»، الذي أخذ يشكك في نفسه منذ مدة ليست بقصيرة . وهو يضع - إذا كانت قراءتي له صحيحة - الإسلام نقيضاً تاماً لهذا المشروع الأوربي، ويصفه باللامعقولية، وأنه دين شمولي غير قادر على التعايش السلمي[١] .

وجاءت مقالته بمجلة شبيجل عام ١٩٩٤، شاهدة تماماً على أسلوبه . وقد حملت المقالة عنواناً جارفاً، مثيراً : «كالنار والماء»، وتضمنت آيات من القرآن الكريم مضلَّلاً بها . وقد ادعى مجدداً في مقالته أنه يستحيل التوفيق بين الإسلام وحقوق الإنسان الفردية»، وأن «الشرع الإسلامي يفصل المسلمين عن الحضارة التي تعترف بحقوق الإنسان»[٢] . ويوحي طيبي المسلم المقيم في أوربا بضرورة التوصل لـ «إسلام أوربي»، يتماشى من الحداثة، به الكثير من أوربا والقليل من الإسلام .

ولقد شعر المسلمون في أوربا بامتنان شديد، لأن غير المسلمين استاؤوا من

---

(١) تعد أكثر أعماله انتشاراً : «أزمة الإسلام الحديث»، فرانكفورت (١٩٩١) . «التآمر : كابوس السياسة العربية» هامبورج (١٩٩٣) . «الأصولية الإسلامية، العلم الحديث، التكنولوجيا» فرانكفورت (١٩٩٢) . «الإسلام ومشكلات التغلب الحضاري على التغير الاجتماعي» فرانكفورت (١٩٨٥) . «في ظلال الله - الإسلام وحقوق الإنسان» فرانكفورت (١٩٩٤) .

ويدعي المؤلف في كتاباته «أن الشرق كان سيبقى متخلفًا حتى وإن لم يقع تحت طائلة الاستعمار» وهذه المقولة أبلغ وصف للمؤلف، وليس للشرق .

(٢) بسام طيبي : «كالنار والماء» في مجلة «دير شبيجل» العدد ٣٧ لعام (١٩٩٤) ص ١٧٠ ص ١٧٢ .

التشويه الذي لحق بالإسلام. ولقد عبر هؤلاء عن استيائهم هذا، فقام Gernot Rotter بكشف القناع عن Konzelmann، وكشفه وأصابه بصورة لم يتعرض لها كاتب من قبل[١]. وتعرض Scholl - latour في عام (١٩٩٣) للشيء نفسه، وبوساطة، Verona Klemm Karin Horner[٢]. وفي العام ذاته، كشفت Dorothea Bolke حقيقة كل من سبق ذكرهم معاً Konzelmann, Scholl Latour وبسام طيبي[٣].

وقامت الناقدتان Marfa Heimbach, Goltscheher Jung في عام ١٩٩٤، من خلال معالجة تهدم فكر طيبي، بتوجيه الأنظار إلى تحذيره المستمر من تهديد يصيب أوربا من جراء تحد إسلامي أصولي. ولكنه يعني بالأصوليين كل من يستخدم كلمتي «قرآن» و «إسلامي» فقط. ولقد توصلت الناقدتان إلى نتيجة، مفادها: أن تصوير الأمر من جانب واحد سينشأ عنه في نهاية الأمر جوٌ عامٌ مشبع بالعداء والكراهية «قدرة هائلة على العداء والكراهية، أدت قبل خمسين عاماً إلى حرب إبادة لليهود، كما يتعرض مسلمو يوغوسلافيا السابقة اليوم لمثلها»[٤].

ويعبر Mark Heller – مع آخرين – عن نظرية مفادها: أن العالم الإسلامي يمثل

(١) جرنوت روتر: «أدعياء الله»، و«الغزوات الإعلامية لخبير الشرق الأدنى جرهارد كونتسلمان»، هايدلبرج (١٩٩٢).

(٢) فيروناكليم وكارين هُرنر: «سيف الخبير». صورة العرب والإسلام المشوهة عند بيتر شول لاتور. هايدلبرج (١٩٩٣).

(٣) دورثي بُلكه: «ثلاثة رجال في قارب واحد. الأصولية الإسلامية عند بيتر شول لاتور، جرهارد كونتسلمان وبسام طيبي»، في «سيف الخبير» – أنظر ١٠٦.

(٤) ج. يوخ وم. هايمباخ: «بسام طيبي» – آراء حول الحداثة الأوربية والأصولية الإسلامية» في «حوار الأديان حوار حول التراث والمعاصرة». العدد ٣، بالف (١٩٩٤).

استثناء سلبياً في إطار التطور العالمي نحو الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان[١]. وكأن المسلمين بطبيعتهم غير قادرين على ممارسة الديمقراطية. ويعد بعضهم هذه النظرية شكلاً من أشكال العنصرية الثقافية، في إطار ما بعد الحداثة. ولقد تم دحض هذه النظرية في مجموعة مقالات بعنوان ديمقراطية بلا ديمقراطيين»؟ ولقد شاركت عالمة الإسلام الألمانية Gudrun Kramer (Bonn) بمجهودات عظيمة في هذا العمل[٢].

ولقد توصلت هذه الدراسات بشكل واضح إلى نتيجة نهائية تشير إلى عدم وجود ارتباط بين الدين والاستبداد في العالم الإسلامي، وكذلك عدم وجود علاقة تناقض بين أن تكون مسلمًا وأن تكون ديمقراطيًا. بل على النقيض، فنظم الحكم غير الديمقراطية في العالم الإسلامي لا تعاني ضغطاً للتوجه نحو الديمقراطية إلا ما تمارسه عليها الحركات الإسلامية، حتى إنهم لا يتعرضون لضغوط مماثلة من الغرب.

في كلمات أخرى يشكل الإسلام الخطر الأوحد على المستبدين من حكام العالم الإسلامي، وليس على أوربا. هؤلاء الذين ينظرون إلى المسلمين على أنهم أعداء للدستور وللقوانين، إنما ينكرون على الإسلام نظامه الشامل الخاص بحقوق الإنسان[٣]. هذا النظام الذي لا يخضع لأي أوامر أو تدابير إنسانية، بل

(١) مارك هللر: «الشرق الأوسط: خطوة خارج التاريخ» (باللغة الإنجليزية)، في «شؤون خارجية»، المجلد ٥٩، العدد ١ ص ١٥٢ و ١٨٨ - ١٩٩.

(٢) غسان سلامة (ED): «ديمقراطية بلا ديمقراطيين؟» (باللغة الإنجليزية)، «تحديث السياسات في العالم الإسلامي». لندن/ نيويورك (١٩٩٤). وانظر مناقشاتي في كتاب «العالم المسلم» لا يكستر (١٩٩٥)، مجلد ١٦، عدد: ١ ص ٣٦ - ص ٣٩.

(٣) انظر فصول حقوق الإنسان: و «جمهورية أم ملكية؟» في كتاب مراد هوفمان: «الإسلام كبديل».

هو نظام إلهي، كما ينكرون عليه إمكاناته الديمقراطية وسيرورته الديمقراطية. وبالإضافة إلى ذلك، يتغاضون عن عمد عن حقوق الأقليات التي كفلها الإسلام.

لقد انشغل المشرعون المسلمون على مر القرون بشكل مكثف جداً بالوضع القانوني والالتزامات القانونية للمسلمين المقيمين في بلد غير إسلامي. ومن ضمن هؤلاء المشرعين الماوردي (توفي عام ١٠٥٨) الذي أيد الرأي القائل بأن هؤلاء المسلمين يتبعون قوانين البلد المضيف. ويبيح المذهب الحنفي للمسلم المقيم في إقليم مسيحي أن يتلقى الفائدة المالية، لأن تعاليم القرآن الخاصة بالنظام الاقتصادي لا سبيل لتطبيقها هناك[1]. فكيف يوجه الاتهام للمسلمين الألمان - في ظل تشريعات كهذه - بأنهم في مجملهم أعداء للدستور والقوانين؟!

ولكن، إذا قرئ القرآن خارج سياقه الكلي، وقلبت صفحاته بحثاً عن انتقاص لحقوق الإنسان ملازم للقرآن، فيجب إذن القيام بالمثل مع العهد الجديد.

وستواجهنا على سبيل المثال بعض النصوص المثيرة للشك في الرسالة الأولى لبولس، الموجهة إلى أهالي كورنتيوس: «أما من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها، فحسن للرجل أن لا يمس امرأة» (٧/ ١). أو «ليس للمرأة تسلط على جسدها بل الرجل». أو «أنت مرتبط بامرأة فلا تطلب الانفصال، أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة» (٧/ ٢٧).

ومن أقوال باولوس في الرسالة الأولى لتموتاوس: «لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع ولكن لست آذناً للمرأة أن تُعلم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في

(١) خالد أبو الفضل «التشريع الإسلامي والأقليات المسلمة» في «التشريع الإسلامي والمجتمع»، مجلد ١ عدد ٢، لايدن (١٩٩٤).

سكوت لأن آدم جُبل أولاً ثم حواء»(٢/ ١١). ويمكنني أيضاً أن أستشهد متلذذاً برسالة بطرس الأولى: «كذلكن أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن»(٣/ ١).

هذا النهج الذي يسعى إلى إثبات خطأ فادح يصاحب الدين المسيحي منذ المهد في حق الديمقراطية، وكذلك الإشارة إلى عدم توافقها مع إعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة، لهو ضرب من الغباء والتضليل، وبالتالي أمر خطير. فلماذا إذن نتبع النهج نفسه مع الإسلام؟!

ولن يندهش أحد، إذا أقررنا الحقيقة التالية، وأعتقد كذلك أننا لن نجد من يخالفنا الرأي: إن تنمية الاتجاهات المعادية للإسلام وتدعيمها، يتركان آثارهما في السياسة العليا والقرارات الحاسمة. وأوضح مثال من التاريخ القريب دولتا الجزائر وهايتي؛ تم انتخاب قائدين أصوليين في كلا البلدين، وذلك عن طريق قنوات ديمقراطية، وتم قمع هذا التطور الديمقراطي عن طريق انقلاب عسكري، وبالتالي حال دون ممارسة الديمقراطية. وقد تدخلت كل من الأمم المتحدة والولايات المتحدة في أحد البلدين، وهو هايتي، فأنزلت الولايات المتحدة قوات المارينز إلى أرض هايتي. أما في القطر الآخر، الجزائر، فقد تنفست الحكومات الأوربية الصعداء، حينما أطاح الانقلاب العسكري بعباس مدني، لأنه أصولي إسلامي، وليس أصولياً مسيحياً مثل أرستيد في هايتي.

ويقف الصراع في البوسنة - من منظور إسلامي - شاهداً جلياً على مبدأ «الكيل بمكيالين». فلقد تعرض - كما كان الوضع بالنسبة للكويت - عضو صغير في الأمم المتحدة للعدوان والاحتلال من إحدى دول الجوار، ولكن تدخل الأمم المتحدة اقتصر فقط على منطقة المصالح البترولية.

ونعود إلى البوسنة. فلقد سمي الضحايا بالمسلمين، ولكن أغفلت وسائل الإعلام تماماً الإشارة إلى ديانة المعتدين، فخلت وسائل الإعلام من الإشارة إلى القتلة الصرب بالمسيحيين الأرثوذكس أو الكروات الكاثوليك. وذلك بالرغم من علم الجميع وإدراكهم لأسباب جرائم الصرب، وأن تعطشهم المجنون للانتقام من معركة دارت رحاها قبل ٦٠٠ عام في Kosovo Polje، ويزكيها ويضرم نيرانها كل من بطريركي الصرب الأورثوذكسي واليونان الأورثوذكسي.

ولقد حرص الغرب دائماً على التأكيد بأن سلبيته إزاء المذابح والتطهير العرقي الذي يتعرض له المسلمون في البوسنة والهرسك لا تعود إلى دوافع دينية، إنما يحكم هذا الموقف أسباب أنانية تأخذ في اعتبارها المصالح الخاصة بالدول، أي إنها أسباب تتعلق بسياسات الدول. ولكن يعتقد المسلمون كافة أن تحيزاً دينياً قد لعب دوراً مهماً في تحديد مسار الصراع في البوسنة.

ويتشابه هذا الموقف مع إخفاق الغرب في عام ١٤٥٣، عندما سقطت القسطنطينية على يد السلطان العثماني محمد الثاني (الفاتح). ونستطيع أن نقرأ بوضوح في كتابات Steven Reinciman أن مشاعر الكراهية التي يكنها الكاثوليك في روما وفينسيا وباريس للكنيسة الشرقية المرتدة، المارقة، وعداءهم لها شكلا العامل الأساسي والحاسم في تخليهم عن روما الشرقية للعثمانيين[١].

لا يتوهم المسلمون على أي حال أن الغرب ما كان ليتدخل عسكرياً وبقوة إذا كان الصرب - بكل ما اقترفوه من الجرائم ضد البشرية مسلمين، والبوسنيون - بكل ما تحملوه من آلام - هم المسيحيين. إننا على يقين تام بأن الغرب كان سيشن

(١) ستيفن رونسيمان: «الاستيلاء على القسطنطينية (١٤٥٣)». ميونخ (١٩٩٠).

حرباً شعواء على هؤلاء المسلمين المتوحشين الهمج. وكل هذا باسم حقوق الإنسان، ومبادئ الأمم، وقيم الإنسانية الغربية.

أما أن يفرض حظر سلاح على البوسنة الكاثوليكية الضعيفة، فلا أستطيع أن أتخيل وجوده أبداً.

ولقد تجاهل الغرب، في محاولته حل الأزمة في البلقان، مبادئ وأسساً يمارسها حلف شمالي الأطلنطي، ويلجأ إليها دائماً. وبناءً على هذا، توصل المسلمون إلى النتيجة النهائية، وهي عدم الاهتمام والمبالاة تجاه مصير شعب إسلامي في أوربا.

ويلحق هذا الرأي، بطبيعة الحال، ظلماً ببعض السياسيين والعسكريين الذين ينتهجون سياسة عدم الانحياز، وذلك نظراً لاعتبارات موضوعية بعيدة عن الدين، ولقد أطلق سيناتور أمريكي صيحته: «ليت المسلمين درافيل»!! وهذه العبارة تشير إلى اهتمام جماعات السلام الأخضر بالدرافيل.

ولكن كل هذا لا يغير شيئاً في حقيقة شعور المسلمين تجاه الغرب. فالبرغم من تدخل حلف شمالي الأطلنطي (الذي تأخر كثيراً) في خريف عام ١٩٩٥، فإن كثيراً من المسلمين، خاصة في العالم الثالث، يتحدث الآن - وسيتحدث لمدة قادمة - بمرارة لاذعة، ويتهكم ساخر، عن مفهوم الغرب لحقوق الإنسان والديمقراطية. ولقد سمعت مراراً من شباب عربي أن حق الشعوب - على مايبدو - له عيون زرقاء وشعر أشقر!!



وأتفهم بطبيعة الحال توجيه العتاب للمسلمين في ألمانيا من غير المسلمين،

لحساسيتهم المفرطة تجاه تحديد المظاهر المعادية للإسلام. ولكن بالنظر إلى أعمال العنف العديدة، التي تمارس ضد الأجانب (غالباً من المسلمين)، فإن هذه الحساسية تصبح مفهومة، خاصة إذا ما تذكرنا الحقبة الاشتراكية القومية في ماضي ألمانيا القريب. فلم يمر سوى نصف قرن على عصر كان المواطنون الألمان في وطنهم يتعرضون للاضطهاد والإبادة، وذلك بأعداد غفيرة، وتمثلت جريمتهم الوحيدة في اختلافهم في الدين والملبس والعادات، أو حتى لأنهم يتحدثون إحدى لهجات أوربا الشرقية.

ولقد سمح وجود عداء للسامية، وهو ضارب بجذوره في أعماق أوربا ومن ضمنها ألمانيا، بحدوث ذلك. كما أن هذا العداء حال دون وجود رادع أخلاقي يقاوم مثل هذه الجرائم، ويتصدى لها.

ويتمثل الخوف الأعظم للمسلمين في ألمانيا في احتمال اندلاع ميكانيزم مماثل، ولكن هذه المرة، فإنه موجه ضد شعب سامي آخر، ألا وهو العرب ودينهم، أي عداء للسامية العربية. (قالت أمي، عندما تلقت رسالتي الأخيرة من مكة: «فليبق عند العرب»).

ونسمع دائمًا أن تطوراً كهذا غير مرغوب فيه. وكم أود أن أصدق هذا، ولكن لا تكفي النيات الطيبة، أو الكلمات حتى الصادقة منها ليتحقق هذا. ولكنه يتحقق أولاً بمنع الحديث عن عدم قدرة المسلمين على ممارسة الديمقراطية وعدائهم للدستور، وأنهم لا يكنون أدنى احترام لحقوق الإنسان، وأنهم يستهدفون إقامة الجمهورية الإسلامية جرمانستان، ذات نظام الحكم الديني.

وإنني لآمل أن تكون التعليقات المعادية للإسلام في ألمانيا في المستقبل أكثر

حذراً. وأعتقد أن هذا الأمر بدأ يتحقق بالفعل في بعض الدوائر والمجالات.
ولكن على الجانب الآخر، يلحظ المسلمون وأصدقاؤهم تزايد ونمو ظاهرة مقلقة.
فلم يعد لائقاً سياسياً أن تتخذ موقفاً إيجابياً من الإسلام، أي أن تبدي بعض
التعاطف مع هذا الدين!



لفت ألكس توكفيل (١٨٠٥ - ١٨٥٩) الأنظار إلى وجود ميكانيزم جماعي، وآليات، لمراقبة حرية الرأي والتحكم فيه، وكذلك في توجيه الرأي العام حتى في الديمقراطيات الليبرالية. وضمّن آراءه هذه وتحليلاته كتاباً بعنوان: «الديمقراطية في أمريكا». وبالفعل، شهدت أمريكا هستريا في صورة الحرب التي شنها السيناتور جوزيف مكارثي (١٩٠٩ - ١٩٥٧)، النائب عن ولاية ويسكنسن على «نشاطات غير مشروعة وغير أمريكية»، كما جاء في كلماته.

وإذا كان التعامل النظري مع الفكر الاشتراكي اليوم غير محرم، ولا يمثل جريمة يتعقبها القانون، فلا يعني هذا انتهاء أو موت المكارثية. فالمعارض، معرض اليوم ليواجه بالتهمة ذاتها، ولكن تحت مسميات ومصطلحات أخرى. فلم تعد التهمة أنه ينادي بأفكار «غير أمريكية»، ولكن تستخدم مصطلحات تدل على أنه لا ينتهج «تفكيراً سياسياً سليماً». ويعرض المرء نفسه لهذه التهمة (القاتلة سياسياً وعلمياً) اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية، إذا ما صدرت منه أدنى بادرة توحي بتساؤل أو تشكيك يدور حول أحد ثلاث محرمات (تابو):

١- المساواة بين الرجل والمرأة.
٢- المساواة بين البيض والزنوج.
٣- ارتباط السياسة الخارجية الأمريكية بمثيلتها الإسرائيلية.

❖ ❖ ❖

عُقد في شتاء عام ١٩٩٤ بفيينا مؤتمر حول «أوربا والأديان بين الحروب الدينية والتسامح المدني». ولقد أقر Robert Spaemann بانتشار مناخ غير ليبرالي في أوربا، وذلك باسم كونية ليبرالية. وذلك لأن عدم وجود المذهب، لا يقل خطراً عن وجوده. ومجمل القول: إن الليبرالية، في حقيقة الأمر، غير متسامحة مع غيرها من الأيديولوجيات، أي إنها بوصفها أيديولوجيا مثلها مثل منظومات فكرية أخرى[1].

وتمثل هذه الآراء الأرضية الحتمية «التفكير سياسي سليم» في بلادنا. وتختلف المحرمات من بلد إلى آخر. فإبداء موقف إيجابي من الإسلام، لم يصبح بعد خطأ في الولايات المتحدة الأمريكية. أما في ألمانيا وإنجلترا، فهو بلا شك خطأ فادح، بل قاتل. (أخبرني ناشر كتبي بالإنجليزية في أثناء زيارتي له في ٢/ ١٠/ ١٩٩٥، أن المكتبات الإنجليزية تخجل وتستحي من عرض كتبي في نافذة العرض. فلم يعد عرض كتابات إيجابية عن الإسلام أمراً مقبولاً).

ولقد وقعت أنا نفسي ضحية لوسائل الإعلام، وذلك عندما أعلنت دار نشر Diederichs في أوائل عام ١٩٩٢ عن صدور كتابي «الإسلام كبديل»، في نهاية مارس من العام نفسه. فلقد أثار عنوان الكتاب وحده حملة ضدي في وسائل الإعلام خاصة في ARD وبيلد - يوم الأحد -.

وجهت لي هذه الحملة اتهامات عديدة، منها أنني أؤيد الزواج بأكثر من امرأة واحدة، وكذلك أؤيد الاعتداء بالضرب على النساء وبتر الأيدي ورجم الزاني

(١) نقلاً عن جريدة فرانكفورت ألجماتيه بتاريخ ٧/ ١٢/ ١٩٩٤، ص٥.

(بيلد ٢٢ من مارس). بل ادعت المجلة أنني أرغم السيدات اللاتي يعملن معي في السفارة بالرباط على ارتداء الحجاب (بيلد ٢٩ من مارس)، وأنني دفعت أحد العاملين معي إلى الموت (بيلد ٥ من إبريل).

وبلغت هذه الحملة ذروتها في تعليمات نائبة رئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني (SPD)، وتشغل في الوقت ذاته منصب خبيرة الشؤون القانونية بالحزب. وجاءت أولى مقالاتها لتقول: «إن هذا الرجل لا يطاق ولا يحتمل سفيراً يمثل بلده». ودعت وزير الخارجية جنشر لقراءة الكتاب في أقرب فرصة، ليعمل على الحيلولة دون أن يمثل هذا الرجل دولتنا (مع أن اليسار ضد الفصل من العمل). وقالت: إن الكتاب يمثل لها «عمل إنسان ساذج مغفل لا يعلم حتى مبادئ دستورنا».

وعندما طالبت السيدة Däubler - Gmetin وزير الخارجية قراءة الكتاب موضع الاتهام، والاطلاع عليه، لم تكن قد قرأته هي نفسها، لأن الكتاب لم يكن قد صدر بعد!! وعندما تم أخيراً الاستعلام عني والتحري عن شخصي، والاطلاع على الكتاب، وجدوا أن جميع الاتهامات التي وجهت لي لا أساس لها من الصحة، وبعيدة كل البعد عن الحقيقة[1]. وصدق القرآن مرة أخرى (السورة ٥٣: الآية ٢٨).

---

(١) كتبت مجلة «دير شبيجل» في عددها الصادر بتاريخ ٣٠/ ٣/ ١٩٩٢، تقول: «يقوم القانوني خريج هارفاد بالدعوة صراحة لتعدد الزوجات، ويرفض العنف في الزواج».

وكتب فريدي كشنايجر في مجلة «دي تسايت» يوم ١٥/ ٥/ ١٩٩٢ قوله: أما مؤلفو الروايات الساخرة عن الشطط الذي يمارسه آيات الله في ظل العلم الألماني، فقد فاتهم أن يقرؤوا متني الصفحة التي كتبها هوفمان».

تزامنت هذا الأحداث مع حلول شهر رمضان المعظم، فواصلت صيامي هادئاً مطمئناً. وكنت كثيراً ما أتذكر الآية الواردة في القرآن (السورة ٢٩ : الآية ٢)، وكذلك (السورة ٤ : الآية ١٣٢). ولقد تحير الكثير من زملائي من جراء هدوئي تجاه الحملة واسعة النطاق، التي استهدفت شخصي، ولكنني كنت على يقين - وما زلت - بأن هذه الادعاءات كانت ترمي إلى ما وراء شخصي، فهي تستهدف الإسلام عامة والمسلمين في ألمانيا خاصة.

كنت قد أخطأت بالفعل، من وجهة نظرهم؛ فموقفي الإيجابي من الإسلام كان عام ١٩٩٠ مقبولاً سياسياً، ولكنه لم يعد كذلك عام ١٩٩٢. وهذا هو التفسير الوحيد لتجاهل ممثلي وسائل الإعلام والسياسيين للمبدأ الأساسي الذي يحكم عملهم: «استمع إلى الطرف الآخر»، وذلك في أثناء حملة الاتهامات التي وجهت لي. لم تكن هناك حاجة أو ضرورة لسماع دفاعي، لأنني كنت قد ارتكبت الجرم الأفظع، بل وصرحت به: «إنني مسلم»!

وتكرر الموقف ذاته في خريف عام ١٩٩٥: محاولة ممارسة الضغوط من خلال وسائل الإعلام، لفرض موقف «لائق سياسياً» في سياق يكون الإسلام طرفاً فيه.

واستهدف الأمر هذه المرة شخصية بارزة، ذات مكانة رفيعة، وهي شيخة وكبيرة علماء الإسلام الألمان أنّا ماريا شيميل Annemarie Schimmel (Bonn). فلقد جرؤ القائمون على الأمر على منحها جائزة السلام، لاتحاد الكتاب الألماني، لعام ١٩٩٥، أي لعالمة يربطها بالإسلام صلات وثيقة، ولها إسهامات في التصوف الإسلامي.. عالمة تحظى باحترام عظيم في بلدان العالم الإسلامي وبخاصة باكستان. وكانت العالمة قد أعلنت رفضها لفتوى قتل سلمان رشدي، التي أصدرها الخوميني، ووصفتها بأنها «مروعة» و«مخيفة». وكان هذا الحكم

القانوني موفقاً سياسياً ومقبولاً من الرأي العام. ولكنها أقرت في الوقت نفسه بأن رشدي « جرح بأسلوبه مشاعر عدد كبير من المؤمنين» . . «لقد رأيت بالفعل مسلمين يبكون بسبب ما ورد في هذا الكتاب» . فهي ذاتها غير المسلمة الباحثة في تاريخ الأديان، قد تعرضت لصدمة شديدة، مع أن الأمر كله يدور حول رواية. وكان إقرار الحقيقة هذا، والتعبير عن مشاعرها أمراً مرفوضاً سياسياً، ولا يلقى استحساناً لدى الرأي العام.

أما تلميذها وزميلها Gernot Rotter ، الذي أجرى حديثاً معها، نشر في مجلة Spiegel، فقد رفض وصف تأثير «آيات شيطانية» في العالم الإسلامي، قائلاً: «إنني ما زلت على رأيي: فمحمد لا يتعرض حقيقة لإهانة في كتاب رشدي»[1].

وعلى أثر ذلك، اشتعلت حملة في وسائل الإعلام، وحملة للكتّاب، استمرت عدة شهور، تستهدف شيميل والحيلولة دون منحها الجائزة، واستمرت هذه الحملة حتى الموعد المحدد لتسلُّمها الجائزة في ١٥/ ١٠/ ١٩٩٥ .

وغلب على الحملة مقولة إن هذه الشخصية لا تطاق بوصفها عالمة، وإنها تمارس مادتها، أي الإسلام، بكثيرمن التعاطف غير المسموح به على الصعيدين السياسي والعلمي.

ولقد شغلت المجادلات حول جائزة السلام الرأي العام في ألمانيا حتى اليوم المقرر لتسلّمها. ولا بد أن نتفهم حرص الرأي العام على متابعة مجريات الأمر، نظراً للدلالة الخطيرة التي كان الاتحاد العام للكتّاب سيحملها إذا ما سحب جائزته تحت ضغوط معينة، إذ سيكون هذا الموقف - الذي لم يحدث - بمنزلة إنذار

(١) «دير شبيجل» ٢١/ ١٩٩٥، بتاريخ ٢٢/ ٥/ ١٩٩٥، ص ٢١٤ - ٢١٦.

وتهديد لمكانة حرية الفكر والرأي العام والتعبير، التي يتمتع بها المرء في ألمانيا،

ولقد حاول رئيس قسم الدراسات الشرقية في بون، ستيفان فيلد، في حديث أدلى به للإذاعة يوم ١٤/ ١٠/ ١٩٩٥، لفت الأنظار إلى المحاولة الواضحة لمعاقبة شيميل على توصيلها لأخبار سيئة، أي غير مرغوب فيها، كما جرت العادة في العصور القديمة. وكان موقفه هذا موقفاً رقيقاً بين الزملاء.

وكان بمقدور الأستاذ Wild توجيه اتهام لـ Gernot Rotter، مفاده عجرفة تجعله يرى في أوربا مركزاً أوحد للكون.

كان رئيس الدولة مدركاً لحقيقة المناخ الفكري في ألمانيا، عندما أعلن عن قيامه بتسليم الجائزة بنفسه يوم ١٥/ ١٠/ ١٩٩٥، في كنيسة باول في مدينة فرانكفورت.

ولم يأت حديث عمدة المدينة، Betra Roth من فراغ، عندما تحدثت عن تصوير الإسلام بوصفه عدواً. كذلك لم يحتج الرئيس جزافاً في خطبته الاحتفالية على المحاولات التي تمارسها وسائل الإعلام لفرض آراء بعينها على الرأي العام. وكنت أتمنى أن يشير إلى الظاهرة «بالألمانية»، لأن ظاهرة عدم التسامح الفكري استوطنت ألمانيا فعلاً.

إنني أتساءل:

إلى أين سيصل بنا المطاف، إذاما كممت الأفواه في ألمانيا، لأنها تتحدث عن حقائق لا تتوافق مع أيديولوجية بعينها؟ ماذا سيحل بنا، إذا ما استباح الأساتذة والعلماء الألمان الحق لأنفسهم في إملاء مشاعر بعينها على مليار من البشر (غير المرغوب فيهم)؟!

فليحفظ الله ألمانيا – ليس مسلميها فحسب – من جراء عدم تسامح الأصوليين الليبراليين، وتصويرهم الإسلام عدواً!

الخاتمة

لايتبع الكتاب نظاماً محدداً سلفاً. لكن بالرغم من ذلك، فإنه يمكن للقارئ أن يتبين توجهاً أساسياً في تقسيم فصول الكتاب، ألا وهو «أركان الإسلام الخمسة».

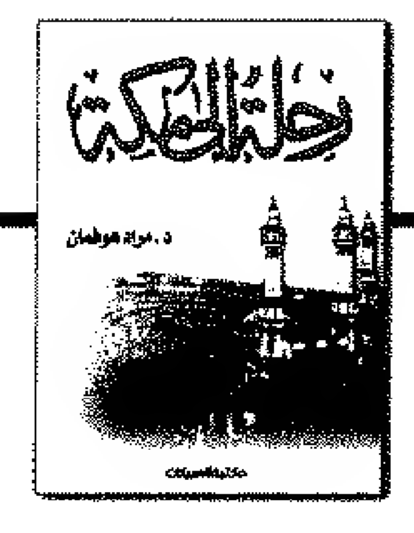
فيتضمن الفصل الثاني الشهادة، ويدور الفصل الثالث حول الصلاة، والرابع حول الزكاة. ويتحدث الفصل الخامس عن الصيام. أما الفصل الأول، فموضوعه الحج.

ويتطرق الكتاب، بالإضافة إلى ذلك، إلى أهم الأوامر والنواهي التي تصوغ ممارسات الدين الإسلامي. فيناقش الفصل الرابع مسألة تحريم الخمر والمخدرات، ويستعرض الفصل السادس النهي عن تناول لحم الخنزير، وكذلك النحر وفق ما تمليه الشريعة الإسلامية.

أما الإيمان بالقضاء والقدر، فيتناوله الفصل السابع. ويدور الفصل الثامن حول الأضحيّة. ويحتل الحديث عن الزواج في الإسلام المساحة العظمى من الفصل التاسع. أما الفصل الحادي عشر، فيتناول العمل على نشر الدين، وتجهيز المتوفى ودفنه في الإسلام، وكذلك الاستعداد للتضحية بالنفس في سبيل الله ودينه (الفصل الأخير: جهاد).

وبالرغم من طابع السيرة الذاتية، الذي يتصف به الكتاب، فإنه يصلح في المقام الأول دليلاً عملياً للطريق إلى الإسلام، أي في سبيل الله.

الفهرس



منذ بزغ فجر الإسلام وهو يُحارب من قبل المغرضين، لأنه يحمل للإنسانية سعادتها ورقيها، ويحفظ للإنسان كرامته وعزته، ويجعله حراً في فكره، مستقلاً في شخصيته، والغرب الذي سرت في دمائه السيطرة على البشر واستعبادهم رأى في الإسلام عدواً له فأخذ ينشر أفكاره الخاطئة عن الإسلام ويبث سمومه بافتراءات عليه.

ولكن الله يقيض لدينه من بين هؤلاء من يظهر الحقيقة ويحمل سلاحه الفكري مدافعاً عن الإسلام، ومفنداً آراء هؤلاء المبطلين.

والكتاب الذي بين أيدينا يحمل إلى الناس حقيقة الإيمان ونور الإسلام وهديه كما عاشها أوروبي أنار الله بصيرته فدخل الإسلام عن صدق ودرسه بعمق، كما يبين للمسلم كيف يدرك القوة الدافعة التي يستمدها من دينه؛ فتسمو به إلى المكانة الرائدة للعالم الإسلامي عندما يتمسك بدي منهاج حياته اليومية.

ومكتبة العبيكان يسرها أن تنشر هذا الكتاب حرصاً منها على أد القائمة على الدفاع عن الدين وحماية العقيدة؛ لأنها ترى في هذا ه الأمة الإسلامية وتحقيقاً لريادتها للعالم، وهي ترجو من الله الأج الخير.

والله من وراء القصد.

الناشر

ردمك ١٠ - ٧٤٧ - ٢٠ - ٩٩٦٠
6000361- 2003